ميشال زيفاكو

رواية
باردليان

ترجمة : طانيوس عبده

الجزء الثاني

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

باردالیان

- ١ -

شارع لاهاش

حدثت حوادث حالت دون تنفيذ ما نواه هنري في تلك الليلة .

ومما يستغرب ان هذا الرجل حين خرج من غرفة حنة ، وجد نفسه سعيداً بما استنبطه من قوله لها انه لم يختطفها إلا لانقاذها مع ابنتها من خطر محدق بهما .

وقد قال في نفسه انها بدأت بشتمي ولعني ولكنها ستنتهي بأن تصغي إلى ما أقوله لها دون غضب .

وقد حمله على إبعادها عن قصره ، خوفه من أخيه حين علم أنه جاء إلى باريس .

ولبث في قصره إلى أن هجم الظلام ، فانتشح بوشاح كبير وتقلد خنجراً عريض النصل ، وذهب إلى شارع لاهاش .

ووقف عند باب ذلك المنزل الذي رأينا البيس دي ليكس جاسوسة الملكة كاترين مقيمة فيه .

وقد نظر حين وصوله نظرة سريعة ليرى إذا كان يوجد من يقتفيه ، فلم يجد أحد ، وأدخل في قفل الباب مفتاحاً كان معه فلم يفتح .

فقال في نفسه : يظهر أنهـا غيرت القفل لغرض من الأغراض ، أو انها تخشى وصولي فجاءت اليها .

وعند ذلك قرع الباب فلم يجبه أحد ، ولكنه رأى ان نور المصباح قد انطفأ ، فقال في نفسه : إنهم يحذرون ، ولا شك انها في المنزل ، ولكن لا بد أن يفتحوا .

ثم طرق الباب أيضاً بعنف ، وبعد هنيهة سمع إمرأة من وراء البـاب تقول : من الطارق ؟

فعرف هنري صاحبة الصوت وقال لها : إفتحي يا لورا

ففتحت لورا الباب وهي تقول : أهذا أنت يا مولاي .

— نعم ، وأي شيء أذهلك من حضوري .

— أدهشني انني منذ عام لم أرك .

— الأجل هـذا الغياب تقابليني بهذا البرود ، أم ظننت اني آت لمشاهدة البيس .

— إنها ليست في باريس .

— كيف ذلك أيتها العزيزة ، ولم يكن حديث الناس أمس في اللوفر إلا بعودتها .

— هو ذلك ، ولكنها سافرت .

— إذاً سأقيم عندك في انتظارها ولو اضطررت أن أقيم عاماً .

فأجابه عند ذلك صوت من الداخل يقول : تفضل يا سيدي المارشال

بالدخول ..

وكان هذا الصوت صوت البيس .

فدخل هنري وقد عرف صوت البيس ..

فاستقبلته البيس وقالت له بعد أن تركتها لورا .

— تفضل يا سيدي المارشال وقل ما تريد قوله فإنك تدخل إلى منزلي عنوة وتكلفني بلهجة التهكم ، وتريد أن تستوطن منـزلي ، وكل ذلك لأني كنت عليك .. تفضل يا سيدي وقل ما تشاء فاني مصغية اليك .

وكان وجهها مصفراً وصوتها يضطرب تدل نبراته على الحزن ، ورفع هنري قبعته وقال لها : أول ما أبدأ به يا سيدتي اني أسألك الصفح عن الملحاحي بالدخول إلى منزلك فاني أخشى أن أكون قد أثرت غضبك ، وأنا قادم لألتمس منك مساعدتي في شأن خاص .

— قل يا سيدي فاني غير مغضبة عليك .

وقد قالت له هذا القول بلهجة رضى صادقة ..

فإنها حين علمت انه لا يزورها زيارة عاشق ، وانه قادم اليها في شأن خاص لم تعد تكترث لقدومه .

أما هنري فإنه نظر إلى الغرفة التي كان فيها نظرة الفاحص وقال : لم يتغير شيء في هذه الغرفة ما خلا أمرين .

— ما هما يا سيدي ؟

— أولهما أنت ، فقد زاد جمالك ونضارتك حتى بات يبهر الأبصار ، لا تخافي فاني لا أطارحك الغرام ، ولكني أثبت ما رأيته

والثاني ؟

فابتسم هنري وقال : هذا المكان ، فقد كان فيه صورة من قبل لم أرها الآن .

– إنها صورتك يا سيدي الفارشال وسأخبرك عن السبب في إخراجها من الغرفة ، وعن السبب في تأخري عن فتح الباب ، ولماذا سألتك عن السبب في زيارتك ، ولماذا أخيراً أسألك ان تنسى اني في هذا الوجود ، وان هذا المنزل موجود ..

كل ذلك يا سيدي افصح عنه بكلمة وهي اني عاشقة

– لقد استدعتني بسواي كما يظهر وجعلتني سعيداً ، وذلك لأن ما اتيت اسألك المساعدة فيه يقتضي ان يكون بيننا هذا الفراق .

فنظرت اليه اليس نظرة المتدلل فقال لها :

– اني موضح لك يا سيدتي ، ما قد تحسبينه من باب الأنفار بدليل ما أراه من انذهالك

وفي تلك اللحظة اصفرت اليس فجاءة فأسرعت إلى هنري فأخذت بيده وأدخلته إلى غرفة راقفلتها .

وقد دخلت عند ذلك ايضاً نورا فقالت لها اليس :

– اسكتي فقد سمعت ..

وكان ذلك انها سمعت صوت وقع أقدام عند الباب الخارجي ، ثم سمعت صرير مفتاح في قفل ذلك الباب ، وعلمت ان هذا القادم كان خطيبها الكونت دي ماريليك .

أما الكونت فانه أسرع إلى دخول المنزل والخوض إلى الغرفة التي كانت فيها اليس ، فرآها جالسة على كرسي وهي شديدة الاضطراب

فراعه اضطرابها وقال لها . ما بالك يا اليس مضطربة مصفرة ، اعلك مريضة ؟

أجابت : كلا ، ولكني سمعت صوت خطواتك فأثر بي الفرح بقدومك هذا التأثير .

ووقف دوداث باهتاً مندهلاً ، فانه كان يزورها كل يوم جمعة ، ولكنه

زارها هذه المرة لية الخميس

وكانت اليس تراقبه وتقرأ ما كان يجول في نفسه ، وخشيت ان يداخله الريب فيها وقالت له وهي تبتسم :

– ما هذا الضعف الذي تراني ؟

أيؤثر بي الفرح لقدومك في غير اليوم المعين هذا التأثير ؟ ولكنك لا تستطيع انكار لذة هذه المفاجأة أيها الحبيب ، وليس لي سواك في هذا الوجود ولا افتكر إلا بك ولا لذة لي إلا برؤياك .

فضمها دوداث الى صدره وقبل جبينها وهو يقول :

– وأنا أيضاً ايتها الحبيبة ، ليس لي سواك في هذا العالم . وأنا ابعد حين ادنو من هذا المنزل الباسك ، أشعر أن قلبي ينبض حتى يكاد يخرج من صدري .

فاطمأنت اليس وقالت في نفسها : لا بد اذاً للفارشال ان ينتظرني ، ولا أبالي فانه لا يستطيع أن يرى دوداث .

وعاد دوداث الى الحديث فقال على اني اسألك المغفرة لقدومي في غير اليوم المعين للزيارة .

– كيف تسألني المغفرة ايها الحبيب ، وقد جعلتني بهذه الزيارة من أسعد الناس .

– آه السعيد بها أيتها الحبيبة ، ولكنها سعادة لا تطول وأسفاه . فاني لا استطيع غداً أن اصرف معك تلك الساعات التي تمر بنا مر الثواني .

– كيف ذلك ، ألا تحضر غداً حسب العادة .

– كلا يا اليس واسفي لي فاني سأحضر اليوم مجتمعاً يجتمع فيه فريق من كبار القوم المداولة في أمور خطيرة ... ولكني ، لا أحب ان اسكتم عنك شيئاً

وعلمت ليس لفورها انه سيتكلم عن أمور سياسية ، وادركت ان هنري المتشيء في الغرفة المجاورة ، لا بد أن يسمع الحديث ، ولكن كيف تستطيع منع خطيبها عن الكلام .

ومضى ديودات في حديثه فقال :

– وكيف اكتم عنك ايتها الحبيبة اسرار قلبي وانت مقيمة في ذلك القلب فاعلمي اذاً انه في هذه الليلة .

فقاطعته ليس قائلة :

– ايها فائدة ايها الحبيب من الاباحة لي بأسرار .. كلا اني لا اريد ان اسمع منك غير اسرار غرامك .

فابتسم ديودات وقال :

– انت شريكتي في حياتي يا ليس فأنا احبك بالقلب والعقل وبكل الجوارح فلا بد لك ان تعرفي من امري كل ما اعرفه .

– اخفض صوتك ايها الحبيب .. الوصل اليك ان تخفض صوتك .

لورا .. لورا .. فان عمتي يا ديودات كجميع امثالها من العجائز كثيرة الفضول والكلام .

فضحك ديودات وقال ، لقد اصبت يا ليس فاني لم افطن لها .

وعنـــد ذلك فتح الباب ، ودخلت لورا فقالت لها : إني مضطرة إلى التغيب هنيهة عن المنزل يا ليس ، وقد اغتنمت فرصة وجود الكونت عندك كي لا أدعك وحدك .

فكادت ليس تصيح صيحة يأس ، فان هذه العجوز ذكرت جلياً لفطنة الكونت ، وفوق ذلك فإنها اتخذت وجودها في المنزل حجة كي تمنع ديودات عن الاباحة بأسراره فيسمعها هنري .

وقد ظهر عليها الرعب فقالت للعجوز بلهجة المتذمر : كلا لا تذهبي وابقي في هذه الغرفة .

فقال لها ديودات ألا تثقين بي يا ليس ؟ . . .

وحارت ليس في أمرها ، ولم تجد مخرجاً من هذا الموقف الحرج . فنظرت إلى لورا وقالت لها : اذهبي يا عمتي ، ولكن لا تطيلي الغياب

فقالت لورا : إني أذهب آمنة مطمئنة ، وما زال الكونت معك فلا اخاف عليك مكروهاً

وبعد هنيهة سمع ديودات صوت اقفال الباب الخارجي ، فنظر إلى ليس نظرة حنو وقال لها : هوذا قد بقينا وحدنا الآن يا ليس ، ولم يبق خوف من أن أبوح لك بأسراري .

فهاج قلب ليس خوفاً ، وخشيت أن يندفع بالكلام ، فأخذت بيد ديودات وقالت له : هلم أيها الحبيب نغير في الشرفة فان الهواء عليل .

– بل نبقى هنا يا ليس ، فلم يبق لي غير بضع دقائق ثم انصرف ، فان ملك النافار وكوليني والبرنس دي كونديه ينتظرونني وهم مجتمعون في شارع بيتزي .

فقالت في نفسها . ويلاه لقد بح سره .

ومضى ديودات في حديثه فقال : وانتا ننتظر أيضاً المارشال فرنسوا دي مونمورانسي .

فارتعشت ليس ارتعاشاً ظاهراً لولا انهماك ديودات فيه ، لسمع حركة في الغرفة المجاورة .

ولكنه شغل بليس فقال لها ماذا اصابك يا ليس ؟ وما هذا الاصفرار ؟

– لا أدري أيها الحبيب ، ولكني اشعر بأني منحرفة الصحة .

– لا بأس يا ملاكي المحبوب فسأجعلك من اسعد النساء .

– نعم نعم لنتكلم عن المستقبل .

– يجب ان افارقك يا ليس ، فانك تعلمين من ينتظرني ، وسيكون

اجتماعنا اليوم لشأن خطير جداً إذا نجحنا فيه ، بطلت تلك الحروب وتصبحين امرأتي فلا نفترق لحظة .

اليس ، اننا عازمون على اختطاف شارل التاسع والزامه بقبول شروطنا .

فصاحت اليس عند ذلك صيحة اشبه الأنين ، واسرعت إلى الباب وهي تقول : اسكت فان عمتي انت واظنها لم تذهب

وفتحت الباب فظهرت لورا ودخلت إلى الغرفة .

فقال ديودات كأنه يتم حديثه مع اليس : إذاً لا نجتمع غداً حسب العادة ، فقد علمت اليس إني مضطر إلى السفر .

— إذهب يا سيدي الكونت ولحرسك الله .

فلعب الكونت وخرجت اليس لوداعه إلى الباب الخارجي حسب العادة وبقيت لورا في المنزل .

فتبادل العاشقان عند ذلك الباب قبلتي حرام

وقالت اليس لحبيبها : ان السبب في ما رأيته من اضطرابي الليلة لم يكن لانحراف صحتي كما قلت لك ، بل لأني لم منذ اسبوع أحلاماً هائلة ، اصبحت بعدها على ما ترائي من الانقباض .

— إنها أضغاث أحلام ايتها الحبيبة لا يكترث لها العاقلون .

— فنظرت اليه نظرات تشكت فيهـا كل شيء وقالت له : أتحبني يا ديودات ؟

— كيف تسألينني هذ السؤال أيتها الحبيبة .

— إذاً فاعلم انه إذا كان قلبك وحياتك لي حقيقة فأني أوصل اليك ان تحذر لنفسك يا ديودات في كل حين ، ولا سيما في هذه الأيام فاحذر كل انسان ولو كان أبوك معك لقلت لك أحذره ، بل اقول لك احذرني انا خطيبتك ..

فمن يعلم فقد اوجع بامرارك وانا لاهية لا ادري ما اقول ..

اقسم لي يا ديودات انك ستحذر كل الحذر فتتفحص الطعام قبل شربه ، والطعام قبل أكله ، وتنظر إلى ما وراء الجدران قبل أن تتكلم .. احلف .

— إني اقسم لك يا اليس ان احذر كل الحذر ، ولكنك تحققيني بما تقولين فهل عرفت شيئاً تكتمينه عني ؟

— كلا . كلا ، ولكن قلبي يوحي إلى هذه المخاوف ، ولم يخطىء حدسه قلبي إلى الآن ..

ديودات انك اقسمت لي فلا تحنث بيمينك ، واحذر لنفسك كأنك عالم بأن الأعداء .

— سيكون ما تريدين أيتها الحبيبة فاطمأني ولا تحزني فان عدانا قريب باذن الله .

ثم عانقها مودعاً وانصرف .

فبقيت اليس واقفة تشيعه بالنظر حتى توارى .

* * *

وقد كان موقفها هائلاً ، فانها تمثلت حبيبها بين ايدي الجنود يدفعونه إلى يد الجلاد .

وذلك لأنها كانت واثقة ان هنري دي موغورانسي قد سمع كل الحديث فهو يعلم ان الكونت دي ماريلياك يأتمر على ملك فرنسا مع ملك النافار والبرنس كونديه و كوليني وفرنسوا دي موغورانسي .

ولما كان قصر القصال بالدرق دي كيز ، فقد بات من فائدة الوشاية بالهوكينوت .

وفوق ذلك فان هذا الرجل يكره أخاه كرهاً عظيماً ، فلو خطر له كتمان مؤامرة الهوكينوت فهو لا يكتم مؤامرة أخيه ، فان اليس كانت

عارفة بعداء الأخوين ، كما إنها كانت عارفة بما كان من الصلات بين هنري وبين الدوق دي كيز .

وقد قالت في نفسها :

ان هنري حين يخرج من هنا يذهب توراً إلى الملك ، فيشي باخيه وبقية المؤامرين .

وسيرد اسم دوجات بين اسمائهم ، فلا يبقى بعد ذلك غير القتل .

وقد تجسم الخطر لها حتى تمثلت حبيبها بين براثن الموت ، ورأت ان لا نجاة له إلا بكتمان هذه المؤامرة .

وهي لا تكتم إلا بكتم انفاس الواشي ، فتمكن منها اليأس وعزمت عزماً أكيداً على قتل هنري انقاذاً لحبيبها من القتل .

ولما عزمت هذا العزم عادت الى المنزل فدخلت إلى الغرفة التي كان فيها دوجات ، فأخذت خنجراً دقيق النصل فسكنت قبضته بيمينها وجعلت نصله داخل كمها بحيث لا يرى .

ثم فتحت باب الغرفة التي كان فيها هنري ، ودخلت اليها غير هيابة وهي تعتقد انه سيتذكر ما سمعه كل الاستذكار .

ولكن فراستها اخطأت ، فانها حين دخلت استقبلها هنري قائلاً :

اخبرك يا سيدتي إني سمعت كل مـــا دار بينكما من الحديث وعرفت كل شيء .

فوقفت اليس جامدة حائرة لانها لم تكن لتوقع هذه المباغتة بالتصريح ، وذعرت فحركت يدها حركة ظهر منها الخنجر المخبوء في كمها .

فدنا منها هنري خطوة وقال لها بل، السكينة .

ثم أخبرك يا سيدتي اني متدرع بدرع من الزرد فـلا يصل خنجرك إلى صدري ، ولا فائدة لك من محاولة قتلي .

فرجعت اليس إلى الباب فاقفلته واستندت إلى ذلك الباب وقالت :

يدوني انك عرفت قصتي لأن ذلك يدعونا إلى مراك عنيف قـد أكون الغلوبة فيه ، ولكني مضطرة إلى قتالك ، على اني اؤثر ان تقتلني على ان ادعك تخرج من هنا حياً .

وعند ذلك أشهرت خنجرها ، فنظر اليها هنري في البدء نظر العجاب ، ثم رأى ان من الحكمة ان يحتاط لنفسه ، فتراجع مسرعاً ووقف وراء مائدة كانت في وسط الغرفة بحيث باتت تلك المائدة حائلاً بينهما .

ولما أمن على نفسه من هجومها قال لها بلهجة النصوح ان نتيجة هـــذه المعركة بيني وبينك لا تحتمل الشك يا اليس .

– وأنا لا أشك بها فاقتلني أو اقتلك إذ لا يـــد أن يقتل أحدنا في هذه الغرفة

– كلا ... فلا اقتلك ولا تقتليني ، فإني لو أردت الخروج من هـــذه الغرفة ، لقبضت على يدك ونزعت منها الخنجر وخرجت ، دون ان أصيبك بضرر ...

وفي كل حال فلا تطمعي ان اقتلك .

فارتعشت اليس لوقوفها من ان الارشال قد عرف يأسها .

وعاد هنري إلى الحديث بعد صمت قصير فقال :

غير انك إذا أكرهتني على استعمال العنف فان لي الحق بعـد خروجي من هذه الغرفة ان استفيد من تلك الأسرار التي سمعتها .

فاحرت عينا اليس من الغيظ ، وأنت أين الموجع دون ان تجيب .

فقال لها هنري :

وأما إذا أمكن اتفاقنا فاني أعدك إني أنسى كل ما سمعت ، واني اتعهد لك بذلك ، فقفي في مكانك دون أن تتقدمي ، وأنا أبقى في مكاني دون أن أتقدم ، ثم نتخاير إلى أن نتفق

وقد قلت لك يا اليس إني أتعهد بنسيان مـــا سمعت إذا اتفقنا فهل

تثقين بكلامي .

فاجابته بصوت يتهدج من اليأس : إني لا اثق بكلامك ولو هبط اليك وحياً من السماء .

فاصفر وجه هنري وقد داخل قلبه شيء من الرعب أمام هذه المرأة التي تأبى الا ان تقتل أو تموت .

ولكنه تنهد تنهداً طويلاً وقال لها : واذا اعطيتك رهينة على تعهدي ، رهينة حية يا ليس اتقبلين ؟

أصغي إلي ولنتباحث مباحثة صديقين ، فقد اتيتك ملتمساً مساعدتك في شأن خاص ، وسأوضح لك كل ما يجول في خاطري ، ولكنك تصغين إلي ، ليس كذلك ؟

نعم إني اقرأ رضاك في عينيك إذن فاعطني .

اني أراك قاطعة قنوط غرام ، فقد عرفتك بعد طول صحبتك حق المعرفان ، فما رأيتك مرة مندفعة في مجال العواطف هذا الاندفاع قبل الآن .

وفي ذلك أعظم شاهد على انك تحبين حباً صادقاً ، ليس وراءه غاية لمستزيد .

اتحسبين يا ليس إني أريد الاستفادة مما سمعت ؟

انك لا تريدين انقاذ ملكة النافار ، ولا كوليني ولا البرنس دي كوندييه ولا .. أخي ، ولكنك تريدين انقاذ الكونت دي ماريلياك .

إني لا أعرف هذا الرجل ، ولم أعرف منه إلا انك تحبينه أكثر من حياتك ، وقدمته بحياتك وان كل جوارحك قد استحالت في هواه إلى غرام فتال .

وكانت ليس تنظر اليه وهو يتكلم نظرات وحشية وتراقبه كي لا تبدر منه بادرة أو يحاول الفرار .

أما هنري فانه صمت هنيهة ، راجياً ان تجيبه ، ولكنه رآها ساكتة فاستأنف حديثه وقال .

.. أليس أرى انه لا بد من ان تجيبيني ، فهل أخطأت فيما قلته أو انك تحبين على ما وصفت .

قالت نعم إني أحب وأحب هذا الرجل الذي ذكرته ، وقد يأست في هواه كما وصفت ، فلم يبق لي غير القتل أو الموت .

فقال لها هنري .

أرى ان الفاقة بات قريباً ، فهل لك يا ليس ان تطرحي هنيهة هذا اليأس وتنظري نظرة ثقة إلى هذا الرجل الواقف أمامك .

ليس ، اتريدين ان تعلمي كيف اني صبرت هذا الصبر وأنا الجندي الذي لا يعرف ان يصبر ، بل أنا الرئيس الذي تعود أن يرى مواسل الرجال ترتجف أمام ارادته ؟

أتريدين ان تعلمي لماذا احتجت إلى اقناعك بالعطف والملاينة على اشتهاري بالتزق والحدة ، وعلى اني لو اندفعت مع طباعي لاقتلتك من هذه الناقلة ؟..

واخيراً أتريدين أن تعلمي يا ليس لماذا أنا أحتاج اليك ، وكيف عرفت يأسك وغرامك ؟.

فاتقدت عينا ليس ببارق ، ولعله كان بارق الرجاء .

فرأى هنري اتقاد عينيها وقال لها :

أرى ان كلامي بدأ يؤثر عليك ، وسيكون تأثيره أشد متى أوضحت لك الأسئلة المتقدمة .

ان ذلك يقطع قلبي ، ولكني لا أجد بداً من قوله ليس لاقناعك يا ليس فانه لا خوف على حبيبك مني ، بل لأقل مساعدتك التي لا بد لي منها ، وها أنا شارح لك اسئلتي فأقول :

إني لم أصبر ذلك الصبر الذي لم أتعوده ولم أفهم معنى غرامك على ما

عرفت به من احتقار الغرام إلا لأني أحب كما تحبين يا اليس.

ان حبي يعامل حبك شدة ويزيده يأساً ، فان الرجل الذي تحبينه يحبك ولكن المرأة التي أحبها تكرهني وتحتقرني .

انت تجزين عن حب بحب ، وأنا أجزى عن الحب بالاحتقار .

وهنا توقف هنري عن الكلام ، وقد اضطرب اضطراباً شديداً ثم جلس على اليس حتى إنها أرخت ذراعيها وسقط المخجر من يدها على الأرض .

ولو كان هنري أراد خداع هذه الفتاة بتمثيل يأسه إلى حد جعل تلك الفتاة على الاشفاق عليه ، وهي كانت تريد قتله لابتسم ابتسام المنتصر وكان فوزه عظيماً .

ولكنه لم يكن يمثل تمثيلاً ، بل كان صادقاً في كل ما قاله ، وكانت علائم الصدق بادية بين عينيه ، وهي التي جردت اليس من سلاحها ، فانها حين وثقت من صدق غرام هذا الرجل أيقنت من امكان الاتفاق معه ، لاتفاق القلبين باليأس والغرام .

وعند ذلك دنت منه ومدت له يدها ، فصافح هنري تلك اليد وجال الدمع في عينيه ، فبكى وبكت لبكائه فكان كلاهما ضحية غرام .

فقالت له اليس :

اجلس يا سيدي الفارشال وثق أن سر غرامك لا يخرج من فمي ، واني أدفنه في صدري ما حييت .

فشكرها هنري وبعد هنيهة عاد إلى الحديث فقال :

— اني لو لم أعرف سرك ، ولو لم أرك مصممة على الموت أو على القتل لما أخبرتك بحرف عن غرامي الذي يكاد يتفجر بصدري .

وقد اتفق الآن ان المهمة التي أرجوك قضاءها ستكون ضمانة لك كما ان سرك سيكون ضمانة لي وأنا موضح لك ذلك فاسمعي .

— إنك إمرأة ذكية الفؤاد لا يجد العاقل بأساً من أن يخبرك بكل امره .

واقد كنت عشيقة لك يا اليس ولكذلك كنت تعلمين اني لا احبك فلا اعلم السبب الذي دعاك إلى القبول بي .

أما طايتي في ذلك العهد فلم تكن إلا التلهي بك عن ذلك الغرام القاتل الذي يقطع قلبي منذ ستة عشر عاماً .

عفواً يا اليس واعذريني هذه اللهجة الهجيبة التي أكلمك بها .. فاني لا أجد بداً من الجلاء .

واظهرت اليس إشارة دلت على عدم الاكتراث ، ومضى هنري في حديثه فقال :

— واحمي الآن يا اليس ما حدث ، فاني قبضت على هذه المرأة التي أحبها وهي الآن أسيرة في قصري مع ابنتها ..

ولكنه ، يجب ان تتم هذه المرأة خارج منزلي اسبوعاً على الأقل ، على أن أكون واثقاً من انها لا تستطيع الفرار مني ... وأنا أسألك مساعدتي الآن

فقالت له اليس : وماذا تريد مني ؟ الملك تريد أن تجعلني حارسة عليها ؟

— نعم ..

فنظرت اليه اليس نظرة منكرة وقد أعجت من قلبها آثار تلك الشفقة على هنري ..

ورأى هنري ما بدا من نظراتها ، فعلم ما يجول في نفسها وقال لها : اني لو لم أقف على سرك يا اليس لسألتك هذه المساعدة دون ان اخبرك الحقيقة ، ولكنت لفقت حديثاً يقنعك .

ولكني رأيت بعد الوقوف على سرك ، ان لا فائدة من المواربة ، وان سرك بسر ، فأنت تساعدينني في غرامي وأنا اساعدك في غرامك ، وانت تعلمين المرأة التي احبها عندك ، فتحفظين حبيبتي وانا اكتم سر تلك المؤامرة فأصون حبيبك .

وانت ترين اني اعطيك على تعهدي رهينة حية كما تقدم لي قوله ، فاذا غدرك ووشيت بعاشقك تتقمص مني اقطع النقام وتجعليني اقص رحل في المملكة ، وذلك بأن تقولي لأخي فرنسوا موفورانسي ، ان حنسة دي بيانس مقيمة عندك وانها بريئة من التهمة التي اتهمها بها اخوك ، وانها لا تزال تحبك .

وقد قال هذا القول بلهجة اوت الأثير عظيماً على البيس وعرفت تلك الشكية الماثلة التي اصيبت بها امرة موفورانسي ورهبت رعباً شديداً حين افتكرت انها ستمثل في هذه الفاجعة هذا الدور المكروه .

وقال لها هنري اراك تعجبين كيف اني احببت امرأة اخي ، وكيف تمكنت من التفريق بينها وبين زوجها ، وكيف اني لا ازال مولعاً بها بعد هذا الفراق الطويل .

لا تعجبي يا البس فاني انا نفسي اعجب لهذا الاتفاق ، ولكنه حدث ولم يبق سبيل الى الرجوع .

والآن فهذا ما أطلبه اليك ، وهو ان تحفظي عندك حنسة دي بيانس بأمانة فتكونين الحارسة عليها المسؤولة عنها ، وإلا ..

— وإلا ماذا تفعل ؟

— وإلا خرجت من هنا وذهبت توا إلى الملك ووشيت باريلياك فيحكم عليه بالشنق .

وعلى ذلك فان كلا منا متعلق بالآخر فأنا اعطيك من اجل رهينة على تعهدي . وتكون حياة من تحبين بيدي رهينة على وفائك .

فتعمق في الأمر وداوني بين حبك لباريلياك ، وبين هذا العمل الشائن الذي سأعهد به اليك ، فاذا رفضت اقتراحي كان رفضك دليلاً على انك لا تحبينه .

— اذا لا احبه ؟ اني احرق باريس من اجله .

— اذاً ستقبلين .. دعي خنجرك فلا فائدة منه وإذا كنت لا تثقين فانظري ..

ثم فتح لوبه فانكشف عن درع من الزرد الضيق الحلق يبلغ الى عنقه .

فوقفت البيس تمعن يدها حسرة وتقول : سأنزل من اجلك يا ديودات إلى آخر دركات العار ، ولم يبق بعد عار الجاسوسية غير هذا العار .

فانحنى هنري باحترام لا يبديه امام الملك وقال لها غداً سأحضر في الليل فاستعدي لاستقبال الأميرتين

ثم ركبا وانصرف فوقفت تلك الشكودة حائرة مضطربة تفضل الموت على ما هي فيه وجعلت تبكي وتقول ويله من ينقذني من هذا العار .

فأجابها صوت قائلاً بلهجة خطيرة : انا !

فالتفتت البيس وتراجعت مذعورة تقول من هذا .. الراهب .

وقد كان هذا الراهب المركيز مانيكارولا ، اول عشاق البيس ، فانه كان مختبئاً وراء الباب الذي خرج منه هنري دي موفورانسي .

٣

الاب والابن

في نفس تلك الساعة التي خرج فيها هنري ، من منزل ليس ، عائداً الى قصره ، اي عند الساعة الثامنة مساء ، كان رجل يسير مسرعاً في شارع سانت دينيس .

وكانت الحوانيت تقفل في ذلك العهد عند الغروب ، فاذا غابت الشمس أظلمت الطرقات إذ لا يضيئون نوراً فيها .

وفيما كان هذا الرجل سائراً ارتطم برجل آخر كان يمر في نفس الشارع فتتم بعض الشتائم وواصل سيره لأنه كان مسرعاً .

حتى إذا وصل إلى فندق دفينجر وقف عند بابه يتأمل ذلك الفندق تأمل العاشق .

ثم مر رأسه وواصل سيره وهو يقول : يجب ان انهج منهج الحكمة فان الوقت فسيح لدي وسأراه .

واستمر في سيره حتى وصل الى قصر هنري دي موغوراسي ، فطرق بابه الضخم ، ففتح رتاج ذلك الباب وظهر منه رأس رجل فقال للطارق من انت ؟

— قل لسيدي المارشال ان الرجل الذي التقى به في فندق بوندكيه قبيل الى رانه يطلب مقابلته .

فتح الباب في الحال وادن للطارق بالدخول .

وكانت بيوت كبار النبلاء في ذلك العهد مثل موغوراسي وكيز ، تشبه القوفر ، فقد كان بيت المارشال دي موغوراسي بلاط كبلاط اللوفر ، وله حجبة من الأشراف وحراس وضباط ، فهو ملك في قصره كما كان شارل التاسع ملكاً في اللوفر .

واستمرت هذه العادات إلى عصر لويس الثالث عشر ، حين أبطلها الكردينال ريشليه ، ذلك السياسي العظيم ، فدك عروش اولئك الملوك وقتل سلطة النبلاء ، فلما ورث لويس الرابع عشر الملك عن ابيه ورث ملكاً مستقلاً وسلطة مطلقة بفضل ذلك الوزير الكبير .

فلما دخل الطارق إلى فناء القصر استقبله ضابط وقال له : أأنت قادم من بوندكيه ؟

— نعم ..

— إذن انت بارداليان .

— بل لي الشرف ان ادعى الشقيق دي بارداليان ... وأنت من تكون ؟

— إذا كان سامحك ، اني لم ادعك بألقابك ، فاني مستعد لنسيان احمك ..

— وانا يسرني اني لم اعرف احمك فلا احتاج إلى نسيانه .

— بل تعلمه ولا تنساه ، فاني ادعى اورتيس ، وانا الليكونت اميرمون المستعد لخدمتك ، فمتى تشاء ان يكون القاء ؟

— اود ان يكون الآن ، فلا احب إلي من الاسراع في الأعمال .

وكان ضابط يسمع حديثهما فرأى انهما سيتبارزان . وتداخل بينهما .

فبادر اورتيس الى بارداليان وقال له : سامحني يا سيد بارداليان وكنت اود ما تودد من سرعة هذا القاء ، ولكن المارشال لا يسمح بالمبارزة في

قصره ، فانتظر كما أنتظر والفضل الآن بالدخول فقد عهد إلي ان أوصلك إلى الغرفة الخاصة بك .

فانحنى امامه بارداليان وقال : لي الشرف في ذلك .

ثم تبعه وسار به اورتيس إلى غرفة عالية ودخل به اليها وقال له : أتريد ان تتعشى ؟

ـ أشكرك لقد تعشيت حين وصولي إلى باريس

ـ إذاً لم يبق علي غير الدعاء لك بأن تنام نوماً سعيداً

ـ اشكرك ايضاً لهذا الدعاء لأني في اشد الاحتياج إلى النوم ولكن قل لي ، ليس الماريشال موجوداً في القصر .

ـ كلا ولكنه كان ينتظرك وهو يرجو ان تحضر اليوم او غداً وحين جاء تخبره بقدومك .

وعندما حياه اورتيس وانصرف ولما خرج من الغرفة اقفل بابها من الخارج بالمفتاح .

وتمم بارداليان صرير المفتاح ، فارتعش وقال : لماذا اقفل الباب ؟.. العلي سجين ؟

فأسرع إلى الباب ووجد انه مقفل لا يمكن فتحه ، وذهب إلى النافذة وفتحها فرأى انها عالية جداً شاهقاً عن الأرض بحيث لا يمكن الوثوب منها ، وما الهرب من الموت بها إلا الى الموت .

وعلى الجملة فقد وجد انه لا سبيل له إلى الخروج من هذه الغرفة التي باتت يرجوه فيها سجناً ، فرمى قبعته على السرير مغضباً وقال :

ـ لقد خدعت الخداع البليغ ، ولم يكن صبر هنري موفوراً معي في ذلك الفندق وملاطفته لي ، وإحسانه إلي ، غير خدعة كادها لي للتوصل إلى سجني

وقد خافني هناك ، فقتني له الخوف هذه الحيلة ، وتظاهر بنسيان

إساءتي اليه .

نعم لقد فهمت كل شيء ، والآن أدركت بداءة هذا الضابط وعدوانه علي لأن هنري عاقد علي ولم يستطع الانتقام مني في الفندق ، فأراد الانتقام واسطة الباءة .

هذا اول ما خطر لبارداليان حين رأى نفسه سجيناً ، ولكنه خطر له خاطر بعد التمعن ارجعه عن هذا الاعتقاد .

وهو ان هنري اخبره جلياً انه يأمر على الملك ، فقال في نفسه : إنه سر هائل ... اذا افتضل بالملك قطع رأس ذلك الماريشال ، مهما ارتفع ذلك الرأس

فهل كان هنري صادقاً فيما قاله ، او انه اختلق حديث هذه المؤامرة كي يحملني على الوثوق به والركون اليه .

ولكني لا اظنه يتجاسر على مثل هذا الاختلاق الخطر ، اما اذا فإني اسير في الحالين واشد ما تألمي من هذا الأسر اني اكاد اسقط من التعاس ولا استطيع الرقاد حذراً من ان الإخذ غيلة حين رقادي

فجعل عندما يسير في الغرفة مسرعاً كي يداوم التعاس وكل ما وصل إلى السرير تنهد تنهد الحزين .

ولبث على ذلك ساعة ، حتى لم يعد يستطيع فتح عينيه ، فجعل يواصل السير وهو مغمض العينين إلى ان انهك التعاس قواه ولم يطق الصبر عليه ، فذهب إلى السرير وجره حسامه الطويل ، وانطرح فوق السرير بثيابه وقبضة حسامه بيده ، وقد تنهد تنهد الراحة وقال :

ـ لا بد لي من النوم لأن الموت تعاساً والموت بطعنة خنجر واحد ، ثم ان الموت والنوم مثلثان فلأنم وليقض الله ما يريد .

وبعد هنيهة علا صوت غطيطه حتى كاد يطبق اركان الغرفة .

وكان السبب في عدم تمكنه من السهر على فرط اضطراره الى الحذر انه

قطع في ذلك اليوم عشرين مرحلة كي يصل الى قصر موفورانسي في الوقت المعين فأنهكه التعب .

وفي الصباح صحا من رقاده فرأى ان اشعة الشمس قد ملأت الكون فكان اول ما قاله : إني لم امت بعد بحمد الله .

وعندها مجع صرير مفتاح في قفل الباب ، فوثب من سريره وفتح الباب فدخل منه هنري دي موفورانسي .

وكان اصفر الوجه تبدو عليه علائم التعب مما يدل على انه قضى ليلة كانت شراً من ليلة اسيره .

فدنا من باردالبان وقال له : يسرني يا باردالبان ، ان اراك حريصـــاً على المواعيد .

فأجابه باردالبان : وانا يسوءني يا مولاي ، اني اتيت وحرصت على الموعد .

ـ ولماذا ؟ ألأنهم سيجنونك في هذه الغرفة ؟ انا الذي امرتهم ان يفعلوا ما فعلوه واسألك العذرة عن ذلك ، لقد اضطررت اليه من قبيل الحرص لخوفي ان ترى في هذا القصر من لا اره ان تراه ، بل من الخشية اذا رأيته ان ترجع عما اتفقنا عليه .

ـ لا افهم شيئاً مما تقوله يا مولاي

ـ يجب ان لا تفهم لأن المهم عندي وجودك هنا وانا الآن اريد ان اسألك قضاء امرين ايها العزيز .

فقال باردالبان في نفسه : اراه يلقي نفس القصب هنا وهناك ، وفيه ما يدعو الى الاطمئنان .

ومضى هنري في حديثه فقال :

ـ اما الأمر الأول فهو رجائي ان تبقى سجيناً في هذه الغرفة اليوم ايضاً والقسم الثاني لا اريد به الاساءة ، وان مدة امرك تنتهي في الساعة العاشرة

من هذا المساء .

ورأى هنري ان باردالبان قد تأفف فقال له : تعهد لي ان لا تخرج من هذه الغرفة اليوم إلى ان أدعوك ، إني أكتفي بكلامك .

ـ لقد رضيت ولا أتعهد لك لأنه خيراً من ان أسجن كالمجرمين وقد بقي يا سيدي الأمر الثاني ، ما هو ؟

ـ هو انه يوجد لدي كنز لا يقدر بثمن ، واني خائف عليه في هـذا القصر أود نقله الى محل امين ، وسأنقله في الساعة العاشرة من هذه الليلة ، فهل أعتمد عليك ؟

ـ دون ريب فإني الآن في خدمتك ، وقد وجب علي الثناء الأخطار في هذا السبيل فاعتمد علي يا سيدي في هذه المهمة وغيرها ، ولكن هل تعتقد انهم سيهاجمون هذا الكنز في الطريق .

ـ هذا الذي أخشاه ، ولا ثقة لي إلا بك وبضابط باسل من ضباطي يدعى الفيكونت اسيرموند

واصبح الآن ما عزمت عليه ، فإن المركبة تبرح القصر في الساعة العاشرة .

ـ أيكون الكنز فيها ؟

ـ نعم ، فان اسيرموند يقودها ، وانا أكون في مقدمتها فوق جوادي ، وأنت تسير في مؤخرتها ماشياً ، تحمل سيفاً في إحدى يديك وخنجراً في اليد الأخرى ، فتقاتل دون إتلافي ، كل من يجسر على الدنو من المركبة .

وعليه لا يعرف احد ذلك النزل الذي اودع فيه كنزي ، إلا أنا وانت واسيرموند

ـ اصح لي يا سيدي ان اسألك سؤالاً وهو هل هذه المهمة علاقة بما تباشرنا به في الصدق ، وبعبارة أوضح هل يحتوي هذا الكنز على متاديق من الفضة

والذهب أم على جسم من لحم ودم .

فاصفر وجه هنري ونظر إلى باردالبان نظر الفاحص وقال له : ماذا تعني أيها المالك فهمت المقصود .

– كلا يا سيدي لم أفهم شيئاً .

ثم خفض صوته وقال : ولكني حبذا لو يكون هذا الكنز هو التاج وفي مثل هذه الحالة يجب الحرص الشديد .

فأشرقت أسرة هنري بتسوّر البشر ، وقال في نفسه : يحسب انني اختطف الملك .

ثم نظر الى باردالبان وقال له : لا استطيع ان أقول لك إذا كنت مخطئاً او مصيباً في ظنك ، ولكن يجب ان تنهج كما لو كنت مصيباً وتحرس المركبة كأنك تحرس التاج .

فقال باردالبان في نفسه : إنهم اختطفوا الملك لا محالة ، فاذا كان ذلك أكيداً فيا هذه السكينة السائدة في باريس .

ثم قال هنري : إذاً لقد امرت بسجني في هذه الغرفة يا سيدي خوفاً من ان أرى الكنز الذي في القصر .

– هو ذاك .

– إذاً سأبقى في الغرفة فلا أخرج منها وفي الساعة العاشرة تجدني متأهباً لكل ما تريد .

وعندها انصرف هنري وبقي باردالبان وحده ، فجعل يقول في نفسه : اذا كان لا يريد ان أعرف ذلك الأسير في القصر ، فكيف أخبرني عنه ؟ وإذا كنت قد عرفته الآن ، فلماذا يريد ان أسجن نفسي في الغرفة طول النهار ؟

كلا ليس الملك الاسير ولكن هل يوجد أسير ؟

لا ريب انهم يكتمون عني امراً يجب ان أجهله الى المساء ، ولكني أحب

ان أعرفه الآن .

فلما أقر على ذلك بدأ يفحص الغرفة ، فوثق انهم لم يقفلوا بابها ، ورأى ان هذا الباب يشرف على رواق طويل ، ينتهي عند سلم رديفة القصر .

وعاد إلى غرفته ومشى في الرواق من الجهة المقابلة ، وانتهى منه الى باب فتحه ووجده يشرف على سلم آخر تدور درجاته على محور فقال في نفسه : إن هذا السلم أقل خطراً من ذاك .

وعاد الى غرفته وهو مسرور لهذا الاكتشاف .

ومضى القسم الأول من النهار دون ان يحدث حادث . فكان باردالبان يمشي في الغرفة والرواق تارة يفكر وطوراً يغني .

إلى ان حان الظهر ، فجاءه خادم بطعام شهي ، فجلس يأكل بشهية ابن عشرين .

وقد ترك الخادم وانصرف ثم عاد اليه بكيس نقود

فابتسم باردالبان وقال له : ما هذا .

– راتب اول شهر وقد أمرني وكيل مولاي المارشال ان أحضره اليك فقد خشي ان يكون المال قد نفد منك .

– لقد أصاب حضرة الوكيل ، واني له من الشاكرين فقل لي أتعلم كم يحتوي هذا الكيس ؟

– ستمائة ريال .

– ولكن راتبي خمسمائة .

– هو ذاك يا سيدي الضابط ، غير ان الوكيل أضاف إلى الراتب نفقات السفر .

– أرجو ان تشكره بالنيابة عني وان تفتح الكيس .

فامتثل الخادم وفتحه فأمره ان يأخذ خمسة ريالات وقال له : إشرب بها

المبلغ لحسابي .

فشكره الخادم وقال له : سأشرب غداً يا سيدي ، الى ان انفق منها آخر فلس .

– لا تبق يا بني إلى الغد ما تقدر أن تفعله اليوم ، وبعد أتمم ما يجيء به الغد .

– لقد أصاب سيدي في حكمته ، ولكني مضطر ان أبقى في خدمته كل هذا اليوم .

فقال في نفسه : لا اجد خيراً من شراء هذا الرجل وإغوائه بالمال فإني غني الآن بفضل البارشال .

ثم التفت الى الخادم ، وقال له . خذ أيضاً خمسة ريالات من هذا الكيس .

– لقد اخذت .

– إذهب بها في الحال الى الحارة ، البقرة الحلوب ، أتعرفها ؟

– نعم فهي قرب البوفر .

– هو ذاك فاذهب في الحال وادفع لصاحب الحارة اثني عشر فرنكاً نسيت ان ادفعها امس وخذ أنت الباقي .

إذهب الآن وامش الهوينا حين عودتك كي لا استيقظ لاني تأرقت في الليلة الماضية .

فلم ينتقل الخادم من مكانه .

فقال له باردالیان : ما بالك لا تذهب ؟

– أذهب غداً يا سيدي الضابط .

– ولكني تركت جوادي هناك وسأحتاج اليه الليلة .

– يوجد في اصطبل البارشال كثير من الجياد ، يأخذ منها سيدي ما يشاء .

فنظر باردالیان الى ما حواليه ، باحثاً عن عصا يكسرها على ظهر ذاك الوقح

ولكن خطر له خاطر سريع أعاد اليه السكينة في الحال .

فجعل يضحك ضحكاً شديداً ، وصب في كأسه من زجاجة الخمر فشرب ثم قال للخادم :

– ماذا تدعى يا بني

– ديديه خادم سيدي المطيع .

– إذاً خذ يا ديديه واشرب هذه الكأس ما زال قد قضي عليك ان لا تفارقني طول النهار .

فهز ديديه رأسه وقال له بلهجة حزينة : لقد منعني سيدي الوكيل عن الشراب ، وتوعدني بقطع راتبي اذا قبلت كأساً منك ، وربما عاقبني عقاباً أشد .

– يسرني ان أراك يا بني ممتثلا مطيعاً لأوامر رؤسائك فأنت ستذهب مباشرة الى الفردوس دون ان تمر بمطهر .

وعندما نهض باردالیان وجعل يمشي في الغرفة ، بينما كان الخادم ينظف المائدة .

ثم اسرع إلى الباب مغتنماً فرصة انشغال الخادم بالمائدة ، وأحكم إقفاله وعاد الى ديديه ووضع يده فوق كتفه وقال :

– اذاً . . لقد حمت على ان تبقى كل هذا اليوم معي ، فتمنعني عن الرقاد .

– كلا ، يا سيدي ، بسل اني أمرت ان أقيم في الرواق ، قرب باب الغرفة .

– واذا خطر لي ، ان اخرج من هذه الغرفة ... أتتبعني وتلازمني ملازمة ظلي ؟

ـ كلا يا سيدي ، ولكني أذهب في الحال واخبر الوكيل .

ـ ديديه . أيها الصديق .. ماذا تقول لو خطر لي ان أستعفيك

ـ لا أقول شيئاً يا سيدي الضابط سوى إني أصرخ واستغيث .

ـ كلا لا تصرخ فإني لا أدع لك وقتاً للصراخ .

ثم انقض عليه انقضاض العقاب على الفريسة فالقاه على الأرض ، ووضع في فمه منديلاً وجرد خنجره فوضعه على عنقه وهو يقول : احذر ان تقوه بحرف أو تعدو من المالكين .

فلم يفه ذلك الخادم المنكود بكلمة ، وجعل ينظر اليه نظرات تنشف عن الرعب والتوسل والامتثال

فقال له بارداليان حسناً ، اقد رأيت منك ما يدل على الامتثال ، فاعلم الآن إني أريد أن تلبس ملابسي وأن البس ملابسك فاني أحب أن أقابل سيدك الوكيل بملابس الخدم .

قم واخلع ثيابك واعلم ان خنجري يكون اسبق إلى صدرك من فكك إلى الاستغاثة ، فإذا أحببت الحياة فامتثل .

فقام الخادم وهو يرتجف من الرعب ، وجعل يخلع ثيابه ممتثلاً لأمر بارداليان .

وفعل بارداليان فعله فلم تمض دقيقة حتى لبس كل منهما ملابس الآخر .

وعند ذلك قال له بارداليان وهو يلثم صوته .. والآن تفضل يا سيدي الضابط واضطجع فوق هذا السرير .

فصعد الخادم إلى السرير واضطجع فأحكم بارداليان ربط فمه كي لا يستطيع الصياح وقال له . إذا سمعت الباب يفتح فتمدد بالقطيط كي يعلم الداخل انك نائم فينصرف ، وإذا خالفت امري قطعت اذنيك .

ثم تركه على هذه الحالة وخرج من الغرفة إلى الرواق فذهب إلى السلم ذي الدرجات المستديرة .

ولكنه قبل أن يصل اليه رأى رجلاً فتح الباب المؤدي إلى السلم ورأى إرداليان بملابس الخدم فلم يعرفه اعتمد نفسه الدور إلى الرواق وقال له وهو يحسبه الخادم .

ماذا يفعل بارداليان الآن ؟

فقال بارداليان صوت الخادم وقال له : انه نائم يا سيدي .

ـ حسناً ، فلا تبرح موقفك هذا ، وعلى صعيد من رقـــاده ، اسرع إلي واخبرني .

ثم تركه وانصرف إلى الجهة الثانية من الرواق فنزل من السلم الكبير .

فاشهد بارداليان وقال : لقد أمنت الخطر والحمد لله وسأبقى حراً ساعتين لا يعلمون بخروجي من هذا السجن .

وسار وهو لا يرى شيئاً لاشتداد الظلام حتى انتهى من الدهليز إلى باب الدور الأول من القصر .

فحاول أن يتجاوزه ويستمر في نزوله ولكنه سمع أصواتاً بشرية من ورائه .

* * *

فوضع أذنه على قفل الباب وجعل يصغي إلى الأصوات أتم الاصغاء فسمع اسمه يلفظ عدة مرار .

في تلك الساعة التي كان بارداليان الأكبر يربط فم الخادم ديديه كانت مركبة قد وقفت عند باب قصر مسيو أي قصر هنري دي مونمورانسي فخرج رجل منها ودخل سراً إلى القصر .

ولا شك انه كان من كبار القوم ، انه حين وصوله ادخل حالاً إلى غرفة المارشال .

فلما رآه هنري خف لاستقباله وقال له بلهجة المضطرب : كيف أتيت ، وماذا حدث .

فقال له الرجل : لم أجد بداً من القدوم ، فان زيارتك أقل خطر من زيارة الدوق دى كيز .

وقد اغتنمت فرصة الخروج من الباستيل دون أن انبه إلى الأنظار ، فان الأمر خطير ، يجب أن يعلمه الدوق دى كيز اليوم ، وعليه تتعلق حياتنا جميعاً .

فقال له هنري : أظنك تبالغ يا كيتالان .

ولكن هنري نفسه لم يستطع اخفاء اضطرابه لما رآه من رعب حاكم الباستيل فقال له : قل ، ماذا جرى ؟

فسأله حاكم الباستيل قائلاً : ألعلنا وحدنا ؟ أأنت واثق من انه لا يسمعنا أحد .

— كل الثقة ، ولكن تعال معي ان غرفة في داخل غرفتي من قبيل المبالغة في الحذر فاني اراك ستحدثني بأمر خطير .

فدخل هنري وإياه إلى تلك الغرفة وكان فيها باب آخر فقال له : اننا نكون آمنين في هذه الغرفة لأنها منفصلة عن سكان القصر ، وأما هذا الباب فانه يشرف على سلم خفي لا يمر به إلا أنا ووكيلي وهو يعرف كل اسراري ، فاوضح لي الآن السبب في مخاوفك .

فجلس حاكم الباستيل على كرسي وقال : حدث انه وجد في باريس رجل وقف على سر مؤامرتنا وباتت رؤوسنا في قبضة يده .

فارتعش هنري وقال : ماذا تقول ؟

— أقول الحقيقة ، فان هذا الرجل قد حضر اجتماعنا الأخير في فندق دفينيو ووقف على سرنا إذ سمع كل ما قلناه بالتفصيل .

— ماذا يدعى هذا الرجل .

— باردالیان .

— باردالیان ؟ أهو رجل يبلغ الخمسين من العمر طويل القامة ؟

— كلا ، بل أن باردالیان الذي اكفاك عنه في مقتبل الشباب لا يتجاوز العشرين ، وهو طويل القامة قوي البنية ، قليل الاكتراث للموت ، ويده مستعدة دائماً لتجريد الحسام .

— إذاً فهو ابن باردالیان وقد كفاني عنه .

فذهل الحاكم وقال : ابن من ؟

— ابن رجل أعرفه ... والآن ، أتم حديثك ، لقد قلت ان هذا الرجل عرف سرنا فهل أنت واثق من أن هذا الرجل وحده قد عرف سر المؤامرة .

— هذا الذي أظنه .

— إذا كان هذا السر لم يتجاوزه إلى سواه فلا خوف علينا ، إذ لدي طريقة للاستيلاء على هذا الرجل وحمله على السكوت .. ولكن كيف عرفت ؟

— إنه كان في سجن الباستيل فأقام فيه بضعة أيام ، وقد أمرت بالتضييق عليه بصفتي حاكماً الباستيل .

— ولكني أرى الأمر بسيطاً جداً ..

— كيف ذلك ؟

— بأن تضعه في أحد سجون الباستيل العميقة ، وأن لا تدعه يكلم أحداً ..

— ولكنه خرج من السجن وهو الآن مطلق السراح ، بل أذ الذي أطلقت سراحه وفتحت له أبواب السجن بيدي .

وجعل هنري ينظر إلى حاكم السجن نظرات التذهل وهو يحسب أن عقله قد اختلط .

وقال له الحاكم : لا تعجب مما تسمع ، فإن حياتي كانت في قبضة هذا الرجل فاضطررت إلى إطلاق سراحه .

ـ لكن روعك أيها الصديق وأرو لي ما اتفق بالتفصيل فاذا كان هذا الرجل الذي أظنه فلا خطر علينا منه ولا خوف .

ـ هذا ما أتشاء فاني لم أنم منذ خروجه من السجن إلى الآن .

ثم قص عليه جميع ما حدث بينه وبين بردوليان بطل هذه الرواية في الباستيل بما عرفه القراء في حينه .

ولما فرغ من حديثه قال له : ماذا تقول .

ـ يجب أن يكون هذا الفتى منا ، لأنه يفيدنا خير فائدة .

ـ إذاً أنت تعرفه .

ـ كلا . ولكني أعرف رجلاً يعرفه وهذا كاف ، فاذهب أيها الصديق واطمئن ، فأنا أتولى اخبار الدوق دي كيز عن هذا الخطر ، ولكن لا تخف ، فان الليلة أو غداً ، يكون بردوليان الأصغر ، في قبضة يدي .

ـ إن اطمئنانك يريحني ، وإذا قبضت على هذا الفتى ، رده إلي ، لأني إذا أمنت المشنقة ، ولا أعدم العزم من منصبي باطلاق سراح هذا الرجل .

ـ هو ذاك ، وغداً سأرسله اليك مقيد اليدين والرجلين ، إلا إذا كان لنا فائدة من حريته .

فانصرف حاكم السجن مطمئناً وعاد بمركبته إلى الباستيل .

وفي ذلك الحين عاد بردوليان الأكبر إلى غرفته ، وأعاد ثياب دجديه اليه ولبس هو ثيابه .

ثم أعطى الخادم مبلغاً وقال له : اني اعطيتك هذا المال على ان لا تقول كلمة مما جرى وإذا بحت بحرف أحدث هذا الخنجر في صدرك ذلك

الجبار بين الأمرين .

وأجابه الخادم لفوره : اني اخترت المال وذلك على عهد السكوت .

ـ لقد أحسنت والآن فاذهب واخبر الوكيل إني صحوت من الرقاد فقد رآني في الرواق وهو يحسبني أنت وأمرني بأن أحضر اليه حين تستفيق .. إذهب أيها الأبله أم تفهم .

ـ نعم .. لقد فهمت ، لأن الأمير جيل حسبني أنت وحسبك أنا وها أنا مسرع اليه .

وجلس بردوليان على كرسيه وملأ كأساً من الشراب وجعل يشرب وهو ينتظر ما يكون من الحوادث ، لأنه سمع ما دار من الحديث بين هنري وحاكم الباستيل ، حين كان يصغي اليه في السلم .

وقد غير هذا الاكتشاف خطته فلم يعد يبالي بمرفان ذلك السر الذي كتمه عنه المارشال ، ولم يكترث الأسير السجين في القصر ، بل كانت كل همه قاصراً على انقاذ ولده من الخطر الذي يتهدده ، وعلى الافتكار بطريقة تمكنه من إبلاغه ما سمع

وكان أول ما خطر في باله أن يخرج من القصر ويذهب توأ إلى فندق دفينيو ، وإن اعترض سبيله أحد قتله .

وكان يحب ابنه حباً شديداً ، فتجسم فيه هذا الخاطر لاستفحال الخطر ، حتى عزم عليه العزم الأكيد ..

ووضع يده على قبضة حسامه ووقف وقد اتقدت عيناه يحاول الخروج من الغرفة .

ولكنه قبل أن يسير خطوة دخل هنري إلى الغرفة وقال له هل نمت مستريحاً يا بردوليان ، وهل أنت مستعد لهذه الليلة .

وأجابه : أرى يا سيدي أن خدمك عاملون في خدمتك يخبرونك بكل ما يجري .

– هو ذاك فاني كنت قادمـــاً لأراك منذ هنيهة فأخبروني إنك نائم ، وكرهت أن أزعجك ، وأمرتهم أن يخبروني حين تصحو لأني مضطر إلى مباحثتك .

– إن هذا الاضطرار يشرفني يا سيدي ومهما يكن من الأمر فقد استرحت من عناء السفر ، واني أستطيع السهر ثلاث ليال اذا دعت الحال .

– لا حاجة إلى تجشم هذه المشاق .. فان المهمة تنقضي عند انتصاف الليل .

– وفي خلالها أكون مطلق الحرية يا سيدي ؟

– بلا ريب ، وانك تستطيع الذهاب إلى حيث تشاء ، وتكون هـــذه الغرفة خاصة بك في جميع مدة هذه المهمات التي ستقضيها .

ولا بد لي أن أقول لك انه كانا كثر عددة فيها سهل علينا قضاؤهـــا ، واذكر أنك اخبرتني ان لك ابناً شاباً .. أليس كذلك .

فانتفض بارداليان وقال : نعم .

– الحبيب كفؤاً للقتال

– انه إذا لم يجد من يقاتله فانه في الحلم ، فلا لذة له إلا بالقتال

– إذاً جئني به غداً دون تأخير .. أتعلم أين يقيم ؟

– في ضواحي جبل سانت جنفياف .

– ما دعاه إلى الإقامة بجوار الأديرة ، انه طامع بمبشة الرهبان .

– كلا ، ولكنه يحب الخلاء .

– إذاً أستطيع الاعتماد عليه .

– فوق ما تعتمد علي يا سيدي

وعندها خرج للارشال فقال بارداليان في نفسه

لقد هان الأمر ، فانه ما زال ينتظر أن آجيء غداً بولدي ، لا بفعل شيئاً قبل أن يراه

وفي هذه الليلة يطلق سراحي فأذهب إلى الفندق فأراه ، وسوى مـــا يكون ، أما الآن ، فلا بد من الصبر والحكمة ، ولا معين على الصبر مثل النوم .

وعندها انطرح فوق سريره ونام آمناً مطمئناً إلى ساعة العشاء .

وفي الساعة العاشرة كان هنري قد ذهب لكل أمر فأرسل وكيله جيل إلى شارع هاش ، ليقف موقف المراقب .

لأن هذا الوكيل وحده كان يعرف المنزل الذي أعد لسجن هنة دون سواه من حاشية للارشال .

وقـــد تقرر أن يسوق الفيكونت اسبرمونت ، مركبة الأسيرين إلى مدخل شارع هاش .

وأن يسير بارداليان في اثر المركبة لغاية أول الشارع ، بحيث يبقى السر مستحصراً بين هنري ووكيله ، ولا يعرف أحداً ماذا يوجد في المركبة .

وبعد ذلك جاء الفيكونت اسبرمونت إلى بارداليان وسأله : هـل انت مذاهب

– كل التأهب .

– إذن هلم بنا .

ونزل بارداليان والفيكونت سلم القصر فأخبره الفيكونت وهما يتزلان بأوامر للارشال .

فقال له بارداليان : ألم تعرف من يوجد في المركبة أيها الخصم العزيز .

– كلا ، وأنت هل عرفت .

فأجابه سلباً : وخرج الاثنان من باب القصر الكبير ، وكانت المركبة واقفة والاميرفان فيها وهنري ممتط جواده ومشهر حسامه .

فصعد الفيكونت إلى مكان السائق وعاد هنري إلى توصية بارداليان وقال له ان المركبة ستسير الهوينا فكن بعيداً عنها عشر خطوات ، وإذا رأيت

أحداً يدنو منها فاقتله دون تردد ، أفهمت ؟

فلم يجبه باردالیان ، ولكنه جرد حسامه من غمده وكان ابلغ جواب .

وكان مسلحاً أيضاً بخنجر وغدارة ، فأصدر هنري أمره بالرحيل ، وسارت المركبة يتقدمها هنري وفي مؤخرتها باردالیان .

ومـــا زالت المركبة سائرة حتى وصلت إلى منعطف ، وسمع فجأة دوي غدارة اطلقت على سائق المركبة .

فصاح هنري قائلاً : إلى الأمام !

أما الفيكونت فلم يعبأ برصاص الغدارة غير قبعته ، فدفع المركبة مسرعاً وسمع عند ذلك صوت يقول : قفوا أيها اللصوص الذين يسرقون النساء . قفوا أيها الجبناء الأسافل .

أمـــا باردالیان فانه رأى أثر ذلك العنق الناري ، وذلك الوعيد شبح رجل يركض في أثر المركبة .

فقال في نفسه : لقد دنت ساعة العمل ، فان هـذا الراكض لا يعلم انه يوجد من يركض أكثر من ركضه وانه في أثره .

ثم هز حسامه في يده ، وجعل يعدو في أثر هـذا الرجل الذي كان يعدو طالباً هنري .

وما زال يركض حتى أدركه بعد دقيقة وطعنه بحسامه طعنة هائلة .

غير أن هذا الرجل كان سمع صوت الركض وراءه ، فالتفت حين وصول باردالیان اليه ، واجتنب تلك الطعنة فحلا منها .

وعندما اشتبك السيفان وكان كلا المتقاتلين ساكتاً ، وقد علم انه يقارع خصماً شديداً لا يراد لاشتداد الظلام ، فـلا يعلم الخصم موقف خصمه ، إلا مهتدياً اليه بصليل السيفين .

غير ان خطة باردالیان الأكبر كانت خطة دفاع واحتياط ، إذ كان الغرض منها مشاغلة خصمه حتى يتيسر للمركبة الابتعاد .

وأما خصمه فقد كانت خطته معاكسة لتلك ، إذ كان يريد الاسراع بهذه المقاطعة كي يدرك المركبة .

وحل على باردالیان حزة منكرة ، وطعنه طعنة نجلاء ، وهو يقول غضبا فإنها القاضية .

غير ان باردالیان الأكبر خلا منها بمهارة ، وقال : اقسم بسيلاطس ان الصوت صوته والطعن طعنه .

وعندها خفض كل من الخصمين سلاحه ، وقـــال أحدهما .. أبي ؟ ردا باردالیان الأكبر وقال ولدي ؟.

فاغمد باردالیان الأصغر حسامه ، وقد بدت عليه علائم اليأس ، فوقف هنيهة مصغياً دون أن يتكلم الا .

ثم قال بلهجة القانطين ، لقد نجا بها وفقدت الأثر .

أما باردالیان الأكبر فقد استاء مما رآه من تعرض ابنه لما لا يعنيه ، وعدم اكتراثه لما أوصاه به قبل السفر وقال له بلهجة المؤنب :

أسافر هذا السفر الطويل يا بني ، ثم أعود فاجدك ويكون أول مـا أراه منك إنك مخالف لوصاياي ؟

ألم تقسم لي إنك تحافظ على هذه الوصايا وتحترمها احترام العهود ، فكيف تولاك هـذا الضعف ، وكيف خالفت وصايا أبيك ، وأي شأن لك في الدفاع عن قوم يخطفونهم وهم انفسهم لا يستغيثون .

إني أوصيتك ان تحـذر الرجال والنساء ، وان تحـذر نفسك فاي حذر هـذا وأنت تندفع اندفاع الفارس الثائر ، وبئست شجاعة ومروءة لا يكون لك منها غير الشقاء .

فتعال معي إلى خارة تفتح كل الليل لمن يعرف ان يطرق بابهـا .. ما بالك واقفاً . ألا تريد ان تتبعني ؟

فأجابه باردالیان بصوت مضطرب ارتعش له ذلك الأب حنواً ، ان

تداخلك يا أبي في شأني قد زج بي إلى هاوية اليأس القاتل ، ولكن مهما بلغ بأسي من حبوطي في مهمتي فانه أشد بوجود كل منا في شأن يناقض شأن الآخر .

– وماذا يضيرك يا بني ان تنضم الينا فيكون لك مائة الف فرنك مضمونة ، وربما نلت منصباً رفيعاً في الجيش ..

– كفى كفى يا أبي ، ألم تستدل من لهجتي ان اليأس يقطع قلبي . إنك تسير في نهج ، وأنا أسير في نهج آخر ، فالوداع يا أبي فاني لا أطيق ان أراك بين أعدائي

– اتتركني ... ولكن لماذا ؟

– أنت تكرهني على ذلك . تصور يا أبي ان سيفي قد قارع سيفك الليلة ولو أصاب هذا السيف الذي اعطيتني أياه جسمك وأسال نقطة من دمك لذهبت فانطأ والقيت نفسي في النهر ...

إنك اعترضت سبيلي يا أبي ، عملاً بأوامر رؤسائك فتكبتني نكبة لا تخطر لك في بال دون ان تريد بي الشر ..

الوداع الوداع فلا سبيل إلى اللقاء .

ثم تركه وتراجع فوقف باردالبان الأكبر ، وقد حمل رأسه بين يديه وقال : رباه ماذا أرى . ايفارقني ولدي وتكون عدوين ..

وأية فائدة بقيت لي من الحياة بعد هذا الفراق ..

وأي مطمع لي في هذا الوجود ، واذا كنت لا أرى ولدي يجاني واذا كان ولدي من اعدائي .

وقد سالت دمعتان من عينيه ، وكبر عليه ذلك اليأس حتى أراد الانتحار فوضع خنجره في يديه وحاول ان يخنق نفسه وهو يقول : لقد قضي الأمر فلتعش يا بني سعيداً بعدي .

ولكنه قبل ان يضغط على عنقه شعر بيد قد لمست كتفه ، فالتفت فرأى

ولده واسمه يقول له بصوت خافت :

كلا ، إني لا استطيع ان أفارقك على هذا الشكل ، فان الحزن يذيبني حين افكر إنك من أعدائي .. تعال يا أبي فاني ذاهب معك إلى حيث تشاء .

فكاد والده يطير سروراً وقال له : إذاً لا بد يا ابني من معانقتك .

فتعانق الاثنان ثم قال له أبوه . دعني أراك فان الأب لا يحتاج إلى نور إبرى ابنه ..

ماذا أرى .. إني أراك قد قويت وارتفعت قامتك وتضخمت اعضاؤك واشتد ساعدك ...

تعال يا ابني فاني أفاخر بك أهل الأرض .

فقال له باردالبان : بل نذهب إلى حيث أقم يا أبي .

– وأين تقيم أفي فندق دفيتير .

– هو ذاك .

– ولكنك لا تعلم ان هذا الفندق خير أمنه الجميع الآن .

– لماذا ؟

– لأن حاكم سجن الباستيل يعلم إنك مقيم فيه ، ويود أن يحملك من أضيافه .. تعال معي يا بني .

فسار باردالبان مع أبيه دون مقاومة .

وبعد زمن يسير دخلا إلى حارة في شارع فرنس بورجوا .

وكانت هذه الحارة تقفل أبوابها بعد الغروب ، فلا تفتح في الليل إلا لزبائن أخصاء فيدخلون اليها سراً .

وهناك طرق باردالبان الأكبر باباً بشكل خاص ، ففتح له ودخل مع ولده فاختلى به في غرفة وقال له

قص علي الآن يا بني جميع ما اتفق لك بعد سفري من كل ما فعلته

– أأنت واثق انهما هما الاثنان كانتا في الزكية ؟

– كل الثقة ، فانهما اختطفتا منذ أسبوعين ، وكنت مشكوكاً بأن هنري هو المختطف إلى ان وثقت .. ولكن إلى أين ذهب بهما ، ولماذا غير السجن .

– لقد عرفت الآن كل شيء ، وعلمت السبب في مسا الخادم هنري من الاحتياط بسجني في تلك الغرفة ، فانه كان يخافني ويخشى أن أعرف الأميرتين فأحول دون انفاذ مساعيه

ولقد أصاب في خوفه فاني لو عرفت من أمر الأميرتين ما تعلم ، لكنت فعلت ما فعلته أنت .

– ولكن كيف اتفق يا أبي انك عدت إلى خدمة المارشال ، ومتى كان عهد دخولك فيها ؟

– منذ أمس وكنت سجيناً في قصره غير ان المارشال وعدني أن أكون مطلق السراح منذ الليلة بعد انتصافها ، وكنت عازماً على أن أراك في تلك الساعة .

ثم حكى لابنه جميع مسا اتفق له مع هنري في ذلك الفندق وما اتفقا عليه .

فحكى له ابنه جميع ما اتفق له من الحوادث منذ سفره إلى اليوم .

ولما فرغ الاثنان من حديثهما كان الفجر قد انبثق .

فاتفق الاثنان على أن يعود الأب إلى قصر هنري فيواصل خدمته فيما يتعلق بخطته السياسية .

وقد قال الأب لابنه ان في ذلك خير وسيلة لمعرفة المكان الذي سجنت فيه المرأتان .

وفوق ذلك فان الفيكونت الذي قاد المركبة لا بد أن يكون قد عرف المكان ، وسأكرهه على الاباحة لي فاطمئن يا بني فلا بد لنا من معرفة

الحقيقة في أقرب حين .

– أما أنا يا أبي فسأذهب إلى المارشال فرنسوا دي مونورانسي ، واخبره بما جرى ، ثم أعود إلى فندق دفينير فأنتظرك فيه .

– ويح لك أيها التعيس ، كيف تعود إلى هذا الفندق ، الملك تحب العودة إلى الباستيل .

– لقد أصبت يا أبي فلم يخطر ذلك في بالي

– إنك ستبقى هنا في هذه الحارة ، فإني حسن العلائق مع صاحبتها وستكون آمناً فيها .

وعلى هذا افترق الأب وابنه ، فذهب الأب إلى قصر هنري مونورانسي وشيعه ابنه إلى الباب فقال له أرجوك يا أبي أن تمر بفندق دفينير وتحضر لي صديقاً تركته فيه .

– ما اسم هذا الصديق يا بني ؟

– بيبو ، وهو كلي الأمين .

– ٣ –

في اللوفر

وبقي بارد اليان الأصغر بطل هذه الرواية في الحارة قتام فيها ساعتين .

وفي الساعة التاسعة ذهب توأ إلى قصر فرنسوا مونورانسي .

أما فرنسوا فقد أقام ذلك اليوم وتلك الليلة في قصره وهو لا يهدأ له بال

وكان تارة يقول : إن باردالیان قد أصاب في قوله ان الحيلة في هذه الهبة أنفذ من القوة ، وتارة يندم لامتناعه عن الذهاب إلى أخيه وتخليصه إمرأته وابنته بالقوة .

ثم خطر له خاطر نفض جيشه ، وهو انه كان متزوجـــاً بديانا دي فرنسوا .

وان هذا الزواج وان يكن إجبارياً ، فلا سبيل إلى نقضه ، لأن البابا إذا كان قد وافق على طلاقه من جنة ، فهو لا يوافق على طلاقه من زوجة تنتسب إلى الأسرة المالكة .

فكيف يستطيع العيش بعيداً عن جنة ومعاقبتها بإطلاق والفراق الدائم وهي بريئة طاهرة لا ذنب لها .

فكان إذا تمثلت له هذه المصاعب رأى انه عاش أتعس عيش سبعة عشر عاماً ، وهي زهرة حياته وربيع عمره .

ثم إذا رأى انه لا سبيل بعد كل هـــذا إلى الهناء والتعويض على تلك المظلومة بشيء من أسباب السعادة ، عض بنانه من اليـــأس وهاج ثائر انتقامه ، وود لو طار إلى أخيه ، فانقض عليه انقضاض العقبان ومزقه شر ممزق .

فلما وصل اليه باردالیان وهو على هذه الحالة من الاضطراب لم يسأله شيئاً ولكن عينيه كانتا تتكلمان .

أما باردالیان فإنه بدأ الحديث فقال له : اني لم أكن مخطئاً يا مولاي فقد كانتا في قصر أخيك .

فأجابه فرنسوا بلهجة القانطين : أتقول انها كانتا فيه .

– نعم وقد اخرجتا منه ولا شك يا سيدي ، إن يد الأقـدار تعبث بهذه الهبة ، فاني كدت أظفر بخلاصهما ولكن حدث ما احبط هذا الفوز وذهبت

الحيلة والقتال سدى .

– أأنت قاتلت ؟

– نعم ولكني لم أظفر ، فقد يتفق في بعض الهام ان المرأة والحيلة والقوة والحكمة وكل ما يعين على الفوز يحيط ويخفق .

– أنت تقاتل من أجلي فكيف أعرب لك عن امتناني بعد هذا الجميل سوى اني أحسب صداقتك من دلائل التوفيق .

أما باردالیان فلم يسر بهذا الثناء فقد شغل عنه بما رآه على وجه محدثه من دلائل اليأس والنبل ، حتى انه ود في تلك الساعة لو تمكن من اراقة دمه في سبيل خدمته الجردة .

وأما المارشال فإنه غض قبضتيه شأن المتوعد وقال : إذاً هو أخي الذي يريد افتراسها وهو من أجرني ومن دمي . اخبرني أيها الصديق بكل ما حدث ، أرأيت هذا النمر المفترس ورآك

فأجابه باردالیان قائلاً :

– سكن روعك يا سيدي ، فإن الانتقام محمود يسفر عن قوة إذا كنت انت الذي تقوده ، وأما إذا تركته يتولاك واندفعت مع تيار الحقد دون تبصر كان شراً غير مأمون الغبة .

اني لم أر اخاك ولا هو رآني ولكني دخلت إلى قصره مثل اللصوص ، وخرقت كل شيء .

وهنا أخبره بكل ما أخبر به أباه دون ان يذكر امر اتفاقه بأبيه وختم كلامه بقوله :

– لقد بقي علينا أن نعرف اين ذهبت المركبة بالأسيرتين ، ولكني لا بد لي ان أعرف مكانهما في أقرب حين .

– ولكني لا اطيق الصبر ويجب ان أعرف في الحال .

– على ماذا عولت يا مولاي ؟

– أعيد أيها الشقاليبه كل ما رويته لي حتى أمام أخي ولو لقيت خطراً من ذلك

– دون شك ، وأما الأخطار فقد لقيتها حتى صرت أتوق اليها .

– أتذهب معي إلى الملك ؟

فارتعش باردالیان وقال له : اني أتبع لك من ظلك .

– إذا نذهب الآن إلى اللوفر ولينصفنا الملك فـإن ذلك خير طريقة لاجتناب الفضيحة في أمرنا ، وإذا لم ينصفني الملك من هذا النمر ..

– ماذا تصنع يا سيدي ؟

– أتولى إنصاف نفسي بيدي ولا اكترث للفضائح ، فانتظراني هنيهة إلى أن أعود .

ثم دخل المارشال إلى غرفة ملابسه وبقي باردالیان وحده فقـال في نفسه . إنه ذاهب بي إلى الملك ، أي إلى الملكة كاترين ، تلك الملكة التي امرت بسجني في الباستيل ، وهي ستعيدني اليه فأي خطر أشد من هذا ؟

لقد قدر علي ، ولا شك ان اعيش في ظلمات الباستيل .. ولكني وعدت المارشال بالذهاب معه إلى اللوفر ، ولا سبيل إلى الرجوع فلنمض الله ما كان مفعولاً .

وبعد ذلك بربع ساعة رجع المـارشال وهو يلبس ملابسه الرسمية ، وكانت مؤلفة في ذلك العهد ، لمن كان في رتبة المارشال من سلسلة طويلة ذهبية تلبس في العنق وقبعة سوداء عليها ريش أبيض وجزابات من الحرير الأسود ووشاح قصير من الحرير رمادي اللون ومبطن بالحمل وحذاء طويل يبلغ إلى الركب .

وقد تقلد حساماً قبضته من الحديد الأسود بشكل صليب بدلاً من حسامه المرصعة قبضته بالجواهر .

فما دخل إلى الغرفة التي كان فيها باردالیان أشار اليه أن يتبعه .

فامتثل وخرج الاثنان فركبا مركبة يسوقها سائقان بالملابس الرسمية وفي مؤخرها أربعة من خدم القصر بالملابس الرسمية .

وقد جلس فرنسوا وباردالیان في صدر المركبة ، وجلس أمامهما أربعة غلمان من حاشية القصر بالملابس الحريرية البيضاء وعلى صدورهم شارة السرة ميتورانسي

وفوق ذلك ، فقد كان يحرس تلك المركبة العظيمة اثنا عشر فارساً يمتطون الجياد المطهمة .

وسار هذا الموكب الحافل الفخيم يستلفت انظار المارة وقد علموا جميعهم أن المركبة ذاهبة إلى اللوفر .

أما فرنسوا فكان ساهي الطرف مشتت البال .

وأما باردالیان فقد دهش جلال هذا الموكب ، وكان يضطرب حين يفتكر انه سيقف أمام جلالة ملك فرنسا الى ان وصلوا الى اللوفر ، وهو في ذلك العهد يشبه المدينة لفخامته واتساعه

وكان الملك قد أذن بالمقابلات .

وقد صحا وهو منشرح الصدر طلق المحيا .

فكان يدخل بالزائرين إلى غرفة جديدة للسلاح ، أنشأها حديثاً ، ولها نافذة تطل على نهر السين وهو يجري تحتها مطلق السراح ، لا يعيقه حصر او رصيف .

وكانت هذه النافذة كبيرة وهي مفتوحة فكانت انوار الشمس تنفذ منها إلى الغرفة فتملأها شعاعاً .

وقد كان الملك فيها يصحب نحو خمسة عشر نبيلاً وهو يتفحص بتدقيقـة حديثة الطراز .

وفيما هو على ذلك والنبلاء وقوف من حوله دخل أحد الحجاب ووقف على قيد خطوتين من الملك .

فقال له الملك : ماذا حدث ؟

فأجابه الحاجب : مولاي ، ان المارشال دي موفورانسي يلتمس شرف المثول لدى جلالتكم .

فقال الملك بلهجة المتذمل كأنه لا يصدق ما سمع ..

المارشال دي موفورانسي ... ألعله سمع بما تعده من اسباب السلم العام ، فأراد الجنوح إلى السكينة .

حسناً ليدخل ...

وجلس الملك عند ذلك في كرسيه الكبير ، واصطف النبـــلاء من حوله صفين .

وعندها فتح الباب الكبير ودخل غلمان المارشال الأربعـة اثنين اثنين ، فوقف كل فريق منهم في جهة من جهتي الباب .

ثم دخل المارشال يليه باردالیان .

فتقدم فرنسوا إلى ان كان بينه وبين كرسي الملك ثلاث خطوات وانحنى باحترام عظيم .

ثم وقف ينتظر ان يبدأ الملك بمحادثته .

جعل الملك ينظر الى هذا الرجـــل فتعجبه مظاهر نبل ، وكذلك جميع الحضور ، ما خلا الدوق دي كيز فانه كان ينظر اليه نظرات تشف عن الاحتقار .

وبعد سكوت قصير قال له الملك .

أهلاً بالمارشال ، فقد هجرت بلاطنـا هجراً طويلاً ، حتى حسبنـا انك هجرت البـــلاد ، بل كنا نسائل انفسنا بعض الأحيان فلا نعلم أأنت الذي قتلت في معركة سانت دانيس أم ابوك أمير الجيوش . أما الآن فقد زال الابهام ويسرنا انك لا تزال في قيد الحياة .

والهم ، في كل ذلك ، أنـك أتيت الينـا أخيراً ، فأكرر عبـارة الترحيب بك

فانحنى فرنسوا وقـال : إني أتيت ، يا مولاي ، لألتمس مقابلـة جلالتكم

وانت الآن بحضرتنا فتكلم

ـ مولاي ، إني التمس مقابلة خاصة .

ـ أتعني انك تريد الاختلاء بنا ؟

ـ نعم يا مولاي إذا أذنتم .

ـ ليكن ما تريد أيها المارشال .

فلم يكد الملك يقول ما قال حتى انحنى جميع الحضور وفيهم الدوق دانجو والدوق دي كيز وخرجوا من الغرفة .

فأشار الملك الى باردالیان وقال مخاطباً فرنسوا : لماذا يبقى هذا الفتى ولم ينصرف مع المنصرفين ؟

وقد كان موقف باردالیـان حرجاً ، لأنه منذ دخل رأى الدوق دانجو وكوليس ومورفر ، قابلـهم الاثنين الأخيرين ابتسام احتقار وهاجت الأحقاد في صدر مورفر .

فان باردالیان كان قد جرحه في خده حين كان يروده حول منزل صنة مع الدوق كما يذكر القراء .

فدنا منـــه ، وقال له بصوت منخفض ، وقد ضم قبضته متوعداً . سوف تلقاني .

فأجابه باردالیان بنفس اللهجة : حين تريد .

وقبل ان يخرجوا من حضرة الملك اجتمع كاليس ومورفر بالدوق دانجو وكلمه همساً .

فنظر اليه الدوق حين خروجه نظرة وعيد

فقال باردالیان في نفسه : إني سجين في الحالين ، فإذا لم يرني أم الملك فتحبسني إلى الباستيل ، فقد رآني آخر الملك ، وهو مرسلي إلى سجن التاميل .

ولما سأل الملك موغورانسي عن باردالیان ، انصرف باردالیان عن التفكير بما يكتنفه من الأخطار ، إلى سماع ما يكون بين المارشال والملك .

أما فرنسوا فإنه أجاب الملك قائلاً : إن هذا الفتى يا مولاي ، يدعى الشفالیه دي باردالیان وهو شاهدي على ما سأقول ، فالتمس من جلالتكم الأذن له بالبقاء معي .

فأومأ الملك برأسه إشارة الى الموافقة .

وعاد فرنسوا الى الحديث فقال . إني أطمع بحلم جلالتكم ، فالتمس الهاساً آخر ، وهو أن يصدر أمره الكريم بإحضار أخي هنري مارشال دامفيل .

— إذاً انت تريد عقد مجلس هائلي بحضرتنا ؟

— هو ذاك يا مولاي لأن الملك والد رعاياه .

وكان الملك عارفاً ما بين الأخوين من العداء ، ولكنه كان يجهل سبب هذا العداء .

وكان بالاً إلى معرفة سبب هذا الحقد الدفين الذي يكنه الأخوان بعد عهد بعيد وقد حين الناس .

ولما رأى لهجة فرنسوا وقنوطه وذلك الشاهد الذي أحضره على ما كان يتوق اليه من معرفة أسباب العداء ، أحب أن يعلم هذا السر فقرع على مائدة بطرقة من الفضة .

فأسرع اليه الحاجب فأمره ان يدعو كومين رئيس حرسه .

فأجاب الحاجب : العل مولاي نسي انه أجاز الرئيس أن يتغيب

ثلاثة أيام .

هذا أكيد .

— ولكن حرس جلالة والدتكم هنا فإذا أمر مولاي .

— نعم ... نعم ادع لي انسي .

وبعد هنيهة أقبل انسي رئيس حرس الملكة كاترين .

ولما دخل انسي لم يحالف ، بالرغم عن وجوب احترامه للملك ، عن أنه يظهر انهماكاً عظيماً حين رأى باردالیان في غرفة الملك وهو الذي قبض عليه وساقه إلى الباستيل .

وكان باردالیان حين دخوله ينظر إلى بندقية معلقة في الجدار ، على الانتباه .

ولما دخل انسي التفت اليه باردالیان ، ورآه ينظر اليه متهللاً كأنه لا يصدق عينيه .

فابتسم له باردالیان وأشار بعينيه إشارة ودية ، وانسي واقف شاخص اليه وقد نسي انه بحضرة الملك .

فقطب الملك حاجبيه وقال له ما هذا يا انسي وما أصابك ؟

فأجاب انسي قائلاً أسأل مولاي العفو لقد أصابني دوار فجائي دعا إلى ما رأيتم من ذهولي

فقال باردالیان في نفسه إني لا أرى غير وجوه أعداء ، ولا أعلم بعدهما كيف يكون مخرجي .

وأما الملك فانه قال لانسي : إذهب في الحال إلى قصر مسيم وقل للمارشال هنري دي موغورانسي اني أريد ان أراه .

— أيأمر جلالة مولاي ، ان أذهب وحدي ، أو أصحب بعض الحرس .

— وحدك ... وحدك إني لا أرسلك للقبض عليه . ألحصب اني في غرفة

سيدتي الوالدة

فالقى رئيس الحرس والتصرف .

وعندها انحنى فرنسوا امام الملك وقال له :

– يجب علي الآن ، يا مولاي ، ان أخبر جلالتكم اني جئت أطلب عدلاً وإنصافاً .

واني أشكو جلالتكم أخي هنري دي موفورانسي وأتهمه بارتكاب جرائم الخيانة والكذب والاختطاف .

أواه يا مولاي ، اني رأيت إشارة بدت من جلالتكم ، فعلمت ما تريدون بها .

إنكم تريدون يا مولاي انه يوجد في باريس قضاة عادلون ، وان الحاكم أولى بالنظر في هذه الشكوى .

ولكنكم يا مولاي قاضي قضاة المملكة .

إني لا أشكو تلك الجرائم لعدالة جلالتكم ، بل إني شرفها أيضاً ، لأن تلك الأمور الحالكة التي سأرويها ، يجب ان تبقى مكتومة ، فلا تدركها الأفواه .

مولاي ، إن قضيتنا إذا بلغت الحاكم فضحت أسرة نبيلة ، وكنت أنا آخر ضحاياها لأني أنفذ العدالة بنفسي .

كلا يا مولاي تكفي قاضون حرج الوقت .. ان القضية خاصة بامرأة ، بل بامرأتين .. بل بشهيدتين ..

إحداهما البنت ، وقد نكبت يوم مولدها بأشد النكبات ، لأن أباها تخلى عنها ... والثانية وهي الأم ، وقد نكبت من ضروب الشقاء ما لا يحتمله إنسان .

فكانت تحمل على الاشفاق بصبرها وكتمها ، وكانت آية الاعجاب بهذا الصبر والكتمان .

فأجابه الملك ، وقد بدت عليه علائم التأثر : إننا نرضى ان تكون الحكم في هذه القضية

وان اضطرابك وحديثك حملاني على الاعتقاد بأن الأمر خطير ، وانه حادثي محض لا يجب ان يشهر لدى الناس ، قل إذاً ما تريد قوله وأنت على ثقة من عدالتي وكفائي .

– لقد غمرني مولاي بإحسانك ، ولا أدري كيف أعرب عن امتناني

ولكن الا ترون جلالتكم ان أرجيء بيان التفصيل الى ان يحضر المتهم لأبسط شكواي بحضوره .

– لقد أصبت يا مارشال وهو ما يقتضيه العدل ، ولكنك تستطيع ان تقول لي قبل حضوره من هما هاتان المرأتان ؟

– نعم يا مولاي ، إنهما عاملتان .

فتدخل الملك وقال : عاملتان ؟ . وبأي شغل تشتغلان ؟

– بالتطريز وهما تشتغلان للارزاق

وقد قال فرنسوا هذا القول بلهجة قنوط ظاهر .

فقال له الملك : رأيي تفيان إني اهتممت بالتطريز وعرفت اللواتي يشتغلن به لأنهن لا يتجاوزن خمس نساء .

– إنهما تقيمان في شارع سانت جينيس .

شارع سانت جينيس ؟ أيوجد فندق تجاه المنزل .

– نعم يا مولاي وهو فندق دفينيو .

فصفق الملك بيديه وقال – لقد عرفتها ، وهي لا ريب أمهر مطرزة في باريس

ثم ابتسم الملك ابتسامة حنو ، وقد ذكر ان حنة كانت تطرز لخليلته ماري توشيت .

أما فرنسوا فقد بهت وقلق لهذا الحادث الذي لم يكن يتوقعه .

فقال له الملك : أراك يا مارشال قد انذهلت ، وحقك ان تدهش لمعرفتي مثل هؤلاء الناس .

ولكني أحب التنزه في باريس كعامة قومها وأنا متنكر ، فأجول في شوارعها وقد كاد يقتلني الضجر في القصر ، فأبحث في تلك الشوارع عن ابتسامة حلوة وانعطاف طاهر وكلام صادق وقلب نري دخائله كأنه منطو تحت زجاج شفاف .

وقد اتفق لي مرة في طوافي أني احتجت إلى مطرزة ماهرة فأرشدوني الى هذه العامة ، والفيتها من أصدق العاملات وأمهرهن ، وأبعدهن عن الفضول .

وهذه المرأة تقيم في المكان الذي ذكرته ، وهي تشتغل بالتطريز ، كما قلت ... وأزيدك على ذلك ، إنهم يلقبونها ، ذات النقاب الأسود » .

فاصفر وجه فرنسوا وتهدج صوته ، وقال بلهجة مضطربة ، كمن يجهش للبكاء :

— إنها تلبس النقاب الأسود يا مولاي لأن رجلا سفاكا ، وآخر مذنبا قد حكما عليها ..

أما السفاك فهو أخي ، وأما المذنب فهو أنا

نعم أنا المذنب ، لقد أحبت الغيرة بصيرتي ، واغتررت بالظواهر ، وأقمت سبعة عشر عاما أبحث عنها ، ولا أعلم أهي حية فترجى أم ميتة فتبكى .

ان ذات النقاب الأسود يا سيدي تدعى جنة ، كونتس دي بيانس ومارجيني وكانت تدعى دوقة دي موفورانسي .

وقطب الملك حاجبيه لدى هذا التصريح لانه كان يعلم عن جنة دي بيانس

ما يملأ الأكوان .

وهو أنها تزوجت سراً فرنسوا دي موفورانسي وانها طلقت منه بإلحاح والده أمير الجيوش على الملك هنري الثاني وتوسط هذا الملك لدى البابا بإباحة هذا الطلاق .

وكان يعلم فوق ذلك ان زوجته دينا دي فرانس كانت تعيش مع زوجها المارشال عيشة عزلة وافتراق لا عيشة زوجين متفقين .

ووجد هذا الملك نفسه ، في موقف حرج ، لدى قضية عائلية يصعب حلها

وكأنما فرنسوا ، أدرك بالفراسة ، ما كان يجول في خاطر الملك فقال له :

— ليس المراد يا مولاي ان نبحث الآن في قضية زواج يجدد ، او طلاق يتقض ، بل اني قادم لالتماس العدل من مراحم الملك . أسأل العدل يا مولاي ، لشقيقين منكودين ، عاشا زمناً طويلاً في أشد تكد وشقاء ، ثم اختطفا كما يختطف الثمر الاغتام حين لاح لها في سماء عيشها بارق رجاء .

مولاي اني جئت عملت بخطئي الهائل الذي ارتكبته وعزمت على إصلاح هذا الخطأ ، علمت في الوقت نفسه ان الام والبنت قد اختطفتا ، واني ما جئت أطلب العدالة إلا في شأن هذا الاختطاف . اني أطلب إطلاق سراح الشهيدة وابنتها وان تكرها ذلك المختطف الكاسر على ردها . أما المختطف الكاسر فهذا هو

وقد أشار فرنسوا عندما بقبضة يده الى الباب وقد فتح ودخل منه أخوه هنري

وكان هنري مصفر الوجه وقد زاد اصفراره حين رأى أخاه .

وحمل كل من الاخوين ينظر الى الآخر نظرات تجسم فيها الحقد والضغينة

وقد وقف هنري عند الباب كأنه لا يجسر ان يتقدم .

ومع ذلك فإنه حين دعي الى الوفر كان يعلم انه سيلاقي أخاه ، وتأهب لهذا اللقاء ، واستعد لنفض كل ما يقوله أخوه ، بل انه تأهب لامر يسعى به أخوه سعداً

ولذا ابتسم ابتسام الساخر حين ولج الى قاعة الملك ، غير انه ما لبث ان رأى اخاه حتى زال الابتسام .

ولم يطل الاضطراب لانه ما بيده من الملك وقد رجع إلى الابتسام ، إبتسام المنتصر فانحنى أمامه وقال :

— مولاي اني أتيت بأمر جلالتكم .

وكان باردالیان يراقبه ، وقد أدرك بفطنته ، ان بينه لتدرات بشر عظيم .

وما أخطأت فراسته ، لان هنري لم يكن ينوي الاقتصار على نقض اقوال أخيه بل انه كان يريد ان يضربه ضربة قاضية فيرسل به الى المشنقة او يسجنه في الباستيل الى الابد .

ولا يحتاج في ذلك إلا ان يبوح بالسر الذي سمعه عند البيس دي ايكس فيقول .

إن ملكة النـــافار والبرنس دي كونديه وكوليني في باريس ، وان فرنسوا دي موغورانسي قد اجتمع بهم ، وائتمر معهم على اختطـاف ملك فرنسا

وهذا الفكر هو الذي كان يدعوه إلى الابتسام .

أما الملك فانه قال بلهجة الثائر :

— إني دعوتك بناء على طلب اخيك فاصغ الى ما يقول عنك واجبه بعد ذلك .

ثم نظر الى فرنسوا وقال تكلم

وقال فرنسوا بصوت خافت :

— التمس من مولاي ان يسأل عما فعل بجنـــة دي بيانس ، وبابريزا ارلتها وابنتي

فسكت هنري ولم يجب الى ان أمره الملك بالكلام .

فنظر هنري الى أخيه ، كما ينظر العقاب إلى فريسته ، ثم التفت الى الملك وقال :

— وأنا التمس من جلالة مولاي الملك ، ان يسأل حضرة المارشال عن قصر كان فيه ، في شارع بيليهومي ، ومن كان يوجد في ذلك القصر ؟ وماذا حدث فيه ؟

فاصفر فرنسوا اصفرار الأموات وشعر ان رأسه يتغلغل ، كأنما لمسته يد الجلاد .

وحاول ان يجيب فاختنق صوته وقال له بصوت ضعيف لم يسمعه الملك :

إياك من شقي ساقل .

فقال هنري : إنـــ حضرة المارشـال لا يريد ان يجيب ، فسأله أجب عنه .

وعند ذلك تقدم باردالیان ، حتى اقترب من كرسي الملك ، وقـال لهنري ، بلهجـة اخيبت الرجاء في قلب فرنسـوا : مهلاً ... يا سيدي الدوق .

ثم نظر الى الملك وقال :

— أسأل جلالتكم العفو عن جرأتي ، ولكني أثبت شاهداً ولا بد لي من الكلام . ولذلك أقول ان جواب المارشال على سؤال أخيه لا يفيـــد جلالتكم بشيء .

فامتعض هنري وقال : لماذا ومن أنت ايها الرجل الذي يجسر على مخاطبة الملك قبل ان يسأله .

فأجاب باردالیان . لا فائدة لك يا سيدي الدوق من معرفة اسمي ، لأن العبرة بسؤالك .. ثم لا فائدة من سؤالك عما جرى في شارع بيتيهي إن كنا لا نذكر قبلها ما جرى في فندق دفينير في شارع سانت ديديس .. في الساعة التي يجتمع فيها الشعراء .

فتكمش هنري بصره واضطراب اضطراب الريشة في مهب الرياح وفعل ذلك بما سمع ورأى وقال . ما هذه الألغاز ؟

فقال باردالیان . لا تخف يا مولاي سوى ان سؤال سيدي الدوق لا علاقة له بما اجتمعنا لأجله .

ثم تراجع الى الوراء ووجهه يشرق بنور الجرأة ، وعيناه تتحدان .. بلذة الانتصار حتى ان الملك لم يملك عن الابتسام له والإعجاب به .

وعندها قال الملك هنري :

ـ أحق يا دوق ما يقول هذا الرجل وهو ان سؤالك لا علاقة له بقضيتك مع أخيك .

فتنهد هنري تنهداً يشبه الأنين وقال . نعم يا مولاي .

فنظر فرنسوا إلى باردالیان نظرة أعربت عما يخالج قلبه من الامتنان لكنه يقول : لا أنسى جميلك ما حييت .

غير ان الملك لم يلبث بعد ابتسامه لباردالیان ان قطب حاجبيه وخامره الشك مما سمع لأن قلبه كان يهاج خوفا من المؤامرات عليه وقد رأى من كلام هنري ما يحمل على الريب بفرنسوا ، ومن كلام باردالیان ما يثير الظنون بهنري فنظر إلى هنري وقال :

ـ أنت لم تقل ما قلته عبثاً وقد ذكرت شارع بيتيهي فقل لي أي منزل عنيت بهذا الشارع .. قل اني أريد ان أعلم .

وكان الملك يعلم ان منزل الأمير الكرديني أشد أنصار الهوكينوت موجود في هذا الشارع .

أما هنري فقد أدرك لفوره حرج موقفه ورأى انه لا بد له من إنقاذ أخيه إذا أراد ان يسلم من باردالیان .

ثم رأى ان تهمة أخيه يتسع فيها مجال التقض خلافاً لتهمته لانها ثابتة بينة لمحتمل الجدل .

ثم رأى انه لا ينجيه من هذا الموقف الكريه ، غير الإمراع في الجواب ، وبذل جهداً فوق جهد البشر كي يستجمع قواه العقلية ويختلق حيلة ينقذ بها هذا الأخ ، الذي لا يريد له غير الموت ، فنظر إلى الملك وقال :

ـ مولاي اني أردت بذلك الشارع منزل الدوقة دي كيز .. والحكاية حكاية نساء كما ترى .

فابتسم شارل التاسع .

وقال هنري : إني أعترف يا مولاي أني لا أروي هذه الحكاية إلا مكرهاً لان الدوق دي كيز من أصحابي .

وقد كان الملك يكره هنري دي كيز كرهاً شديداً ويعرف ان امرأته لا تبوح للنوح السوى وهذا حديث مشهور مع الكونت سانت ماجرين فضحك ضحكاً عالياً وقال :

ـ أخفض صوتك ، لان الدوق دي كيز والكونت سانت ماجرين وراء هذا الباب .

ـ إذاً لقد عرفتم يا مولاي .

فضحك الملك أيضاً وقال : لقد عرفت دون ريب ولكني لم أعرف بعد مسألة فندق دفينير ، ورأى علاقة لها في هذه القضية .

فنظر باردالیان الى هنري نظرة مفادها (انك أنقذتنا وسأنقذك انا أيضاً) ثم أجاب الملك قائلاً :

ـ مولاي ان دفينير فندق فسيح ، يجتمع فيه الفياهنة في الشعر ، فيحضر

هذا الاجتماع بعض السيدات النبيلات ويشاركن مع الشعراء في المسابقات الشعرية والسياسية .

غير انه يتفق بعض الأحيان ان الشاعر يلبس ملابس من الحرير قرمزية اللون ورشاشاً فوقها بلون البنفسج

فابتسم الملك ، لأن الكونت سانت ماجرين كان يلبس هذه الملابس ، وقال في نفسه : ما كنت أود إلا ان يسمع الدوق دي كيز هذه الأقوال .

وقد ابتسم هنري أيضاً لابتسام الملك واضطر فرنسوا كذلك إلى الابتسام تأييد هذا الاختلاق .

ثم مسح فرنسوا العرق عن جبينه ، وانتظر إلى ان فرغ الملك من ضحكه وقال

— إني أتيت التمس من جلالتكم يا مولاي ان تأمروا باطلاق سراح الآنسة وايلتها لانها اختطفتا وسجنتا بالرغم عنهما .

نعم . أوضح شكواك .

— لقد قلت لجلالتكم يا مولاي ان جنة كوكناس دي بيالس وايلتها فوزا اختطفتا بالعنف من منزلها في شارع سانت دينيس وان الذي اختطفها كان أخي هنري دوق دامفيل .

فقال الملك مخاطباً هنري : أحقاً يا دوق ؟.. فماذا تجيب عن هذه التهمة ؟.

— إني أنكرها يا مولاي كل الانكار ، لاني لم أر هاتين الفرنسيتين منذ سبعة عشر عاماً ، وهي تهمة باطلة لم يدفع أخي على الاقدام عليها إلا الحقد الديني .

فقال فرنسوا : إني لا أجسر على تكدير صفو جلالتكم بعرض مثل هذه الشكوى إلا ولدي من البراهين ما يثبتها .

وهذا الشقاليبه دي بارداليان ، لقد أقام يوماً ونصف ليلة مختبئاً في قصر اخي ، فإذا تفضل مولاي فليسأل الشقاليبه عما سمعه ورآه في ذلك القصر .

فقال الملك مخاطباً بارداليان : اقترب منا يا شقاليبه وتكلم .

فبدا بارداليان ، واتحنى أمام الملك باحترام عظيم ، ممزوج بالكبرياء وقال له :

— التمس من مولاي ان يأذن لي بسؤال الدوق ، كيف يريد أن أبدأ قصتي ؟

فأجاب هنري قائلاً : لم أفهم شيئاً .

فقال بارداليان : ان المسألة سهل فهمها ، وان لكل حكاية بداية ونهاية ووسطاً ، فهل تريد يا سيدي ان أبدأ من النهاية ، اي من المركبة التي خرجت من القصر سراً في ظلام الليل ؟ أم تريد ان أبدأ من اولها بذكر وكيلكم جيل ؟

أم تؤثرون ان يكون البدء من الوسط ، اي بذكر تلك المحادثة التي جرى فيها الحديث على أمور كثيرة أخصها ما تعلق بخادمكم الطيب بارداليان والرجل الذي جاء خصيصاً من الياسانيل المداولة معكم .

فارتعش هنري لكلامه ، وأصابه من الخوف نفس ما أصابه ، حين كان يذكر مؤامرة الفندق ، وأيقن انه عارف بكل ما جرى بينه وبين حاكم السجن .

ولكنه تجلد وقال : إبدأ من حيث شئت .

فقال بارداليان في نفسه : لقد امتلكت لبنا القصر .

إذ وثق ان هنري سيعترف بكل ما يريده ان يعترف به بعد ان أوعده هذا الوعد الخفي .

وفيما هو يحاول ان يبدأ الحديث فتح باب غرفة الملك ، فنظر الى الداخل

واختنق صوته فلم يستطع الكلام .

ذلك ان الذي فتح الباب ، ودخل بدون استئذان ، كان الملكة كاترين .

وقد دخلت وتركت الباب مفتوحاً ، ورأى باردالبان وراءها في الغرفة المجاورة الدوق دانجو وكاليس ومورفر وماسي رئيس حرس الملكة وعشرة حراس فقال في نفسه : لقد بدأت العاصفة فلنتأهب .

ودنت الملكة من ولدها وهي تبتسم ، فقال لها الملك بصوت يتهدج من الغضب :

– كيف يكون ذلك .. إني أذنت للمارشال دي مونمورانسي بمقابلة خاصة فلا يحق لأحد الدخول حتى انت .

فأجابته الملكة وهي تبتسم : اني عارفة بذلك يا بني ، ولولا يقيني من ان دخولي يرضيك ، لما أقدمت عليه بمثل هذه المفاجأة المنكرة ، ولكني أتيت لاخبرك انه يوجد بحضرتك الآن عدو لامك ، وعدو لاخيك ، وعدو لك .

فتنفس هنري وقد أيقن انه نجا .

ولوقع فرنسوا ان يكون هو المتهم فشمخ بانفه مستكبراً .

وثبت باردالبان عاقفاً على السكينة .

أما الملك فانه نظر الى ما حواليه كأنه يبحث عن هذا العدو وقال لها :

ماذا تعنين بما تقولين يا أماه ؟

أجابت : أعني انه يوجد هنا الآن رجل لا أعرف باية جرأة دخل الى اللوفر ؟

وان هذا الرجل اهان أخاك الدوق دانجو وتجاسر على إشهار السلاح عليه وهو قد مكر بي أنا ايضاً .

– من هو هذا الرجل .. اذكري اسمه .

– هو هذا الرجل الواقف أمامك الذي يدعونه باردالبان .

وفدى ذلك في الحال الحراس قائلاً : تعالوا واقبضوا على هذا الرجل .

فأسرع كاليس ومورفر قبل أن يتم الملك جمله ودخلا إلى غرفة الملك ، ثم تلاهما ماسي بحراسه .

ووقف فرنسوا متململاً حائراً وهو لا يعلم كيف ينقضّ باردالبان ، وأيقن هنري انه نجا بفضل الملكة .

وأما باردالبان فانه تأهب منذ دخلت الملكة .

وقد نظر نظرة سريعة إلى أولئك الجوع ، فرأى الملك واقفاً يأمر بالقبض عليه والملكة تضطرب غضباً وتشير بأصبعها اليه وفرنسوا يدنو من الملك كي يتدخل في أمره ، وهنري يبتعد فرحاً كي يفسح المكان للحراس ، والحراس ، وفي طليعتهم ماسي وكوليس ومورفر يهدقون به ويهمون بالهجوم عليه .

رأى كل ذلك بنظرة واحدة كما ترى الأشباح في الأحلام فامتشق حسامه بسرعة التصور وضرب به أول المهاجمين عليه وهو كاليس فأطارت الضربة خوذته فسقطت عند رجلي الملكة .

وعند ذلك ، جردت سيوف الحراس ، وهجموا على باردالبان هجوماً واحداً .

ولكن باردالبان رجع بخفة النمر إلى تلك النافذة الكبيرة المشرفة على نهر السين وهو يقول :

– السلام على عدل الملوك ... إلى اللقاء أيها الأسياد .

ثم وثب من تلك النافذة إلى النهر .

وكان مورفر وماسي قد وصلا إلى تلك النافذة حينما يلوغ باردالبان إلى الماء فرأياه قد سبح في الماء حتى وصل إلى الضفة .

وصاح الدوق دانجو أطلقوا عليه الرصاص .

فأسرع مورفر إلى بندقية معلقة في الجدار وأطلقها على باردالیان

ولكن باردالیان لم يتدان إلى الالتفات ولبث يسير الهوينا، كأنه خيل أن يعدو راكضاً وهذه العيون تنظر اليه .

فأخذ مورفر بندقية ثانية وأطلقها عليه فأخطأه أيضاً .

وكان باردالیان قد وصل إلى منعطف وأيقن انهم لا يرونه فجعل عند ذلك يركض جداً في الفرار .

كان لفرار باردالیان تأثير عظيم على الملك وللكة وجميع أولئك النبلاء وسادت الفوضى بينهم وجعل كل منهم يرتأي بشأنه رأياً .

وكان أشدهم أسفاً الملكة لأنها كانت ذقة عليه .

وقد سر الدوق دي كيز لفراره ونجاته وجعل يتحسر على هذا البطل ويقول في نفسه أنه بطل معركة الجسر فهو عدو الملكة وعدو الدوق دالنجو ، وقد أبى ان يكون في خدمتي ، ففي خدمة من يريد أن يكون .

وقال مورفر بصوت مرتفع : ليصدر إلي الأمر بالقبض عليه ، فلا يبيت الليلة إلا في السجن .

فقالت له الملكة : اند اعطيناك الأمر فافعل .

وقال الملك ، وقد وقف مغضباً ، يجب أن تبحثوا عن هذا المتمرد في جميع انحاء باريس حتى تعثروا به وترسلوه إلى الباستيل .

ثم التفت إلى فرنسوا وقال له : أهنئك بهؤلاء الناس الذين تأتي بهم الينا يا حضرة المارشال .

وقالت الملكة ، أن حضرة المارشال منقطع عن اللوفر ، فهو يختار اصحابه في غير هذا المكان .

وابتسم هنري ابتسام المنتصر ، فسكت فرنسوا إلى أن تزول العاصفة .

وقال الدوق دي كيز : ان المسيو دي موغورانسي لا يصاحب غير أعداء الملك .

فأجابه فرنسوا قائلاً : اعذر أيها الدوق من أن أجيبك ، فما أنت ملك ولا ملكة .

ثم قال له بصوت منخفض : أو أنك لم تليس التاج بعد بالرغم عن رغبتك فيه .

فزمر الدوق دي كيز وتراجع .

وقالت الملكة مخاطب الملك : ان الشفالیه باردالیان قد اهانني في حادثة باريس لك في غير هذا المقام ، وقد تجاسر على أن يتهدد أخاك الدوق دالنجو ، أليس كذلك يا هنري .

– هو ذاك يا أماه .

والتفت الملكة كاترين إلى عادلة الملك وقالت :

أن هذا الرجل يا بني خطر علي وعلى أخيك .

فقال لها الملك : كلمي يا أماه ، فقد أمرنا بالقبض عليه ، وسنؤدبه لأدبياً يكون به عبرة لسواه .

ثم ابتسم وقال : وسوف ترون أني أحب عائلتي أكثر مما تحبني .

وعند ذلك أشار إلى الحضور إشارة مفادها أنه يريد أن يبقى وحده .

فخرجت الملكة مع الدوق دالنجو ، وتبعهما الجميع ما خلا فرنسوا وهنري فانهما بقيا في مكانهما .

فنظر الملك اليهما متعجباً وقال : اظنني قلت أن الحفلة قد انتهت .

فقال له فرنسوا : واكنكم وعدتموني يا مولاي أن العدل سيجري مجراه وأنا انتظر .

– صدقت فقل إذاً وأظهر شكواك .

– لما كان باردالیان وهو شاهدي قد مضى ، فأنا أقول عنه ما سمعه وما رآه . أن مركبة يا مولاي خرجت ليلة أمس من قصر دي مسيح سراً ، وكان فيها امرأتان ، فسعوا أيستطيع الانكار .

فأجاب هنري بلهجة السكينة : أني لا أنكر ما يقول ، وما كان جلالة الملك يكرهني على التصريح ، فأنا أقول الآن بحضرة مسا لا أقوله أمام أحد من الناس .

فاعلم يا مولاي أن دوقة صبية ووسيمتها قد زارتني ، ثم طلبت إلي أن أوصلها إلى قصرها ، فهل يأمر مولاي أن اذكر اسم هذه الدوقة ايضاً ...

فضحك الملك لاعتقاده أن هذه الزائرة الدوقة دي كيز وقال : كلا ، فلا حاجة إلى فضيحة الخدرات .

فظهرت على فرنسوا علائم اليأس لوثوقه من أنه لا يستطيع اقناع الملك لا سيما وأنهم لا ينظرون اليه بعين الرضى في البلاط .

وقد زاد يأسه قرار بارديان فأطرق برأسه إطراق المغلوب وعلم أنه لم يبق له رجاء إلا في الاعتماد على نفسه .

فقال له الملك : لقد رأيت يا حضرة النارشال إنك متخذع فاذهب مع أخيك وكونا في المنزلة التي وضعكما فيها نبلكما فإنكما من أشراف الأسرات الفرنسية ويسوءنا أن يستفحل بينكما الخصام .

وخرج الأخوان ، وكان هنري ضاحكاً ساخراً ، وفرنسوا قانطاً كئيباً .

ولما وصلا إلى ردهة البلاط قد فرنسوا من أخيه قائلا : أرى إنك لا تزال تستخدم ملاحاً واحداً ، وهو ملاح الكلب والنعيمة .

فأجابه هنري بلهجة الساخر : بي ملاح آخر استخدمه حين أريد .

ونظر فرنسوا إلى أخيه نظرة دهوية ووضع يده على قبضة خنجره وقد هم أن يقتله لفوره ، ولكنه فكر بامرأته وإبنه وعلم انه يستحيل عليه أن يجدهما إذا قتله فارتد عن هذا الخاطر وقال له :

– اني امهلك ثلاثة أيام للامعان والتفكير ، ولكني حين أحضر الى قصرك

تكون الميلة قد انتهت ، فاذا كنت لا زلت هاتين الثعبانين في خلال هذه المدة فاحذر لنفسك في منزلك ، وفي القوفر ، وفي الشارع ، لأني قاتلك حيث أجدك .

فأجابه هنري بلهجة السكينة : سأنتظر واحذر .

– ٤ –

الحبيب الأول

كان في جبل سانت جنفياف دير مشهور إمتاز عما سواه من الأديرة بأمرين ، أحدهما وجود طفل فيه ، والآخر وجود راهب غير مقيد بنظام الدير وقيود الرهبان .

وكان هذا الطفل يناهز الرابعة من العمر واسمه جاك كليمنت فكان الرهبان يدعونه تارة جاك وطوراً كليمنت .

ولكنه كان بعيداً عن الشبه بأمثاله من الأطفال ، فانه كان يحب الوحدة وينفر من جميع الرهبان ماخلا راهباً واحداً يدعى بانيكارولا ، فانه كان يأنس به ولا يكلم سواه .

وأما الراهب فقد كان بانيكارولا الذي تقدم لنا وصفه في غير هذا الفصل ، فانه كان يقيم نهاره في الدير ، فإذا أقبل الليل ولم يكن لديه خطبة يلقيها خرج من الدير فلا يعود اليه إلا في الصباح ، وقد انهكه التعب والسهر ، فلا يعلم أحد أين ذهب .

فاتفق انه قبل الحوادث التي رويناها في الفصل السابق بيومين ، كان هذا الراهب جالساً في الحديقة وأمامه ذلك الطفل يعلمه القراءة .

وكان مشغل البال تائهاً في مهامه التفكير إلى أن تنبه الطفل من ذهوله ، فتنهد والتفت إلى الطفل فنظر اليه نظرة حنو وقال له : اقرأ يا بني .

فقرأ الطفل السطر الأول ، وقد وضع أصبعه على السطر وجعل يقرأ قراءة متقطعة ويقول : « أبانا .. الذي .. في .. السموات » .

ولما قرأ هذه الجملة توقف وقال : من هو هذا الأب ؟

فأجابه الراهب قائلاً : هو الله يا بني ، فإن الله أبو جميع الناس مثل أبينا الذي تراه في الأرض .

ففكر الولد هنيهة ثم قال : إذاً لنا أبوان ، واحد في السماء وهو أبو الجميع وواحد في الأرض لكل ولد مثله .

فسر الراهب لتنبه الولد ، ونظر اليه نظرة شفت عن اعتزازه به ، وقال له : امض في قراءتك يا بني .

فأعاد الولد الجملة الأولى وعاد بعد قراءتها إلى الاعتراض وقال :

– إذاً أنت لك أب ؟

– نعم ربيب .

– وكذلك الرهبان والبستاني والبواب ؟

– نعم فلكل انسان أب .

– إذا كان ذلك فلماذا لا يكون لي أنا أب أيضاً كسائر الناس ؟

فاصفر وجه الراهب وتأثر وأجاب الطفل قائلاً :

– من أنباك يا بني أن لا أب لك .

– ذلك ظاهر فلو كان لي أب لكنت معه ، فإني أرى جميع الأولاد يأتون يوم الأحد إلى الكنيسة يصحبهم آباؤهم وأمهاتهم . أما أنا فلا أب لي ولا أم .

قلت ذلك بانكسار ولا حائراً مضطرباً يريد ان يجيب الولد فلا يحسن .

ولكن الولد لم يحترم سكوته وتفكيره وقال له : أنت وحيداً في هذا الوجود ولا أب لي ولا أم .

فأجابه الراهب بصوت مرتجف : وأنا ماذا ؟

– أنت ؟ أنت لست أبي .

فاضطرب الراهب اضطراباً شديداً وضمه الحنو إلى ان يضم ولده إلى صدره وهو ولد ليس .

ولكنه تراجع عن عزمه واسترسل إلى التفكير حتى إذا رأى الولد أنه لا فائدة في ذلك اليوم من مباحثته ، استأذنه بالانصراف إلى الدير ، فأذن له وافترقا .

أما الراهب فإنه عاد إلى غرفته وهو كئيب قانط ، وقد تمثلت له ليس مني ليكس تلك الجاسوسة الحسناء التي غيرت اظلام حياته ودفعت به إلى مهاوي اليأس ، فرأى انه لا يزال يحبها .

وقال في نفسه : لا بد لي أن أراها .. فإني منذ رأيتها ليلة الاعتراف ألقيت في فؤادي مكمن ذلك الحب القديم ، وجعلت أحيي الليالي ساهراً مهموماً ، فإذا هدأت بعد ان اضناني التعب وغلبت تمثلت لي في الحلم ، فكان الحلم أشد هولاً من الحقيقة علي .

نعم لا بد لي أن أراها .. ولكن ماذا أقول لها .. وأين أجد ذلك الشجاع القدس فأنقذه إلى نفسها الدنسة ، فأجعل لتلك النفس جمال جسمها ...

ولكن ذلك محال ولا ابالي كيف كانت ، ومهما دنستها آثام الجاسوسية ، فإني أحبها ولا يبقى لي صبر عنها .

ولما انقضى ذلك اليوم وأقبل الظلام خرج من الدير حسب عادته .

وقد كان يخرج كل ليلة فيسير تائهاً هائماً لا وجهة له ، حتى إذا بزغ الفجر

عاد إلى الدير فتام بقية الليل مسرع.

ولكنه في تلك الليلة ذهب توا إلى النوفر ودخل في منعطف يؤدي إلى شارع لاهاي ، فذهب منه إلى ذلك المنزل الذي تقيم فيه ليس ، ووقف مختبئا تجاه ذلك الباب .

وكان في كل ليلة يخرج من الدير فيطوف في الشوارع ، ثم يشعر أن يدا خفية تدفعه إلى ذلك المنزل ، فيقف عنده تارة إلى بزوغ الفجر فينظر اليه فيبكي

ثم تهيج أحقاده فتتقد عيناه بمارق من الانتقام ، ثم يعود إلى البكاء واليأس فيرجع إلى الدير منكس البصر مطرق الرأس .

أما في تلك الليلة فقد ذهب توا إلى ذلك المنزل ، وكانت تبدو عليه علائم العزم الأكيد ، وفي نيته الولوج إلى ذلك المنزل .

فلما وصل إلى الباب شعر أنه يستحيل عليه إطراقه ، فكان كلما مد يده إلى الطرقة تراجعت ، فعاد إلى موقفه يائسا مكمودا لا يعلم ماذا يفعل .

فيما هو واقف في هذا الموقف لا يعلم ، أيطرق الباب أم يلتصق الجدار ، سمع صوت قبلة وقع من قلبه وقع الصاعقة ، وهاجت به الغيرة حتى كاد يندفع .

ولكنه ضبط نفسه ورأى أن الباب قد فتح وخرج منه رجل .

وكان هذا الرجل ديودات ، فشيعه الراهب بالنظر وهو يقول : انه خرج سعيدا ظافرا مغمما قلبه بالرجاء ، وأنا أنظر إلى هذا ، وقد أظلم قلبي باليأس .

وقد صبر نحو ساعة وهو يغالب الغيرة ويدافعها الى ان غلبته ، ثم بالدخول فمشى الى ذلك الباب .

ولكنه ما خطا خطوة حتى رأى الباب قد فتح ايضا وخرج منه هنري دي موفورانسي وسار مسرعا لا يلوي على شيء .

فأسرع الراهب ودخل من ذلك الباب قبل ان تقفله لورا المجوز ، فعرفت لأول وهلة انه المركيز بانيكارولا ، ولم تعارضه فدخل الراهب مسرعا إلى ذلك المنزل الذي خرج منه ديودات وهنري

ويذكر القراء ان هنري لم ينصرف من منزل ليس إلا بعد اتفاقه معها على ان تسجن عندها حنة وبنتها ، وفي مقابل ذلك يكتم سر حبيبها ديودات .

فلما ذهب هنري جلست في مقعدها مفكرة قانطة وقالت : وياه من ينقذني من هذا العذاب .

فأجابها صوت الراهب من خارج الغرفة قائلا : أنا .

فوقفت ليس مضطربة منذعرة ، ورأت حبيبها الأول فخطر لها بسرعة التصور انه قد تمن ملياً بعد ذلك الاعتراف ، وان الشفقة عليها قد ادركت قلبه .

فانتزع من اللكة ذلك الكتاب الذي استكتبها اياه ، فكان ملاصقا قائلا بيد الملكة ، وانه قادم اليها لرد ذلك الكتاب

وقد زادها ثقة بصدق ما ظنته تلك الكلمة التي أجابها الراهب بها .

فاستدارت منها انه قادم لانقاذها ، واستنار وجهها بنور الرجاء فقالت : من أدى .. كليمانت ... انك حميت ما كنت اقوله ليس كذلك : نعم انك عرفت يأسي الآن وتحولت تلك القسوة التي استقبلتني بها في الدير الى رحمة وحنان .

نعم انك قلت لي صريحا انك منقذي من عذابي ، ولا يستطيع سواك انقاذي في هذا الوجود ، فإني اصبحت في قبضة اللكة كالعصفور في مخالب البازي .

وكان بانيكارولا قد دخل الى الغرفة ، بينما كانت تتكلم واقفل بابها من الداخل واصغى اليها تم الاصغاء

حتى إذا فرغت من حديثها قال لها : من هذا الرجل الذي خرج الآن من هنا .

فابتسمت اليس ابتسام المنتصرة وايقنت ان الغيرة قد نهشت قلبه ، وانه لا يزال يحبها ، أي انه لا يزال في قبضتها .

فدنت منه وقالت : ان هذا الرجل قد ادخل شر تأثير .

– ماذا يدعى ؟

– المارشال دي دامفيل .

– فقال لها مغضباً : أهو أحد عشاقك ؟

فتنهدت اليس وهزت يديها وقالت : كليانت .. كن كريماً .. واذا كنت لا تريد معاملتي بالكرم والمروءة فلا أدري السبب في قدومك الي .

فتحرك الراهب حركة عنيفة وشعر ان ذلك الحب القديم قد عاد اليه باشد ما كان ، ووقف ينظر الى اليس نظر الغيور اليائس فيراها ابدع تمثال .

فتقدمت اليس منه ايضاً وأخذت يده بيدها فشعرت بارتجافه وقالت : كليانت انك عدت الي .. وانك أردت ان تتقدمني من شقائي .. كليانت ان شقائي مسائل لا يحتمل بشر ، أتريد أن تعرف ماذا يريد مني هذا المارشال ؟

فظهر الاضطراب على وجه الراهب وقال لها : كأنه لم يسمع ما قالته عن المارشال .

اليس إني قادم اليك للاتفاق معك .

– للاتفاق معي ؟

– نعم يا اليس فقد رأيت اليوم ولدنا .

فارتعشت اليس واصفر وجهها فقالت ولدي ... أين رأيته ... وأين هو .. دعني اتمتع على الأقل بمعانقة هذا الولد الذي حكنت احبه من الأموات .

– لقد قلت لك انه يربو في الدير .

– ولكن الأديرة كثيرة في باريس ، وهي مقفلة الأبواب كالحصون ، ففي أي دير يقيم ، وكيف السبيل اليه ؟

فسر الراهب وقال في نفسه : يظهر انها تحب ولدها .

ثم قال لها :

– لقد رأيته اليوم يا اليس وحادثته ، اتعلمين ما قاله لي ... انه سألني : كيف يكون لجميع الأولاد آباء وهو لا أب له .

فارتعدت اليس وقالت : أتحملت ان تسمع من فم هذا الطفل الصغير هذا القول دون أن تضمه إلى صدرك وتقول له : « أنا أبوك » .

– انه لم يقتصر على ذلك ، بسل سألني أيضاً كيف لا يكون له أم اسوة بسائر البنين ، واقسم لك يا اليس أن صوت هذا الطفل كان يقطع القلب من الاشفاق ، لا سيما حين قال لي : « إني وحيد في هذا الوجود لا أب لي ولا أم » .

فمضت اليس يدها من اليأس ، وقد أدركت ان حبيبها الأول يريد الانتقام منها بهذا الولد .

فانه قال لها الليلة أن هذا الولد يبحث عن أمه وسيقول لها في اجتماع آخر : انه يبكي بكاء القانطين ، ويسأل عن أمه الليل والنهار فلا يجدها .. وان الحزن سوف يقتله ..

نعم نعم هذه هي خطة الراهب الجهنمية ، فهو يريد قتلي حسرة على هذا الغلام ، كأنما ذلك الكتاب لم يرو غلة من الانتقام .

أما الراهب فانه قال لها : أن هذا الولد قد حملني على الاصغاء والتفكير .

ونعم يا اليس إني كنت أعددت لك انتقاماً هائلاً ، لا يخطر في بال الاهالسة ، وقلت في نفسي : إني إذا كنت أريد أن أؤذيك يجق لي اذيتك بالغلام .. ولكني على قرط حقدي عليك وعلى كوني اصبحت من الرهبان

لا يزال في قلبي بقية من ذلك الحنو القديم الذي كنت تعهدينه بي حين كنت الأب المركيز .

نعم إني قد أكون تأثرت واشفقت ، لأني جئت اليك اليوم اقول ... اليس ... اتريدين أن تري ولدنا .

قصمت اليس يديها وقالت انت تفعل هذا ... إني اسألك العفو يا كليانت فقد اسأت ظني بك الآن ، وحسبتك تريد الانتقام مني بهذا الكلام .. أحق ما تقول يا كليانت ... انك إذا اذنت لي بان أرى ولدي أقول ...

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أقول انك من رجال الله الصالحين واحترمك احترام الأولياء .

ـ أنا من أولياء الله ؟ .. لقد اصبت ، فهذا كل ما يجب ان اطمع فيه الآن .

ـ ماذا تعني بما تقوله يا كليانت .. الله أوضح مما تقول ، فقد حللت كل المعميات .

ـ إذاً تريدين ان تعفي حقيقة أفكاري .

ـ نعم .. نعم ، وهذا كل ما أريده .

ـ وهل تريدين حقيقة ان تري ولدك .

ـ بل اني أتوب شوقاً الى لقياه .

فوقف الراهب وقد ضم يديه الى صدره ، فظهر بلباس جماله وشبابه وقال ، اسمعي يا اليس حقيقة أفكاري .

انك اثبت إلي كي تعترفي لي وانا اثبتك كي اعترف لك .

واقسم بالله اني لا اقول غير الحق ، وانه لم يسمع كاهن من فم معترف أصدق مما يتكلمينه من فمي .

وانك ستجدين فيما اقوله أموراً قد تذهلك ، ولكن يجب ان تصغي إلى نهاية حديثي ، ثم تحكمين بعد ذلك بما تشائين .

اني لا اطلبك يا اليس ، إذا قلت لك اني لا أزال أهواك فقد عرفت مني هذا الحب . اليس كذلك ؟

ـ نعم أعلم .

ـ وانك قد رأيت من قسوتي في تلك الليلة ليلة الاعتراف ما اكبرته ، وحسبت بعده أن ذلك الحب الشديد قد استحال الى عداء أشد .

ولكنك غلطت يا اليس ، فاني كنت شديد الجفاء والعنف تلك الليلة ، بل خطر لي مراراً حين اعترافك ان اضغط بيدي على عنقك واخنقك شر خنق غير ان ذلك لم يكن من الكره ، بل من الغيرة وشدة الحب يا اليس .

ولا بد لي أن أقول لك اني بذلت كل ما يمكن بذله من الجهد في سبيل نسيانك فلم يجد السلوان سبيلاً الى قلبي .

بل اني كرهتك كرهاً شديداً ، ولكن قلبي كان من الكاذبين ، ولم يكن مثل هذا الكره إلا مثل تلك الغيوم التي تتلبد في الصيف فتحجب النور ، ولكن الريح لا تلبث ان تفشها فيظهر خلال الشمس .

ان هذه الغيوم قد تتحول إلى عاصفة ، ولكنها قد تتقشع أيضاً ، ولكن الشمس تظهر بعدها في الحالتين أشد توهجاً وحرارة من قبل .

وهكذا كان غرامي يا اليس مخبوءاً تحت الرماد ، فحسبته قد انقضى وزال ، ولكنك حين نهضت بحضورك إلى ذلك الرماد عادت النار إلى الضرام .

ولا انكر اني كنت احتقرك يا اليس ، ولكن الغرام ما زال يغالب ذلك الاحتقار حتى صرعه وايقنت اني مغلوب .

اني حسبتي دحلت الآن وسمعت شكواك الأليمة ، علمت انك من أشقى البشر ، ولكنك لست الشقية وحدك ، بل نحن ثلاثة أنت وأنا وذلك الغلام .

أما انا يا اليس ، فقد علمت يقيناً انه يستحيل علي العيش بعيداً عنك .

واما الطفل فانه يستحيل ان يعيش دون ان يتغذى بحنو الأمهات .

واما انت فإنك معترفة بثقالك بدليل ما سمعته منك الآن وقبل الآن .

ولذلك جئت اليك اقول اتريدين يا ليس ان تنهضي من تلك الهاوية السحيقة التي سقطت فيها ؟..

اتريدين ان يحيى ذلك الطفل وهو من لحمك ودمك ؟

اتريدين ان اخرج انا من ذلك الجحيم الذي قذفت بي انت ؟..

قولي اتريدين ..

— كيف يكون ذلك ؟

— بأن تسافري معي ومع الغلام . انني غني في بلادي الايطالية ، ولي منزلة عالية بين قومها بفضل ثروتي ونبل اسرتي . وتلك البلاد بلاد الحب والجمال ، فنعيش فيها سعيدين مع ولدنا ، واذا أحببت غير البلاد الايطالية سافرت بك الى سواها .

فسكتت ليس وشجعه هذا السكوت فاتسع له مجال الرجاء واخذ يبدد يديه ويقول :

انذا تسافر يا ليس إلى حيث تشائين ونكون من اسعد البشر ، فإني احبك حباً انسانياً كل الاعتماد ، وبت اراك طاهرة نقية ، كما كنت من قبل وانت تحبين ولدك ، وربما احببتني ايضاً بعد العشرة والاخلاص

انك خدعتني وسألسى خداعك . وسفتني إلى كارين وانت تحسبين انك دفعتني الى الموت ، وسألسى خيانتك واكون معك عاشقاً مفتوناً او زوجاً حنوناً ، وتكون لك ثروتي واسمي وحياتي .. انك تقبلين يا ليس لاجلك ولأجلي ولولدنا .. اتقبلين ؟

— كلا .

— كلا ؟

فأجابته ليس بلهجة دلت على يأسها : أنت تؤاخي أنا شديداً بهذه الاقتراحات التي لا يمكن تحقيقها .

— ولماذا ؟.. أتشكين بغرامي ؟.. أم تخشين أن تثور ثائرة الغيرة يوماً ، فيقضي علينا بالشقاء ؟..

اتريدين يميناً يا ليس .. إني أقسم لك انه إذا خطر لي خاطر الغيرة قتلت نفسي قبل ان أؤذيك بحرف .

— لا شك عندي بغرامك ، يا كلايانت ، ولا بسلطانك على نفسك ، وأنا واثقة انك تنسى كل ما مضى ، ولكن بيننا نحن الاثنين واحد لا يستطيع النسيان وهو أنا .

— ماذا تعنين ؟

— أعني إني أحب حباً لا تستطيع ان تنزعه مني قوة في الوجود ، وإني حين أودع من أحب أودع الحياة .. كلايانت ، اني أحب ان تنسى خيانتي ، وإني أضحي من أجل ذلك وسعادة ولدنا ... ولكن نسيان دروك ..

وهنا ضحكت ضحكاً هائلاً وهزت يد الراهب بعنف وقالت :

— إنه ليس بعشيقي ... أسمعت ... وهو لا يكون زوجي ، ولكني ساكون خطيبته ما حييت ، ولو اضطررت ان أقول إني الجحيم لأقول له « أحبك » لفعلت

إني معشوقة خائنة ، وأم لا قلب لها ، بل انا كل ما تشاء يا كلايانت ، فقل عني ما تشاء ، ولكني لا أنسى دروك ولا أتخلى عن هواه ولو أكرهت على ان أعترف له بحبي ..

إنه يكرهني بعد ذلك ويحتقرني فأموت ، ولكن يبقى لي جزاء وحيد ، وهو اني مت في هواه .

وقد قالت هذا القول وبرقت عيناها ببارق يدل على الجنون .

ووقف الراهب هنيهة وهو مضطرب حائر ، ينظر اليها بدون حب وبدون كره .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وانصرف وهو يعلم انه لم يبق له فيها رجاء .

- ٥ -

محاصرة الخمارة

بعد تلك الحادثة التي جرت في الخمارة بين بارداليان وأبيه ذهب بارداليان الأكبر وهو مسرور وقلق معاً .

أما سروره فقد كان لأنه لقي ولده وانه أزال من نفسه تلك النضرة التي أحدثها تعرضه له في إنقاذ الأسير نيق .

وأما قلقه فلأنه وجد في ظروف تضطره الى الافتراق عن ولده في قضاء المهام ، وانفصال الابن بأخوين متخاصمين . فإن الأب كان يخدم هنري ابن مونفورانسي وكان الابن متصلاً باخيه فرنسوا .

وكان بارداليان الأكبر يقول في نفسه : ما شأن ولدي بالدخول في مسألة بينيه ، فقد أفضى به الى علاقة بهوى تورزا .

أنظر أية فتاة اختارها كأنه لم يبق بنات في باريس يصلحن لهواه .

ولولا هذا الحب لما كان التفريق بيني وبينه ، ولاشتغلنا في مهمة واحدة وجرت أمورنا في أحسن مجرى .

لكنه أبى ان ينتصح بنصحي وحمله غرور الصبى على ان يندفع مع تيار هواه ، وذكرني ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى منزلي بتورزا وهي طفلة ورضعتها في مهده ، فقد كان ينظر اليها بحنو وتنظر اليه بارتياح واطمئنان حتى انها باتت مشكلة على كتفه .

فاذا بقيت على ذلك الجمال ، الذي كنت أعهده فيهـا ، فهو معذور بحبها .

ولكن كيف اتفق انه لم يحب غير هذه الفتاة . . ومن اين تعلم هـذه المبادىء . . لقد قال لي : انه لو اتفق انـه جرحني ، لانتحر واقتل نفسه بالنهر .

لا شك ان هذا الشبل من ذاك الأسد ، ويوح لي بما يقول إني أود ان يراق دمي بحيلته فداء لنقطة من دمه العزيز .

على اني لا أعتزل خدمة هنري في كل حال ، وأسعى لخير ولدي بالرغم عنه إذا اقتضت الحال ، بل سأرده الى الصواب فهو زين الشباب ، لا يعوزه شيء البتة إلى الكمال غير تلك العواطف التي تدفعه إلى التداخل بما لا يعنيه ، وسيرى ما يكون .

وسار بارداليان الأكبر توّاً إلى قصر هنري ووصل اليه في الصباح ، وقال الخادم الذي فتح له : إن المارشال ينتظره على الجزع .

فصعد اليه ، وكان اول ما قاله له : إن عيني لا تكادان تنفتحان من النعاس . .

فقال له هنري : ولكن أخبرني ، قبل ان تنام بما حدث ؟ . . وهل هاجوك ؟ . .

– نعم ، ولكنهم كانوا يريدون مهاجمتك ، فحلت بينهم وبينك .

– ولكن من هذا الذي يهاجمني ؟ . . أكان يقصدني بالذات أم كان يقصد المركبة ؟

– كان يقصد الاتيان يا سيدي .

– وانت الذي صددت الهجوم . أخبرني ما حدث بالتفصيل ؟

– يظهر يا سيدي انك نمت وأصبحت وباء الجفون من الكرى أما انا فاني كنت أركض كل الليل .

واصبح يا سيدي الخلاص بالايجاز ، إننا لم نكد نتجاوز مائتي خطوة بالمركبة من القصر حتى سمعت صوت غدارة قد دوى في الفضاء .

فأسرعت المركبة بالفرار ، وأسرعت انا الى حيث دوى الصوت ، فرأيت رجلا يعدو مسرعاً في أثر المركبة ، فأطلقت ساقي للريح وتجاوزته وحلت بينه وبين المركبة .

ووقف الرجل مغضباً وقال لي : مل عن الطريق

فأجبته إني لا أحب تغيير موقفي ، فإذا كنت مستعجلا فسر في طريق آخر .

فلم يجبني بشيء ، ولكنه حمل علي حملة منكرة ، وطعنني بحسامه طعنات ما شككت انها قاضية .

ولكني خلوت منها وهجمت عليه .

وما زلنا نتقارع بالسيفين حتى كدنا التعب ونشب الى اليسار واسرع العدو فأفلت منه .

ولم يكن فراره عن خوف كما تبينت من فنون قتاله ، فقد كان من الأبطال ولكنه هرب ليدرك المركبة .

فقال هنري بلهجة القلق : ألم تدركه ؟

– صبراً يا سيدي ، فانه جمل يركض وانا أركض في أثره حتى أدركته ، ولكني لم أستطع القبض عليه .

– أنجا منك ؟

– صبراً يا مولاي لانه قد اجتاز النهر ...

وتنهد هنري تنهد الارتياح وعلم بارداليان من ارتياحه ان المركبة لم تسر فوق الجسر فمضى في حديثه وقال :

– إنه اجتاز النهر يا سيدي فتبعته ، وما زلت أطارده حتى أدركته عند باب وردويت .

وهناك لم يعد يستطيع الفرار فارتد إلي ، وكان بيننا قتال عنيف الى ان حانت لي فرصة وطعنته تلك الطعنة الهائلة التي عضتك إياها في صدرك ، فأصابت منه مقتلا ، وكانت القاضية ، وقد أسفت عليه والله لأنه كان من البواسل .

– أمات ؟

– مات الغدور دون ان يفوه بحرف

– أكان الرجل من الفتيان ؟... صفه لي .

– بل كان يناهز نحو الأربعين من العمر ، وهو خفيف شعر اللحية ، يلبس ملابس سوداء ، كأنه علم بمصيره ، ولبس الحداد على نفسه مقدماً .

– لقد خدمتني أجل خدمة يا بارداليان ، ولما كانت هذه الخدمة غير داخلة بالمهام التي انتدبتك اليها فقد وجبت علي مكافأتك عنها ، وسيدفع لك وكيلي ما تستحقه .

فشكره بارداليان وقال : أيأذن لي مولاي ان أسأله إذا كان قد أوصل الكاغد إلى محله ؟

– نعم وكان ذلك بفضلك أيها العزيز وبفضل اورتيس الباسل .

– الفيكونت اميرمونت ؟

– هو بنفسه ، لأنه كان يقود المركبة . واجتهد يا بارداليان ان يكون في عداد أصحابك .

– سأمتثل يا مولاي لما تريد .

ثم انحنى أمامه وانصرف عائداً الى غرفته ولم يلاقه .

ولما صحا من رقاده سأل الخادم عن المارشال فأخبره انه ذهب إلى القوقر بدعوة من الملك .

فقال باردليان في نفسه : ما عسى ان يريد منه الملك فإني أريد ان أعرف كل شيء من أمره .

ثم وثب من سريره ، وكان اول ما فعله انه قبض مائتي ريال ، وهي المكافأة التي وعده بها المارشال عن قتل ذلك العدو الذي اختلق قصة قتله ، وقال : لا يفارق هذا البيت غير الجاسين ، لان الذهب يطير من سقوفه

وقد وضع النقود في منطقته وقال في نفسه : أأنتظر عودة المارشال أم أذهب لأرى والدي ؟

وبعد التفكير ارتأى ان يذهب لقاء والده وقد خطر له ان والده أوصاه ان يحضر له كلبه فلم يبق بد من الذهاب .

ولما سار قواً إلى ذلك الفندق الذي طالما ضرب صاحبه ضرباً موجعاً ، حين كان يعسر على ان يطلب اليه تسديد دينه ، وخلفه والده فيه ، كما يذكر القراء .

فلما وصل رأى الوائد معدة والناس حولها يأكلون .

فنظر ورأى مائدة معدة لأربعة أشخاص ولم يكن عليها أحد ، فجلس ونادى الخادمة وأمرها ان تحضر له الطعام .

فاعترضته الخادمة قائلة : إن هذه المائدة معدة لأربعة أشخاص ، سيحضرون قريباً .

ولم يكترث لكلامها ، وأمرها ان تسرع باحضار زجاجة من الشراب .

فذهبت الخادمة واخبرت رئيس الخدم وهو لوبين ذلك الراهب الذي أخرج

من الدير واقيم في ذلك الفندق رقيباً على زواره كما يذكر القراء في مقلة الشمراء ليلة مؤامرة الدوق دو كيز .

فأسرع لوبين مغضباً ، يريد تأديب هذا الزائر الذي يريد اغتصاب الوائد ، فدهش دهشاً عظيماً حين شاهد باردليان ، واحتفل به أعظم احتفال .

ثم انتشر الخبر في الفندق وجاء صاحبه يدفعه الخوف للسلام على باردليان وهو يحسب انه سيلقى عنده حسب عادته السابقة وفي والده الكفاية والبأس ملء قلبه حتى ان عينيه قد احمرتا من الغيظ .

ولكنه لم يسعه غير التظاهر بالسرور والاحتفاء بضيفه القديم .

فابتسم باردليان حين رآه وقال : ما لي أراك غير العينين ، العلك بكيت فرحاً بقدومي .

وأجاب : إني لم أبك يا سيدي على فرط سروري بقدومك ، ولكن احمرار عيني من رائحة البصل ، ورجائي ان تلقى عندنا حسن عادتك لاني لا أنسى فضلك علي .

— كلا أيها الصديق بل إني عابر سبيل وقد جئت لأراك ولأدفع ذلك الدين القديم فقد أصبحت غنياً بفضل الله .

ثم ضرب بيده على منطقته ، فسمع صاحب الفندق رنين الذهب ، وأفعم قلبه سروراً .

وفيما هما على ذلك خرجت صيحة من المطبخ تلاها صيحات وجعل الخدم يركضون ويقولون : السارق السارق .

وقد كان هذا السارق كلب باردليان فانه اختطف دجاجة مقلية وهرب بها إلى غرفة جوار باردليان فبسط يديه فوقها وجعل ينظر إلى القادمين اليه بعينين تتقدان ناراً .

وكان باردليان قد سمع أحد الخدم يقول هذا كلب الشقاليه فوقف عندها

يدافع عن صديق والده فصد الخدم ومنعهم عن الأكل من الطعام قائلاً إني سأدفع ثمن ما سرقه .

فأمرهم صاحب الفندق بالرجوع إلى المطبخ وأخذ الكلب يأكل الدجاجة آمناً مطمئناً بفضل بارتاليان .

ورجع إلى عادته صاحب الفندق وقال : لقد قيل لي ان هذه المائدة معدة لأربعة أشخاص فمن هم هؤلاء الزائرون

– الفيكونت اسبرمونت وثلاثة من أصحابه .

فقال بارتاليان في نفسه : من عسى ان يكون أصحاب هذا الفيكونت لقد بت ميالاً إلى معرفة أحوال هذا الرجل لأنه حاقد علي .

ونظر إلى الغرفة التي كان فيها الكلب ورأى انها خالية لا يوجد فيها غير مائدة واحدة ولها باب رقيق وستائر شفافة ، وقد وضعت مائدة الأربعة أشخاص عند بابها .

وطلب إلى صاحب الفندق ان يأتيه بالطعام إلى تلك الغرفة ريثما يسمع ما يقوله الفيكونت وأصحابه .

وقد سأله ان يأتيه بكل ما لديه من أصناف الطعام جملة كي لا يتمه دخول الخدم عن سماع الحديث .

وانصرف صاحب الفندق مسروراً بما رآه من ثروة بارتاليان آملاً ان يقبض الدين القديم بعد القنوط منه .

ودخل بارتاليان إلى تلك الغرفة الصغيرة فجعل يلاعب كلب ولده وهو ينتظر حضور الطعام .

وبعد هنيهة جاءه الخادم بصينية عليها كثير من أنواع الطعام ووضعها على المائدة وانصرف

وكان « بيبو » قد أكل آخر قطعة من الدجاجة ورمى اليه بارتاليان بقطعة من اللحم ، ثم قام ورتب الستائر بشكل يرى من خلالها ولا يُرى ، ووضع

كرسيه عند الباب كي لا يفوته شيء من الحديث وبدأ الأكل وهو ينتظر قدوم الفيكونت وأصحابه .

وبعد هنيهة أقبل الفيكونت اسبرمونت ومعه اثنان من أصدقائه فجلسوا حول تلك المائدة وقال الفيكونت : ما بال كيرسي لم يحضر بعد .

ولكنه لم يكد يتم جملته حتى رأى رفاقه كيرسي داخلاً من الباب فقالوا : هذا هو .

ودخل كيرسي وهو أحد الزعماء الأربعة الذين كانوا يقودون الشعب يوم حادثة الجسر أي يوم حادثة ملكة الناقار فقال

– إني آت من اللوفر وهذا هو السبب في تأخري .

فأجابه بيزو وهو أحد الندماء وقد كان بديناً شديد السمن : أكنت عند هذا الملك العزيل .

ذلك أنه افرط حتى ، كان يعد مخافة الأجسام من العيوب التي لا تغتفر .

فأجابه كيرسي إني جوهري الملك وصانع أساعته وقد ذهبت اليه ببندقية حديثة الطراز لا بد ان يعم استعمالها .

فقال الفيكونت : وماذا كان يقول الملك ؟

إن الملك ميال بجملته إلى السلم يود ان يتصافح جميع الأعداء ، وان يتعانق الكاثوليكيون والهوكينوت ، ويقسمون إيمان الوفاء والإخاء ، وقد أرسل رسولاً الى كوليني ومندوباً إلى ملكة الناقار لأنه يريد تزويج اخته من ملك الناقار

– حسناً سيرى منا ما لا يخطر له في بال .

فقال كيرسي : ولكن ليس هذا الذي أخافني عن القدوم اليكم في الوقت الحاضر بل ان الذي أخافني أني كنت أنتظر ختام حادثة غريبة لا تصدق وقد وقعت في وسط قاعة الملك .

فصاح الجميع قائلين : إنه انا الحادثة .

وقال الفيكونت : عجل يا كيرسي بروايتها لاني أريد ان القي ابرك تعليمات من المارشال .

– وان المارشال كان له دخل في هذه الحادثة .

– ربما ، لانهم دعوه الى اللوفر من قبل الملك .

– ولكن أعلمت لماذا دعاه الملك . إنه أراد مصالحة الاخوان والتوفيق بينهما لانه لم يعد يتحدث إلا بالسلم .

ولكن المارشال هنري أبى المسالمة كما يظهر وقد كنت واقفاً على الباب فلم أسمع كل الحديث .

وفيما أنا على ذلك ، أقبلت الملكة كاترين تريد الدخول إلى الملك ، فقال لها الدوق دالنجو : إن الملك يقابل موغورانسي مقابلة خاصة .

فهزت الملكة كتفيها وابتسمت ثم دخلت إلى قاعة الملك وقد تركت بابها مفتوحاً .

فدنونا كلنا الدوق دالنجو والدوق دي كيز وسانت ماجرين وكاليس ومورفر وانسي وحراسه .

ورأينا ان الملكة ، قبل ان يعترضها الملك بدخولها ، أشارت بيدها إلى فتى كان قادماً مع موغورانسي ، واتجهت به نحو أحاديث ابنها الدوق دالنجو .

فاصفر وجه الملك من الغضب وأمر بالقاء القبض على باردالیان .

ووقف الفيكونت اسبرمونت وقال كيف تقول باردالیان ؟

وكان باردالیان الأكبر يسمع الحديث من الغرفة فهلع قلبه خوفاً على ولده ، واقترب من الباب كي لا تفوته كلمة من الحديث .

فقال كيرسي إني سمعتهم يدعون هذا الشاب باردالیان .

– ولكن باردالیان كهل أعرفه حق المعرفة وسنتبارز .

– كلا بل هو فتى وقد رأيته بعمية المارشال موغورانسي .

– لقد أخطأت عينا وهو بعمية هنري لا فرانسوا .

– إني رأيته بعيني رأسه في مقتبل الشباب ...

على ان ذلك يدل انه يوجد اثنان يدعيان بهذا الاسم أنت عرفت أحدهما وأنا رأيت الآخر .

وإني لم أعرفه اليوم ، بل من يوم حادثة الجسر ، وهو الذي أنقذ ملكة النافار .

والخلاصة انه حين أصدر أمره الملك بالقبض على هذا الفتى هجم الجميع عليه ، وفي مقدمتهم كاليس فضربه باردالیان بحسامه ضربة أطارت قبعته وجرحت رأسه .

ثم وثب من النافذة إلى النهر وثوب النمر فأطلق مورفر عليه الرصاص فاخطأه وتوارى عن الأبصار .

وعندما خرج انسي بحراسه ومورفر بإعوانه فذهب كل من جهة للبحث عن هذا الشيطان المريد ولا بد لهم من القبض عليه .

ولما بلغ كيرسي بحكايته إلى هذا الحد فتح باب الغرفة بعنف وخرج منه باردالیان مغضباً قائلاً .

ووقف الأربعة مندهشين ، ولكن باردالیان ابتسم لهم وقال بلطف وأدب : أرجو ان تسمحوا لي بالمرور لاني مستعجل .

وكانت مائدة هؤلاء الأربعة عند مدخل الباب بحيث لا يستطيع المرور إلا إذا قام أحدهم وأزاح كرسيه .

فقال له الفيكونت بلهجة التهدل : باردالیان .

وجعل الأربعة ينظرون اليه باندهال .

فأكبر باردالیان هذا الايطاء وقال لهم : إفسحوا لي مكاناً للمرور : ألم أقل لكم إني مستعجل .

فابتسم الفيكونت ابتسامة احتقار ولم يجب ، وباقي الأربعة في مواضعهم فلم يبق في قوس باردالیان مزاج للصبر فرفس المائدة برجله فانقلبت وتكسر ما عليها من الصحون والقناني .

ووثب الفيكونت عند ذلك ، وامتشق حسامه ، وهو يكاد يتميز من الغيظ ، وقال له : إنك أهنتنا إهانة لا يسعني الصبر عليها مهما كنت مستعجلا .

فأجاب باردالیان : إعذر نفسك يا فيكونت لأن حسامي ينفذ إلى القلوب حين العجلة ، وقد قلت لك إني مستعجل ، فتؤجل هذه المبارزة إلى حين آخر .

- كلا ، بل الآن فإما أن تجرد حسامك ، أو أهجم عليك قبل تجريده .

- أرى إنك لست من أهل الظرف والكياسة يا فيكونت . وأنت أدرى فليكن ما تريد

ثم حرق بأسنانه وقال : ولكنك ستكون من النادمين .

وطفق كل من الخصمين على خصمه واحتدم القتال بينهما بينما كان الخدم وأهل الفندق يصيحون مستغيثين .

وقد أصاب الفيكونت باردالیان في يده اليسرى إصابة في يده فجرحه وكاد السيف يسقط من يده .

فتقل باردالیان الحسام من اليد اليمنى إلى اليسرى ، ثم صاح بخصمه صيحة هائلة وحمل عليه حملة شواء .

ولم يزل يدفعه حتى الصقه بالجدار وطعنه طعنة نجلاء أصابت كتفه فاخترقة ومال دم الفيكونت كأفواء القرب .

وقد حدث كل ذلك بسرعة غريبة ولما رأى باردالیان ان خصمه بات عاجزاً عن القتال خرج من الفندق دون ان يفوه بكلمة ، ويمل يعدو عدواً سريعاً

وقد نحى كلب ابنه .

ولكنه لم يتعمد ماتى خطوة حتى التفت ورأى الكلب يتبعه مسرعاً ويقفو خطواته .

وواصل باردالیان سيره السريع والكلب يتبعه حتى وصل إلى الحارة التي راعد ابنه على القاء فيها .

وكان أشد الناس استياء من هذه الحادثة صاحب الفندق لانه كان يعلل نفسه بقبض دينه من باردالیان فذهبت آماله أدراج الرياح .

أما هذه الحارة التي ذهب اليها فقد كانت تتولاها إمرأة عرفها باردالیان الأكبر منذ عهد بعيد .

وكانت بارعة الجمال إلى أن شوه الجدري وجهها فجمعت ما كانت قد اقتصدته في أيام دولة جمالها واشترت تلك الحارة .

والفرق بين هذه الحارة وفندق دفينسير ان الفندق كان يأكل فيه كبار القوم من الكونتية والباروناة ، والحارة يشرب فيها المتشردون وقطاع الطرق .

وكانت صاحبة الحارة واسمها كاتي ، يحبها جميع زبائنها حباً مفرطاً لشدة رأفتها بهم وحمايتهم .

فقد كان أسعد أيامها يوم تستطيع حماية لص أو متشرد من ملاحقة الجند .

ولما دخل باردالیان الأكبر الى هذه الحارة ذهبت كاتي للدم الذي فاز بسيل من يده واسرعت وأحضرت له مرهماً خاصاً للجروح ونظفت جرحه وعصبته بالرهم ثم ضمدت يده

فشكرها باردالیان وسألها عن ولده فقالت له : إنه لم يوم تركته إلى الساعة التاسعة من الصباح فخرج ولم يعد إلى الآن .

ولكنها قبل ان تتم جملتها نبح « بيير » نباحاً قوياً فالتفت باردالیان

ورأى ولده آتياً وهو يلهث من شدة الركض فدخل الى الحارة ولما رآه قال : إحذر إنهم يلاحقونني .

* * *

ولنعد الآن إلى الشفاليه باردالبان ، فإنه حين ترك اللوفر ، على مسا وصفناه ، ودخل في المنعطف بعد أن اجتاز النهر ، التفت وراءه ولم يجد أحداً يتبعه فسار مسرعاً إلى قصر فرنسوا مونمورانسي ، وأقام ينتظر فيه .

وبعد نصف ساعة أقبل المارشال عائداً من اللوفر ، ولما رأى باردالبان عجل إلى صدره وقال له : إن ذكاءك يا شفاليه قد أنقذ حياتي وحياة سواي .

فابتسم باردالبان وقال : لا أعلم عن أية حادثة تتكلم يا سيدي لقد نصبت انه يوجد منزل في شارع بينيسي يجتمعون به في الليل .

— يسرني أيها الصديق ان أراك جامعاً بين المروءة والشهامة والكرم ولكن قل لي لماذا اتهمتك الملكة كاترين هذه التهمة ؟

— إن جلالتها ناقمة علي أشد النقمة لأني أبيت ان أقتل بأمرها صديقاً لي وهو صديق تعرفه فانه الكونت دي ماريبلياك .

وأما الدوق دانجو لقد أهنته حقيقة وكان ذلك لأني لقيته ليلة يحوم حول منزل الرأتين حين كانتا تقيمان في شارع سانت دنيس .

فاصفر وجه المارشال وقال : أتظن إذاً ان أخا الملك ..

— لقد قلت لك يا سيدي انه كان أول من خطر لي ان أتهمه باختطاف السيدتين الاسبانيتين اللتين نبحث عنهما .

ووضع المارشال يده فوق جبينه مفكراً ثم قال :

— كلا ، لا يمكن ان يكون الدوق دانجو المختطف قبل هذه الدلالة لا تصدر إلا من أخي .

وقد أخذ يده باردالبان بين يديه ، وضغط عليها ، إشارة إلى امتنانه وقال :

— إذاً لقد عرضت نفسك إلى أشد الأخطار في سبيل الدفاع عنها ، فكيف أشكرك .

— لقد قلت لك يا سيدي ، إني أردت بذلك ان أصلح ما أفسده أني من قبل .

— إنك متجرح بارديس بلا ريب .

— أنا أجرح بارديس ؟ ولماذا ؟

— لأنهم سيطاردونك ويبحثون عنك حتى يظفروا بك فإذا قبضوا عليك لا يبقى لك رجاء لدى الملك بعد ما حدث .

— إني لا رجاء لي إلا بنفسي ولا أجرح هذه العاصمة ولا أسأل أحد أن يدافع عني .

وقد أشرق وجهه حين قال هذا القول بنور الجرأة والكبرياء .

ثم مضى في حديثه فقال :

— لقد كان الأبطال في العهد القديم يا مولاي لا يبحثون إلا عن ظالم مستبد أو مضطهد قاهر فيحاربونه وكانوا يبحثون عن الظالم الضعيف فينصرونه وأنا أريد ان أقلد هؤلاء الأبطال ، فقد أعجبني مبدأهم وفضلت خطتهم على كل خطة .

إني سأسير الى الامام ، وأنا أعلم إني إذا لم ألق باسلا يقهرني فسألقى قوياً يبلغ مني ما تبلغه القوة من الضعف .

ولكني ، إذا فقدت الحياة ، لا أبالي ، فليس لهذه الحياة قيمة عندي .

فأيقن المارشال ان هذا الفتى يكتم سراً يحزنه وجعل ينظر اليه نظرات تختلف بين الاعجاب والحنو ، وهو منذهل مما يسمعه من كلامه الدال على ثبات وعدم اكتراثه الحياة ، وهو لا يعلم ان هذه القوة لم تكن له إلا من وراء احتقاره الحياة .

وان هذا السأم من العيش لا بد أن يكون ناتجاً من غرام لا رجاء فيه .

أما باردالیان فقد بدأ يعلم ان المسافة بينه وبين لوزا قد اشتد بعدها ، فقال للمارشال كأنه يريد تغيير الحديث :

– أيأذن لي سيدي بسؤاله عما حدث بينه وبين أخيه .

فأجابه فرنسوا بصوت أجش : إن أخي ينكر كل الانكار .

– كيف ينكر وأنا قد رأيت بعيني

– ولكنه حين أنكر لم تكن موجوداً فانتم هذه الفرصة .

فضرب باردالیان جبينه بيده وقال : لقد اخطأت ولم أحسب انه يجسر على الانكار .

– ولم خطر لك هذا الخاطر أكنت بقيت في اللوفر ؟

– بلا ريب ، والآن ارى انه يجب ان نبحث عن طريقة لتكره القصر على التسليم ، فهل خطر لك شيء .

– نعم قد خطر لي أن أذهب إلى قصر مسيح ، فقد امهلت أخي ثلاثة أيام للتفكير ، ثم اذهب اليه فاما اقتله او يقتلني .

وقد قال هذا القول بلهجة استدل منها باردالیان انه لا يريد قوة في الوجوه تحيله عن فكره ، فسكت ولم يجب .

أما فرنسوا فانه عاد الى الحديث فقال : لنبحث الآن بشأنك يا شاتليه ، فاعلم انك ضيفي ولا تبرح هذا القصر حتى يزول الخطر عنك .

فأجابه باردالیان قائلاً :

– أسألك المعذرة يا مولاي فقد سبق وقبلت ضيافة سواك .

– لقد اخطأت .

– ولكن صاحب الضيافة عزيز حبيب لا يمكن رفض طلبه .

وكان باردالیان يفتكر بأبيه ، ولكن المارشال حسب ان له علة يريد ان يلجأ اليها ، فما الح عليه ، بل قال له : كيف اراك إذا احتجت اليك ، فاني لا اكتمك انك الصديق الوحيد الذي أراد ان اتمتع في هذه المهمة

– سأحضر يا سيدي اليك كل يوم أو ارسل رجلاً ، لي به ملء الثقة وإذا لم استطع الحضور او ارسال سواي فاني مقيم في فندق كاني .

وقد دله على الحارة التي كان فيها مع أبيه ثم ودعه وانصرف .

* * *

ولما بات خارج القصر جعل يسير الهوينا حسب عادته لاعتقاده انه إذا ركض وأسرع استلفت الأنظار .

وكان يسير وهو مطرق الرأس مفكر ، لا يلوي على شيء وقد جعل وجهته تلك الحارة التي واعد أباه على اللقاء فيها فلم ير مورفر عدوه الذي كان يتعقبه .

وكان مورفر قد رآه اتفاقاً ، فما جسر أن يقبض عليه ، ولكنه سار في أثره إلى أن وجد جندياً في الطريق فكلمه سراً وسار الجندي معه .

ثم مشى أيضاً فرأى جندياً آخر فضمه اليه ، وكان كلما سار في شارع دعا من وجده فيه من الجنود إلى الانضمام اليه .

كل ذلك وباردالیان سائر أمامهم لا يعلم شيئاً من أمرهم لانهماكه في التفكير حتى دنا من الحارة وسمع وقع خطوات كثيرة وراءه ، فالتفت ورأى مورفر زاحفاً اليه في طليعة عدد كبير من الجنود .

وصاح به مورفر قائلاً : قف !

وقال له ضابط بين الجنود : قف باسم الملك .

ورأى باردالیان أن لا يدخل إلى الفندق كي لا يراه ، وارتأى أن يمر في الغرار ثم يرجع إلى الحارة بعد أن يتوارى عن أنظارهم

ولكنه حين هم أن يركض إلى الأمام رأى مورتيجرون ، وهو رفيق مورفر قادماً أيضاً مع بعض الجند .

وأيقن أنه أصبح بين نارين ، واستل سيفه محاولاً ان يفتح له سبيلاً بين الجند بالهجوم عليهم .

ولكنه رأى في تلك اللحظة كلبه بيبو قد خرج من الحارة وحمل بنبح حين رآه ، فعلم ان أباه قد اتى به وانه في الحارة ، فدخل اليها وقال لأبيه إنهم يطاردونني ، كما تقدم .

فوثب باردالیان الأكبر الى الباب ونظر نظرة سريعة ، إلى اليمين والشمال ، ورأى الجند من الجهتين ، والناس تتبعهم من كل جهة حتى غصت بهم الطرقات .

فأحكم إقفال الباب ووضع فيه الزلاج الحديدي .

ولم يكد يفرغ من إقفاله حتى أقبل الجند يطرقونه ويصيحون قائلين : إفتحوا باسم الملك .

فقال باردالیان لابنه : هلم نحصن الباب .

وجعل الاثنان يضمان الكراسي والموائد وراء الباب ، تعينهم صاحبة الحارة .

وقد اشتد الطرق على الباب وسمع باردالیان صوت مورفر يقول : لقد ظفرنا به ..

وقال باردالیان الأكبر : انهم لا يستطيعون الدخول قبل ساعة .

وقال ابنه : ان ساعة كافية لإحراق باريس .

والتفت باردالیان الأكبر الى كاتي وقال لها : أأنت معنا أو علينا

يا كاتي ؟

قالت : اني معكم ، ومتى كنت مع الجند .

ونظر الى ولده فرآه مطرقاً حائراً فقال له : ماذا أصابك ؟

— ان حديثي يطول وسأخبرك به في غير هذا المقام .

— بل اخبرني به الان ، فلا يستطيع الجنود كسر الباب قبل ساعة .

ثم أمر كاتي أن تحضر لها كأسين من الخمر ، فامتثلت وقال باردالیان لابنه تكلم يا بني فان الوقت فسيح .

فأخبره باردالیان بكل ما جرى له وهما يشربان الخمر بينما كان الكلب يطبق القضاء بنباحه والجند يكسرون الباب .

ولما فرغ من حديثه قال له أبوه : لقد نصحتك فما انتصحت وليس الان مقام اللوم .

ثم قال لكاتي : الديك زيت في المنزل ؟

— عندي خمس جرار .

— أيوجد مستوقد في الدور الأعلى ؟

— نعم .

— والزيت أين يوجد ؟

— في القبو .

— اذاً اصعدي الى الدور الأول واوقدي في المستوقد ناراً كثيرة .

فأخذت كاتي ما تحتاج اليه من الوقيد وصعدت .

وذهب باردالیان وابنه الى القبو فأخذوا حملة كبيرة وجرار الزيت وقلوها الى الدور الأعلى حيث كانت كاتي توقد النار .

وكان يصعد الى ذلك الدور سلم ضعيف من الخشب فقال باردالیان لكاتي وقد صبت الزيت في الحلة ووضعتها على النار .

— اني سأحطم هذا السلم يا كاتي وسأعوض عليك .

– افعل ما تشاء واست بحاجة الى التحريض .

ورجع باردالیان الى الفرن فجاء بازميل ومطرقة فحطم السلم القديم تحطيما وجاء مع ولده وكاتي بزقين الزيت وهو يغلي في الحلة .

وكان الجنود يحطمون الباب في خلال ذلك ، فلم يكد باردالیان يحطم السلم حتى كسر الجند الباب ودخلوا الى الحارة أفواجاً .

وقد ذعروا حين رأوا السلم محطماً ، ولا سبيل الى الصعود

فأجابهم باردالیان يضحك شديد وقال لقد حاصرنا قبل الآن وتعلمنا فنون الحصار .

ثم التفت الى كاتي وقال لها : أغلا الزيت .

– نعم ..

– اذاً سنرد به حدة اولئك المهاجمين .

وأخذ ملعقة كبيرة وجعل يأخذ بها من الزيت المغلي ويلقي به على الجنود فيحرق كل من اصابه .

وكان مورفر اشدهم تحمساً ، فجعل ينادي الناس ويحثهم على احضار سلم ...

وبعد هنيهة جاءوا بسلم فوضعوا اعلاه حيث كان واقفاً باردالیان وابنه وصعد ابسلهم درجات ذلك السلم .

فقهقه باردالیان ضاحكاً وقال : لقد عرضتم نفسكم لخطف جديد .

ثم نادى ولده وطلب اليه ان يساعده في حمل السلم ، فحملاه عن كان عليه من الرجال نحو متر ، ثم القياه بعيداً ، فسقط من كان عليه بعضهم فوق بعض .

واسرع باردالیان الى اناء الزيت المغلي وجعل يشوي به اجسام اولئك المهاجمين .

وبقي مورفر وموتجيرون صابرين الى ان اصابهما رشاش الزيت والتهبت

جسميهما

فصاح مورفر مغضباً انكما تريدان حرق أجسامنا فلتموتا بالحريق فهو بعض ما تستحقان .

ثم امر رجاله ان يضرموا النار في تلك الحارة ، فأضرموا فيها النار وخرجوا جميعهم ، ووقفوا عند باب الحارة ينتظرون الى ان تقعد بمن فيها رماداً .

ولما رأى باردالیان لهيب النار كاد يذوب حنواً على ابنه وايقن انه لا مفر من الموت ، اذ لا سبيل الى الفرار ، فاما الموت من سيوف الجنود واما الموت بالنار .

ولكن باردالیان الأصغر لم ييأس من بأس ابيه .

ونظر الى الجدار الفاصل بين الحارة والبيت المجاور وسأل كاتي قائلاً : ما وراء هذا الجدار

– محل بائع طيور .

– واين موقع المحل .

– ان له بابين ، أحدهما يشرف على الشارع العام ، والآخر على حديقة منعزلة لمنزل مجاور .

فقال لأبيه : ارى يا ابي ان سبيل الفرار ميسور قبل ان تلتهمنا النار .

– كيف ذلك .

– ذلك ان نخرق هذا الجدار بالازميل الذي لدينا ، فنفتح به منفذاً ونفر ويحسب الجنود اننا بقينا فريسة النار .

– انه رأي صائب ، ولكني اخشى ان يكون صاحب الدكان في دكانه ، فاذا كان فيها سمع طرق الأزميل .

فقالت كاتي انه جعل الدكان مستودعاً للطير ، فهو لا يأتي اليه إلا في القليل النادر .

وكانت واقفة عند النافذة المطلة على الشارع ، فرأت رجلاً بين الجنود يمشي وينتحب ، فقالت : لا أخوف طبعاً من صاحب الدكان ، فانه واقف يلطم وينوح خوفاً من اتصال النار بدكانه .

فقال باردالیان : اذاً لنبدأ العمل .

فأخذ الأب وابنه يتقبان الحائط . بينما كان مورفر ينظر الى النار تلتهم الحارة وهن فيها وهو فرح مسرور .

ولبث واقفاً مع رفاقه حتى التهبت الحارة بجملتها واتصلت النار بالمنازل المجاورة ، فلم يتمكن الناس من اطفائها الا بعد الجهد الشديد .

وعند ذلك ، رجع مع مونتيجرون الى الوفر ، والتقا مضمناً لوت باردالیان .

ولما وصلا اليه ذهب مورفر الى الملكة كاترين وقال لها : لقد انتقمت لجلالتك وقتلت هذا الباردالیان ، كما تقتل الفأرة في الفخ فأحرقته في الحارة التي لجأ اليها .

فقالت له الملكة : يورك فيك يا مورفر ، وسأذكرك باخير امام الملك .

واجابها مورفر : لقد غمرتيني يا مولاتي بإحسانك ، غير اني لم أعتم لقتل هذا الوقح فاني كنت قادراً على قتله لأول مرة القاه ، ولكن الذي سرني ما رأيته من ابتهاج الناس ، حين قلت لهم ، انني أحرق قوماً من الهوكينوت الضالين .

فابتسمت الملكة وقالت له : اسكت . الا تعلم اننا آخذون بهذه الصلح ؟

وأما مونتيجرون فانه ذهب أيضاً الى الدوق داجو وقال له : ابشر مولاي بالانتقام له من ذلك الجلف ، فقد أحرقناه في قبو الحبساة مع بعض اللصوص أمثاله الذين أرادوا الدفاع عنه .

واجابه الدوق وهو يفتل شاربيه وينظر إلى المرآة مختالاً : لقد أحسنت يا مونتيجرون ، وما وعدت أن اكون ملكاً لأحسن مكافأة أمثالك من الفاسقين الأوفياء .

٦

كيف ان باردالیان

خالف ايضاً وصية ابيه

بينما كان مورفر يهنىء الملكة كاترين بقتل باردالیان ، ومونتيجرون يهنىء الدوق داجو بموت هذا البطل الذي أرهب الملوك ، ولم يرهبهم حادثة لابد من ذكرها في هذا المقام .

وأول هذه الحادثة ان باردالیان الأكبر وابنه لم يقتلا كاتوم أعداؤهما ، بل انهما سلما من ذلك الموت والموت خزيان ينظر ، واليك البيان .

انه حين شبت النار الهائلة بتلك الأخشاب القديمة الجافة تصاعد دخانها الى المكان الذي فيه باردالیان وابنه وتليد إذ لم يجد فيه منفذاً حتى أيقنا انهما إذا لم تقتلهما النار ماتا بالاختناق .

وكان باردالیان الأصغر يشتغل بثقب الحائط منذ خمس دقائق حتى سأل عرفه ، فأخذ أبوه الازميل والمطرقة من يده وتولى عنه العمل .

وبعد هنيهة فتح ثقب صغير في الجدار ، وجعل الأب والابن وكاني

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

يتزعون الحجارة بأيديهم .. حتى السبع الثعب ، وبات كافيـــا لمرور إنسان منه .

وأطل باردالميان من الثقب فرأى ان بين موقفه وبين أرض الدكان غير أربعة أمتار .

ولكنه رأى فوق تلك الأرض أكياساً مرصوفة بعضها فوق بعض ، فـ شكك أنها أكياس حبوب لغذاء الطير .

وعند ذلك أمر كاني أن تبـدأ بالنزول ، فخرجت من ذلك الثقب ، وأمسك باردالميان يديها فتدلت ، ثم تركها فوقعت على الأكياس دون أن تصاب بأذى .

وفعل الأب والابن فعلها ، ولما اصبحوا في الدكان قال باردالميان لكاني : أين الباب للاشراف على الحديقة .

فدلته عليه فاستعان بابنه وكسره وخرج الجميع إلى الحديقـة الشاسعة وهم يتنفسون بملء رئاتهم ويتنشقون من الهواء النقي .

وعندها قالت لهما كاني : انهرب الآن من باب الحديقة الكبير فانها حديقة عمومية يدخل اليها من يشاء .

فقال لها باردالميان الأكبر : نحن نفر وأنت تبقين ، فما في بقائك في هذا الحي من بأس .

فتنهدت كاني وقالت أية فائدة من البقاء فيه بعد هذا الخراب .

فمك باردالميان منطقته وأفرغ ما فيها من المال بين يديها وهو يقول خذي فانك تقتشين بهذا المال خارة بدلاً من خارتك التي احترقت ، فقد نص الشرع والعدل أن متلف الشيء غارمه .. وقد كنت السبب في خرابك وتعريضك للأخطار . أفلا أعوضك عن تلك الخسارة ، إذا كنت غير قادر على مكافئتك عن الأخطار .

فأدمعت عينا كاني وقالت : ما أجمل الكرم عند من يعرفون أن يضعوه في

مواضعه ويجزوا الاحسان بالاحسان .

وقد رأيتك تبذل لي آخر فلس في منطقتك وأنت أشد مني عوزاً إلى المال ، ووالله اني لو خدمت اضعاف ما خدمتك به رجلا من الأغنياء الذين يتنصبون أثقاب النبل ، ويسرقون الوجاهة من بلاهة الناس ، لما عوضت عن خرابي في سبيلك غير الحرمان ، ولا ذكرت من آيات فضله غير تقويض ذلك البنيان .

ورحم الله الفقير ، فهو مهبط الرفق ، وهو الانسان البصير بإيلاء أخيه الأنسان .

ثم ردت المال إلى باردالميان وقالت : اني لا آخذ منه ديناراً فانت احوج اليه مني وانت في موقفك هذا .

– بل أنت مخطئة في رد المال فاني جواب الفاق لا أحفل بالذهب ولا بعدم المبيت قريبة حيناً ذهب .

– إذاً انتقلم ، فان بعض هذا المال يكفيني لانشاء خارة بدلاً من التي تقوضت

– وأنا لا أسترد منه ديناراً ، فما شعرت بلذة تعادل لذة الفقر .

وما زال بها حتى حملها على قبول المبلغ بحملته .

وعند ذلك ودعاها وخرجا من تلك الحديقة آمنين يسيران الهوينـاء كأنهما يتنزهان .

* * *

وكان كل منهما متأبطاً ذراع الآخر وهما يتحادثان فقال باردالميان لولده :

ما الذي دفعك إلى هذه الغارة ؟

– أية غارة تعني يا أبي ألعلها الخارة .

– كلا بل الوقر ، ولكن ما مضى فات ولا فائدة الآن من اللوم ، فما

تقول ببارحة باريس ..

انا منذ عهد بعيد لم انتزه معاً في طرقات فرنسا الكبيرى لا سيما ونحن الان في زمن الربيع الساحر. الا ترى رأيي يا بني في هذا الرحيل .

وكانا يسيران في شارع سانت انطوان وهما لا يحاولان السفر لا سيما وان كثرة مرور الناس في الشارع حولت عنهما الأنظار .

فأجاب باردالبان أباه قائلاً . كلا يا أبي .. إذ يستحيل علي مبارحة باريس الآن .

فخاطب الأب صاحبه وقال . كيف تقول مستحيل يا بني ، ألعلك تريد أن تموت شنقاً بعد أن نجونا من الموت حرقاً .

– كلا يا أبي ، فاني أتوسل اليك أن تسافر ، أما أنا فيجب ان أبقى ..

ولكن ماذا اسمع ، ماذا يحدث في هذا الشارع ، ألا تسمع صراخ امرأة تستغيث ، هلم يا أبي لنجدتها ، أسرع .

ثم ترك ابوه وأسرع إلى مصدر الصوت .

ولكن أباه قبض عليه بيد من حديد وقال له بلهجة امتزج فيها الحزن والحنو والاعجاب .

– إلى أين تذهب أيضاً يا بني ، ألا تحفل ساعة بنصائح أبيك ، ألم تحسب تلك التجارب التي علمتني إياها الأيام سدى . ألم أعلمك أن تحذر الرجال وتحذر النساء وتحذر قلبك .

فأجابه قائلاً :

– اني رأيت من الرجال ما دعاني إلى احتقار معظمهم وأنا أخاف النساء ، أما قلبي فاني اعنه لعن العدو لأنه من أشد اعدائي .

وأنت ترى يا أبي اني عامل وصاياك ، وفوق هذا فان احترامي إياك يضطرني إلى ..

وقبل أن يتم جملته أفلت من أبيه بعنف وهرول راكضاً إلى مصدر الصوت

لارتفاع الصياح .

وقال الأب : أهكذا يعمل بوصيتي ، واقد اني أخشى أن يؤدي به هذا الطيش إلى المشنقة .

والآن .. لم يبق به من خلاقه .

ثم اندفع يعدو في أثر ولده .

* * *

وإليك بيان ما حدث في ذلك الشارع .

كان يوجد في ذاك الشارع دكان لبيع العقاقير والأعشاب المجففة وقد كتب على بابها عنوان ابيوقراط .

ثم ان صاحب هذه الدكان كان قد صنع منذ عهد بعيد تمثالاً من الخشب لهذا الطبيب اليوناني القديم يمثل شيخاً عجوزاً ذا لحية بيضاء .

ولم يمض عهد طويل ، حتى استحال هذا الطبيب إلى قديس في عرف العامة .

وكان صاحب الدكان شديد الخبث ، وقد رأى ما كان من انخداع العامة بذلك ، وزادهم غروراً واعتقاداً بقداسة التمثال طمعاً بزيادة الزبائن .

ولذلك نقش تمثالاً آخر يمثل جملاً وديعاً من الخشب ، وقيده بحبل عتيق الجرد بحبل ووضع الحبل بيد تمثال إبيوقراط وزال كل ريب لدى العامة وذات الطبيب ، قديساً لا شك فيه وهو القديس انطوان .

ثم بالغ هذا الخبيث في الطمع بأموال العامة فوضع بإزاء ذاك القديس صندوقاً لجمع الصدقات .

وكان يرد به المؤمنون فيضع كل منهم في هذا الصندوق على قدر حاله ومن لم يستطع الاحسان من الفقراء ركع أمام التمثال فصلى ما تيسر له من الصلاة والتعزم

إلى أن علم الرهبان بهذا القديس الجديد فوافقوا على قداسته واعتبروا بصندوق الاحسان .

وقد التقى في تلك الساعة التي سمع فيها باردالیان الصوت ان رجلاً مر بهذا التمثال فتأمله هنيهة وانصرف .

واستاء بعض الذين رأوه من المؤمنين وقالوا له : إما أن تدفع الصدقة أو تركع مصلياً أمام هذا القديس أو تكون من الكافرين .

وضحك الرجل وقال . إنكم منخدعون فما هذا تمثال قديس ، بل هو تمثال إبيوقراط أبي الأطباء .

فكبر عليهم ذلك التجديف وهجموا على المسكين يوسعونه ضرباً ويقولون انه من الهوكينوت .. انه من الكافرين .

وأسرع الناس إلى تلبية نداءهم وشاركوهم بضرب هذا الكافر .

وقد مرت في هذه اللحظة مركبة فيها إمرأة فاضطرت الى الوقوف لشدة الزحام .

وأزاحت المرأة ستجف المركبة كي ترى ما يحدث ورأت الناس مزدحمين مجتمعين حول رجل يوسعونه ضرباً وشتماً .

فعرفت ذاك الرجل وصاحت بالناس قائلة : ارجعوا عن هذا الرجل فهو راميس العالم الشهير .

وسمع الرجل صوتها وبذل جهداً عنيفاً كي يصل إلى المركبة .

وعادت المرأة إلى الصياح بالناس ، ولم يخطر لأولئك المتعصبين إلا أن هذه المرأة إنما تدافع عن الرجل لأنها مثله من الهوكينوت .

وقد أيد هذا الفكر عندهم انهم لم يجدوا على مركبتها شارة النبلاء فلم يخشوا غير العاقبة وصاح أشدهم تحمساً .

لنحرق الاثنين بالنار فانهما من أهل البدع ، ولنقدمهما قربانا للقديس انطوان .

فاندفع الناس اندفاع السيل الجارف على المركبة فأيقنت المرأة من الخطر وجعلت تصيح مستغيثة صياح الفاقدين ، والعالم راميس يقربها وهو دامي الوجه ممزق الملابس ، ممسك بالمركبة وليس له رجاء .

وعند ذلك هجم باردالیان على أولئك الناس هجوم الأسد وجعل يفرقهم عن المركبة بيديه ورجليه حتى وصل اليها وجرد حسامه وجعل يطعن به كل من تجاسر على الدنو منها .

ورأت المرأة تلك النجدة التي وردتها فانتحت باب المركبة وأصغت اليها ذاك العالم .

فسمعه راميس وهو يقول : لقد نجونا بفضل هذا الرجل .

ثم أخذت المركبة تسير الهوينا لكثرة الزحام وباردالیان يخفرها وحسامه مشهر بيده .

ولكن الناس لم يرضوا عن هذا الاخذال وخيلوا أن بيدد جمعهم رجل فرد ، وتألب فريق من المتحمسين وانقضوا على المركبة . وعاد باردالیان الى الدفاع والطعن . ولم يكن يسمع غير أصوات المتألمين .

وفيما هو على ذلك سمعت صيحات أخرى من آخر الجموع ورأى باردالیان الناس يرون منذعرين .

ثم رأى بعد ذلك أباه يشق الصفوف وقد التقى الرعب في القلوب وهو يفرق الناس كما يفرق الذئب الخراف .

وبعد هنيهة اجتمع الأب والابن وتوليا حفارة المركبة ، فواصلت سيرها آمنة .

ولما آمنوا الخطر قال باردالیان لوالده : ماذا لقيت من هذه المداخلة وأي شأن لك فيها .

ولم يجب باردالیان وكان يضطرب لأنه رأى المركبة تسير في نفس الطريق التي كانت تسير فيه حنة يوم كان يتبعها ليقول لها انه يحب ابنتها ويزا .

وقد جعل قلبه يخفق خفوقاً شديداً حين وقفت تلك المركبة عند باب المنزل نفسه الذي دخلت اليه منذ .

ولما وقفت المركبة نزل منها راميس والمرأة فقالت له المرأة : ادخل يا سيدي فلا بد لك من الراحة ، واشرب جرعة من ذلك الاكسير الذي أعطيتني اياه .

– لقد زال اضطرابي ويسرني ان أجالسك ساعة .

ثم دخل وبقيت المرأة واقفة عند الباب ، فالتفتت الى باردليان وأبيه ، وقالت لهما بلهجة سيادة حنونة لا تصدق الا من النساء لصدورها من القلب تفضلا يا سيدي وادخلا .

فامتثل الاثنان وتبعا تلك المرأة التي انقذاهما ، وكان أخص أغراض باردليان من الدخول أن يعرف داخل هذا المنزل الذي دخلت اليه أم من يحب .

وبعد أن أقاما هنيهة شربا في خلالها المرطبات قالت لهما تلك المرأة : اني أدعى ماري توشيت فهل تسمحان بذكر اسميكما فأعرف الذين كنت مديناً لهما بالحياة .

فهم باردليان الأصغر ان يتكلم ، ولكن اباه أسرع قبله على رسلة وسبقه الى الكلام فقال :

– اني أدعى يا سيدتي بيسار وأما ضابط قديم في جيش نابليون وهذا الشاب يدعى المسيو دي روشيت .

– اذاً فاعلم يا سيدي بيسار ، ويا سيدي روشيت اني لا أنسى اسميكما ما زلت في قيد الحياة .

فأجابها باردليان الأصغر قائلاً :

– لقد تبين لي سيدتي من صوتك الحنون انك من أهل الرقي والحسب ، واني أهد نفسي سعيداً بما تفضلت به علي وعلى أبي من عبارات المودة .

فدهشت ماري وقالت : أهو أبوك ؟

فأجابها باردليان الأكبر قائلاً : انه يا سيدتي هذا القلب لأني لا افتر عن نصحه بما علمتني اياه التجارب .

وأقام الاثنان عندها هنيهة يتجاذبون الحديث ثم ودعاها وانصرفا .

فجعل باردليان يقول في نفسه : ترى أية علاقة لوالدة لويزا بهذه المرأة !

وكان باردليان الأكبر يقول لولده : ترى اية فائدة لنا من المخاطرة بنفوسنا في سبيل انقاذ رجل وامرأة لا نعرفهما .

ورغم ذلك فقد كدت ترتكب خطأ لا يغتفر بذكر اسمينا فما في حين اننا نبحث عن طريقة للاحتجاب والناس يحسبوننا من الأموات .

فأجابه ولده قائلاً : العجب يا أبي ان هذه المرأة التي انقذنا حياتها تقدم على خيانتنا .. كلا يا ابي ، فإن ملامحها تدل على النبالة والنبل ، وليس فيها ما يدل على الخيانة .

– ولكن الحذر واجب في الموقف الذي نحن فيه ، حتى اني احذر من اخلص الأصدقاء .

ولكن تعال معي الآن اذ يجب أن نبحث عن مكان نختبىء به ما زلت لا نريد الخروج من باريس .

وفي اليوم التالي لهذه الحادثة جاء الملك سراً لزيارة خليلته مساري توشيت حسب عادته في كل يوم .

فحكت له كل ما اتفق لها بالأمس وقالت :

– انك اذا كنت تحبني حقيقة كما تقول فقد وجبت عليك مكافأة الضابط

بريسار ، وذلك الفتى الباسل دي روشيت فإني مدينة لهما بالحياة .

– سيكون ما تريدين أيتها الحبيبة ، وسيرى هاذان الباسلان كيف يكافىء الملك شارل الأبطال وأهل المروءة .

وقد نتج عن زيارة الملك لخليلته ثلاث نتائج :

إحداهـــا ان الملك أصدر أمراً يقضي بالبحث عن السيد بريسار ودي روشيت وأن يأتوه بهما حيين يعلمون مقرهما .

والثاني انه أصدر أمراً يقضي بعدم الركوع والصلاة أمام تماثيل القديسين الموضوعة في الشوارع .

والثالث انه أصدر أمراً يقضي على صاحب محل المقاقير بتغيير عنوان محله أو يقفل .

أما الأمر الأول فلم ينفذ فإنهم بحثوا في جميع باريس فلم يقفوا على أثر الرجلين الذين يريد الملك مكافأتهما .

وأما الأمر الثاني فقد أفاد فائدة عظيمة وأحدث ما يشبه الثورة لاعتراض رجال الدين عليه .

ولكنه أسفر عن الفوز وكان الفضل في ذلك عائداً على باردالیان بمخالفته وصية أبيه .

وحدة فلسطين
منتدى البيلاسان

– ٧ –

الملجـــأ

خرج الأب والابن من منزل خليلة الملك وسارا توأ إلى نهر السين وجعلا يمشيان على ضفافه ويتحدثان .

وما زالا يسيران حتى وصلا إلى حارة فيها الطعام والشراب .

فهاجت شهية باردالیان الأصغر للطعام وقال : إني جائع يا أبي فهل ندخل إلى هذه الحارة ونأكل فيها .

– وأنا جائع أيضاً فلندخل ..

فمشى الاثنان إلى الحارة ولكنهما قبل أن يدخلا وقف باردالیان الأكبر وقال : اني أعطيت كل ما لدي لذاك الفتى فهل لديك ما تدفعه ثمن الطعام ؟

فتلمس باردالیان جيوبه وقال : كلا ..

وظهرت علائم الندم على الأب وقال : لقد أخطأت باعطائي كل ما أملكه لهذه المرأة .

– بل أحسنت كل الاحسان يا أبي فإنها أنقذتنا من الموت .

فتنهد الأب وقال : لا أنكر ما تقول يا بني ، ولكن إذا قتلنا الجوع لا نكون قد انقذت شيئاً يذكر .

ثم ابتعد الاثنـــان عن الحارة حزينين آسفين ، وجعلا يسيران متبعين مجرى النهر .

وفيما هما على ذلك سمعا صوتاً يشبه الأنين من ورائهما ثم شعرا بجسم قد اندفع بين أرجلهما

والتفت باردالیان فرأى كلب بيبو ورأى في فمه فخذاً كبيراً من اللحم الشديد (الجانبون) .

وكان هذا الكلب الأمين قد تبع سيده من الحارة التي احترقت إلى شارع سانت أنطوان فأبلى في تلك المعركة بلاء حسناً .

ثم تبع صاحبه حتى رآه دخل إلى منزل ماري لوشيت فليث ينتظره عند الباب حتى خرج فتبعه .

وفيما هو يتبعه شعر بالجوع وكان من مشاهير اللصوص كما تقدم .

وجعل يسير ماراً بالدكاكين فيشم رائحة ما فيها

إلى أن مر بدكان بائع لحوم مقددة فقال في نفسه : لقد ظفرت بأمنيتي ، وذهب إلى ذلك الدكان

وجثم عند بابها وتكلف هيئة الخضوع والسلامة حتى خدع صاحبها به وبظواهر سلامته فلم يطرده .

واغتنم بيبو دخول صاحب الدكان الى محله فاختطف فخذاً كاملاً من اللحم وأطلق رجليه للريح يتبع صاحبه حتى خلفه كما وصفناه .

فلما رآه باردالیان الأكبر ورأى الفخذ في فمه انقض عليه وسلبه إياه وهو يقول : لقد أطعمتك دجاجة في هذا الصباح فلا بدع إذا استعضتها بفخذ .

ثم قال لولده : هوذا عشاؤنا الليلة فلنأكل .

أما الشقاليبه فإنه ضرب كلبه وقال له : لقد طالما منعتك عن السرقة فلم تنتبه ، ولولا جوعي لما غفرت لك اليوم هذا الذنب .

فلف بيبو ذنبه إشارة على انه لا يعود إلى السرقة بعد الآن ، وجلس مع صاحبه على الرمل .

فأخرج عند ذلك باردالیان الأكبر خنجره وقطع الفخذ ثلاثة اقسام ،

فأكل كل حصته وشربوا من ماء النهر .

ولما فرغوا من الطعام قال الأب لولده : لقد تعشينا الليلة من فضل بيبو وبقي علينا ان ندام ، فأين نجد مبيتنا .

فأطرق ولده برأسه مفكراً وقال : نعم .

ثم راه بهامه التفكير ، فكان يقول في نفسه : لا شك ان اسرة باردالیان من الأسرات الفنية النبيلة ، ولكنني وصلت إلى ابعد درجات الشقاء .

رأى شقاء ابلغ من ان ابحث عن مبيت لأيام وان اشاطر كلبي غشاء السرقة ، وان أكون خالي الوفاض مادي الانفاض ، ثم اهيم بابنة أعظم غني نبيل في فرنسا ، أليس ذلك من الضحكات البكيات .

وكان ابوه ينظر اليه وكأنه قد علم بما يفتكر فقال له :

تشجع يا بني ولا تدع الحزن يعبث بك . صبراً يا بني فليس الفقر معيباً ، ولا تحسبن الإخاء خيراً من الشقاء ، فقد طالما كرهت تلك الكلاب كلاب القصور تقيد بالسلاسل وتأكل الطعام المريء ، وكنت اميل إلى الثعلب فانه يغلب بكره الرجل الشديد ، وذلك الذئب يطوف الغابات في ظلام الليل ، ويبحث عن الفريسة بطرات تنقد ناراً .

إني احب عيش الذئب والثعلب ، ومتى كان سيفي يحماني احسب نفسي مسادساً لملك

بل إني عشت خمسين عاماً عيش شقاء ، عرفت في خلالها من أمور الحياة ما لا يعرفه المترفيون في خمسين جيلاً .

وما هي الحياة يا بني ، إنها الهواء تتنشقه والطبيعة تتمتع بجمالها والحرية تجني ثمارها وما بقي من ملاذها لا يناله المرء إلا إذا إراه ان يتقيد بقيود الناس كما تقيد تلك الكلاب في القصور .

بل لا ينالها الإذا عاش رقاً مستعبداً ، وما هو بعائش بل هو يموت في كل دقيقة من دقائق امره ولا يعلم .

تعال معي يا بني ولنقتد بالذئب والثعلب ، ولنسر في تلك الطرقات

الرحيبة التي تقترشها شمس الربيع ببساط من العشب فتتحدث وتضحك ، بل تبكي إذا شئت وتطوف الأرض بأسرها فلا تستقر في وطن .

فلم يجب باردالیان أباه إلا برأسه ، فأشار له إشارة سلبية ، وعاد إلى التفكير وقال له :

ألا تريد ان تتبعني .

ـ بل إني أوثر الموت على مبارحة باريس .

ـ إذاً لنعد إلى مسألتنا الأولى وليحث عن مبيت .

ـ أظن يا أبي إني وجدت مبيتاً .

ـ أين ذلك المنزل تعرف في هـذه الجهات شجرة متشعبة الأغصان وارفة الظل .

ـ كلا ، بل اعرف قصر موفورانسي فان هـذا المارشال النبيل عرض علي ان أكون ضيفه إلى ان يزول الخطر ، فهلم يا أبي نذهب اليه يستقبلنا على السرور .

ـ الملك نسيت يا ابني إني اختطفت ابنته ، وإني كنت السبب في جميع نكباته فكيف يسره ان يراني .

ـ انت مخدوع يا ابني ، فقد كان حاقداً عليك من قبل ، ولكن هذا الحقد بات اليوم نسياً منسياً .

ـ إني لا الق بذلك ، فإني خبير بأحوال القلوب ، أما وقد وجدت انت محلاً تبيت فيه آمناً فقد اطمأنيت عليك .

ـ وانت أين تبيت يا أبي فاني لا افارقك قبل ان اطمئن عليك .

ـ لا تخف علي يا بني فقد وجدت مبيتي كما وجدت انت مبيتك .

ـ أين ؟

ـ في قصر هنري موفورانسي . هلم بنـا يا بني فاني أرافقك إلى قصر فرنسوا ، ثم أذهب إلى قصر أخيه ، فاذا علمت شيئاً عن الأسيرتين

لحيرتك في الحال .

وبعد ان اتفق الاثنان على ما تقدم ذهبا معاً إلى قصر موفورانسي ، وهما يحذران كل الحذر لقرب ذلك القصر من اللوفر .

حتى إذا وصلا اليه وحاولا الافتراق قال باردالیان لأبيه .

ذلك يا أبي احضرت لي كلبي من فندق «فيليبير» ولا يزال لي صديق فيه .

ـ العلم كلب آخر .

ـ كلا ، بل هو جواد .

ـ إذاً نحن من الاغنياء فان الجواد يكلفنا ثمنه شهراً إذا كان كريماً .

ـ أنه من خير الجياد ، ولكن احذر ان تبيعه .

ـ لماذا ؟

فابتسم باردالیان وقال : لأنه يدعى كاليور .

ـ كاليور . ما هـذا الاسم . اذكر أني سمعته ولكن أين . نعم نعم لقد ذكرت فان هنري دي موفورانسي اخبرني حكاية اتفقت له ، وان رجلاً انقذه من الغوص فاهداه هذا الجواد .. أأنت انقذته يا بني ؟

ـ نعم .

ـ وكيف لم ترو لي هذه الحادثة فيما رويته لي من حوادثك .

ـ لأني تعرضت فيها لما لا يعنيني وذلك مخالف لوصاياك .

ـ اني لا ابيعه دون ريب ، فقد يكون لنا منه ثروة .

وعند ذلك افترقا فذهب الأب إلى قصر هنري ودخل الولد إلى قصر فرنسوا يتبعه بيبو .

فدخلوه في الحال إلى المارشال فقال له : ان الرجل الذي كنت عازماً على الاقامة عنده غير موجود في باريس .

فلم يجبه المارشال ، ولكنه أخذ بيده وسار به إلى غرفة من أجمل غرف القصر فدخل به اليها وقال له :

أعلم أيها الشعاليبه انه اتفق ليلة ان الملك هنري الثاني والد ملكنا الحالي زار ليلة أبي أمير الجيوش في هذا القصر .

وقد طال حديثهما عن السياسة والحروب إلى قرب الفجر ، فما أحب الملك ان يعود إلى اللوفر وبات في هذه الغرفة التي لم يبت فيها أحد بعده إلى الآن .

وأنا أرجوك ان تبيت فيها ، فان مقامك عندي لا يقل عن مقام الملوك ثم تركه وانصرف ليلقي الأوامر إلى الخدم بشأن ضيفه العزيز .

* * *

أما بارداليان الأكبر فانه بعد ان فارق والده ذهب توا إلى الفندق فنادى صاحبه وقال له أين كاليور .

فأجابه لاندري متذمراً انه في الاصطبل ، ولكن هذا الرجل الذي جرحته .

فقاطعه بارداليان قائلاً : في اية جهة من الاصطبل

- في الجهة اليمنى وسأذهب معك فأدلك عليه ، ولكن هذا الجريح ؟

فتقدمه بارداليان دون ان يجيب إلى الاصطبل فدله صاحب الفندق عليه وقال له : هوذا كاليور ، ولكن الجريح يا سيدي ؟

- ألا تزال تذكر لي هذا الجريح ، وأي ذنب لي إذا قهرته ولم يستطع لقاء صدماتي . ويعد ، فماذا حل به الغد مات ؟

- لم أقل يا سيدي أنك غلبته .

- إذاً ماذا تريد ان تقول .. إني لبسوطي أن أقتل هذا الفيكونت ، ولكنه هو الذي أراد الموت لنفسه .

- انه لم يمت يا سيدي

- إذاً ماذا حدث له

- انه بعد أن آب الى رشده جعل يتوعدك ويقول انه لينتقم من دمك إرطالاً بقدر ما سفكت نقطاً من دمه .

- يستحيل ذلك عليه إذ لم يبق لي من الدم ما يزن بالارطال .

- وقد طلب ان يذهبوا به الى قصر مسيم

فوقف بارداليان مفكراً ثم قال : ان كاليور سيصلح كل هذا .

ثم أشار الى لاندري مودعاً وهو خارج بالجواد .

فقال له صاحب الفندق مبتسماً : ولكنك تذكر يا سيدي انك وعدتني بتسديد ذلك الحساب القديم ، وضربت على منطقتك فاحمتني زين الذهب .

- هو ذاك ، ولكنك سيء الحظ يا مولاي ، فقد اعطيت ما كان معي من المال الى كاتي .. لا بسوءك ذلك ، فقد انفق المال في سبيل وسأدفع لك في زيارة أخرى .

- ولكن ابق لي هذا الجواد على الأقل .

- كلا ، فإني محتاج اليه لشفاء جرح الفيكونت اسبرمونت .

ثم امتطى صهوة كاليور وسار به مسرعاً الى قصر مسيم .

وهناك وضع جواده في الاصطبل وصعد إلى غرفة المارشال

فاستقبله هنري قائلاً : إني كنت في انتظارك إذ لدينا كثير من المسائل التي يجب تسويتها .

أريد أن تبدأ يا سيدي بمسألة الفيكونت اسبرمونت .

- نعم واذكر اني أوصيتك أن تجنبه من أصدقائك ، فكأنك فهمت عكس ما أردت فردوده لي جريحاً وحرمتني من خدمة مخلص لي .

- ولكن اتيت يا مولاي بأفضل منه .

- من هو ، وأين هو ؟

- انه في اصطبل سيدي الدوق ، فإذا أراد مولاي فليتفضل بالنزول

فيه فيراه ، إذ لا يستطيع الصعود أو ليطل سيدي من النافذة وينظر فيه منها فانه عند باب الاصطبل .

فذهب هنري إلى نافذة غرفته وأحب أن يعلم ماذا يريد باردالیان .

فلم يكد يطل من النافذة حتى صاح صيحة اندهاش وقال : ماذا أرى .. ان هذا الجواد جوادي القديم ورفيقي في المعارك ، فمن جاء به إلي ، أأنت ؟

— نعم يا مولاي فقد اعطاني اياه ذلك الرجل الذي لقيك ليلة في معترك مع اللصوص ولولاه لما تشرفت بلقائك .

— هو ذاك ، فان هذا الرجل انقذني من موت كان محتماً ، ولولاه لما كنت الآن في قيد الحياة .

— ألا تريد أن تعرف اسم هذا الرجل الذي انقذك يا سيدي

— دون ريب بل إني أتوق إلى معرفته .

— انه الشفالييه دي باردالیان ابن خادمك المطيع ووريثه

فجلس هنري في كرسيه ونظر إلى باردالیان صدقاً فقال له أوضح لي في البدء مبارزتك مع الفيكونت .

وكان باردالیان يتوقع ان يسأله عن هذا السؤال فلم يعلم على فرط خبثه ان هنري كان يريد أن يطيل الوقت ليفتكر

فروى له باردالیان كل ما حدث بينه وبين الفيكونت مما ظهر منه ان خصمه كان المخطيء .

فلما اتم حديثه قال له هنري : إذاً لقد كان الخصام بينكما لأسباب عارضة وليست تضمر حقداً عليه .

— على الإطلاق .

— لنعد الآن إلى حديث كاليور أي إلى حديث ولدك ، فلقد قلت لي انه هو الذي انقذ حياتي في تلك الليلة .

— نعم يا سيدي والبرهان انه اعطاني كاليور علامة المعرفة .

— ان ولدك يا باردالیان من الرجال الدواسل ، وقد لقيت اليوم ايضاً منه دليلاً آخر على بسالته ، وأنت وعدتني أن تحضره إلي

فتمتم باردالیان هنيهة ورأى أنه لا يستطيع إمتلاك هنري ، ودفع أريته عن ولده إلا إذا قال الحقيقة عنه .

فأجابه بلهجة تبين فيها الصدق والإخلاص

إني افترضت يا مولاي على ولدي أن يكون في خدمتكم ، فأبى لأنه متصل بأخيكم فرنسوا دي موفوراسي .

ولبحث الآن يا سيدي في هذا الأمر يجلاء ، فإن ولدي اكتشف سراً هاماً لجهة دون ريب ، ولكني مخبرك به .

انه قد حضر اجتماعكم في فندق دفيليير فهو يخاف غضبكم بل انه متذمر من رجل كان ممكم وهو حاكم الباستيل .

ثم انه بات واثقاً كل الثقة ، انكم إذا ظفرتم به ارسلتموه حالاً إلى الباستيل الذي لم يخرج منه إلا بأعجوبة .

وهذا هو السبب الذي حمله على الامتناع عن الحضور اليكم وهو سبب وجيه معقول يا سيدي كما ترى .

وفوق ذلك فقد تقدم لي القول انه متصل بخدمة اخيكم نفس اتصالي بخدمتكم فينتج من ذلك اني أصبحت بين أمرين وهما ، أما أن أخونكم والخيانة مذمومة لا يقدم عليها شريف .

وأما أكون عدو ولدي ، وذلك مما لا استطيعه ، بل لا يستطيعه أب على الإطلاق .

أما وقد أظهرت لكم الحالة بهذا الجلاء ، فاسمحوا لي أن أستنتج منها ما يأتي .

انك يا مولاي إما أن تكون استخدمتني لغرض الذي اتفقنا عليه ،

أو لغرض آخر ، فإذا أردت أن أبقى في خدمتك فلغرض الأول ، كنت في خدمتك من أرقى الأوفياء .

وأما إذا أردت أن تلتقي بالأغراض السياسية فلستخدمني لأغراضك الخاصة والمشاكل العائلية ، فإني أعتزل خدمتك لأني لا أريد أن أكون عدواً لولدي .

وكان هنري يسمع ما يقوله بكل الرضى والارتياح .

ولما أتم حديثه قال له :

— انه ليس بعدوك يا سيدي ، بل هو من انصار أخيك وهو لا يريد اذيتك في شيء ، ولذلك يرح باريس منذ هذه الليلة .

— ولماذا يبرح باريس . إنك كلفتني يا بارداليان بعمل ، وأنا أكلفك بمثله .

نعم لقد خطر في هنيبة أن أدلم ولدك إلى محاكم الباستيل ، فانه سيع عادلة خطيرة جرت بيننا ، ولا أعلم كيف اتفق له ذلك .

ولكني علمت منه اليوم انه لا يمكن ان يبوح بسر ، ورأيت من عبارته يدخوله إلى قصري ، وما قطه أمام الملك ومن طريق خروجه من اللوفر انه من أبسل الناس وأشدهم جرأة واقداماً وأوفرهم حيلة وذكاء ، ولذلك بت واثقاً إلى أن يكون منا .

بارداليان ان ولدك قد توفرت فيه جميع الصفات التي تجعله في مصاف كبار الرجال ، ولكنه فقير معدم وليس له نصير .

فالتفت به أجعله غنياً واصيره من كبار رجال البلاط في المملكة القادمة .

— لقد فاتك يا مولاي انه بسبب هذه الخطة التي نهجها في اللوفر ، صدر الأمر بالبحث عنه ، فإذا قبض عليه شنق لا محالة ، ولذلك لم يجد بداً من مبارحة باريس .

فابتسم هنري وقال : ولكنه سيكون في قصري آمناً مطمئناً لا يجسر أحد ان يناله بسوء .

— هو ذاك يا سيدي ، ولكنه سافر الآن لأنه كان مضطراً إلى العجلة في الرحيل لسبب آخر غير سبب حادثة اللوفر .

وهنئذ قص عليه بارداليان ما جرى له ولابنه في تلك الحيارة حتى إذا أتم حكايته قال له : إنك ترى جلياً يا سيدي ، إنه لم يكن له مندوحة عن السفر .

قال : ولكني أرى إنك أصبحت مسؤولاً مثله ، فكيف سافر هو وبقيت أنت ؟

فأجابه بارداليان على البساطة قائلاً :

إني بقيت يا سيدي لأني وعدتك أن أخدمك .

فأعجب هنري باخلاصه ومد له يده مصافحاً ، فارتقبت منزلة بارداليان الأكبر عند هنري .

وبعد ان كان الأب والابن لا ملجأ لهما ولا يعلمان أين يبيتان ، أصبح بيتهما في أعظم القصور .

وحده
قاضيه
منتدى
ليلاس

- ٨ -

ام الملك

بعد ثلاثة أيام من الحادثة التي جرت في الدوفر ذهب المارشال فرنسوا دي مونمورانسي إلى قصر أخيه هنري ليبلغه ذلك الخصام بضربة فاصلة قاضية .

وكان قد أمهله ثلاثة أيام كما يذكر القراء ، فلما انقضت المدة ذهب إلى أخيه ولم يكن يصحبه غير فارس واحد .

وقد سار فرنسوا وهو يمتطي جواداً أسود ، وقد لبس خوذة من جلد الغزال وتقلد سيفاً من سيوف القتال ، ومشى في شوارع باريس ، فكان من رآه يعجب لخروجه بهذه الملابس البسيطة ، بعد أن رأوه يسير إلى الدوفر بتلك الأبهة ، والموكب التي لا يخرج بها غير الملوك .

وكان باردالیان قد اليح الحاحاً عظيماً عليه كي يأذن له برافقته ، فأبى وسار مع ذلك الفارس الذي ذكرناه .

فلما وصلا الى قصر مسح أشار فرنسوا إشارة الى الفارس فنفخ في بوق كان معه

وكان باب القصر مقفلاً ، وكذلك نوافذه جميعها .

فصبر الفارس هنيهة ولما لم يفتح الباب نفخ في البوق ثانية ، ثم نفخ ثالثة فلم يفتح .

وعند ذلك ترجل عن جواده ، باشارة من فرنسوا ، وطرق ذلك الباب

وبعد هنيهة فتح الرتاج ، وظهر منه رجل ، فقال لذلك الفارس : ماذا تريد ؟

أجاب : إننا نريد هنري دي مونمورانسي ، الذي يدعونه دوق دي دامفيل .

– وماذا تريد منه ؟

– إننا جئنا نناقشه الحساب عن إهانة الصقها بنا .

ففتح الباب عندها بجملته ، وخرج منه ضابط وانحنى أمام فرنسوا بلاء الاحترام وقال :

– يسوءني ان أخبركم يا مولاي ان الدوق دي دامفيل قد اضطر أمس إلى مبارحة باريس دون حلاقة الملك .

فاصفر وجه فرنسوا ونظر نظرة حقد إلى القصر .

فقال له الضابط :

– إذا أراد مولاي ان يستريح في القصر ، بذلت في خدمته ما يقتضيه نظام الضيافة .

فأجاب فرنسوا قائلاً : إننا نرفض ايضاً هذه الضيافة .

فانحنى الضابط أمامه فدخل وأقفل الباب .

وعندما نفخ الفارس بالبوق ايضاً ونادى بصوت مرتفع قائلاً : « هنري دي مونمورانسي ... دوق دامفيل » ثلاث مرات .

ولما لم يجبه أحد مد من الباب الكبير وقال :

يا هنري دي مونمورانسي ، إننا أتينا نناقشك الحساب عن إهانة عظيمة ، وقد أنذرناك اننا سنجيء اليك اليوم ، ولذا حق لنا ان نقول لك هربت هرب الجبناء الأنذال ، وتركنا لك قفازة فهو سيبقى دليلاً على

جيبك إلى ان تلتقي .

وعندها نزع فرنسوا القفاز من يده اليمنى وأعطاه للفارس

فأخذه الفارس وأخرج من سرج جواده مسهاراً ومطرقة ووضع القفاز على الباب الكبير ودق فيه المسمار ثم رجع إلى جواده .

وقد بقي فرنسوا في موقفه عدة دقائق ليتبين ان أحداً كان في القصر وانه لا بد ان يخرج الفارس بعد هذه الاهانة إهانة القفاز .

ولكن هذا لم يظهر ، والباب لم يفتح ، فانصرف فرنسوا عائداً مع الفارس .

وفي الوقت نفسه كان رجلان واقفين في منعطف ذلك الشارع نفسه الذي كان فيه فرنسوا .

وهما الشفالييه باردالیان وصديقه الكونت دي ماريليك .

وذلك ان فرنسوا حين ترك قصره وأبى على باردالیان ان يصحبه ، برح باردالیان القصر بعده وسار توأ إلى شارع بيتيهي حيث التقى فيه بصديقه دیودات وأخبره بما عزم عليه المارشال .

ولم يكن لدیودات مأرب في التشيع لفرنسوا ولكنه كان يود خدمة باردالیان في كل ما يطلبه اليه ، فلم يتأخر لحظة في إجابته الى طلبه وهو مرافقته إلى قصر مسيو .

وقد قال باردالیان لصديقه : إننا نصير إلى ان يدخل المارشال فرنسوا إلى قصر أخيه ونتنظر خروجه فإذا لم يعد دخلنا نحن أيضاً إلى ذلك القصر وسألنا الدوق دامفيل عن أخيه .

فأجاب دیودات قائلاً : لا أظن ان المارشال يدخل إلى قصر أخيه ، لقد عرفت أخاه حق المعرفة ، فهو لا يخرج اليه ، ولا يقابله ، في هذا الموقف .

واختبأ الصديقان في المنعطف ورأيا كل ما فعل فرنسوا .

ولما انصرف فرنسوا قال دیودات : أرأيت أيها الصديق كيف ان ظني لم يخطىء .

وعندها رجعا الى منزل الأميرال كوليني حيث كان يقيم دیودات ، فكان دیودات مفكراً وباردالیان قلقاً .

ولما وصلا إلى المنزل مد باردالیان يده إلى صديقه مودعاً وقال له انه عائد إلى المارشال .

فلم يدعه دیودات يذهب وقال له : في رجاء ايها الصديق أتجيبني اليه ؟ .

ـ كيف لا أجيبك إذا كان من الممكنات .

ـ إن قضاءه ممكن وهو ان تتمشى معي هذه الليلة لأن الساعة قد بلغت الثامنة الان فنذهب إلى فندق لا يعرفك أحد فيه ثم أذهب بك إلى خطيبتي فأعرفك بها ، أتقبل أيها الصديق .

ـ كيف لا أقبل وان خطيبتك لو كانت في القند رأردت ان تشرفني بمعرفتها لذهبت معك اليها .

فتابط كل منهما ذراع الآخر وسارا إلى فندق فتمشيا فيه .

وفي الساعة التاسعة خرجا من ذلك الفندق وصارا يمشيان على مهل ويتحدثان إلى شارع لاهاش حيث تقيم اليس دي ليكس .

* * *

ولنعد الآن الى اليس دي ليكس تلك الجاسوسة التي أدغها الغرام وهذب نفسها ، فتمثلت لها عيوبها السابقة بأقبح تمثال وأبت توبة صادقة وهي لا تزال ترضف بقيود تلك الآثام .

كانت اليس تنتظر في تلك الليلة خطيبها وعلائم الرعب ظاهرة على وجهها لأسباب سنبسطها للقراء .

وهنا لا بد من القول انه قد جرى بين باردالیان وديودات ذكر حادث الجسر مراراً كثيرة

ولكن باردالیان لم يقل له مرة ان ملكة التاقار كانت تصحب معها فتاة حسناء في تلك الحادثة كان يظهر انها وصيفة الملكة وكذلك ليس فانها لم تشر بكلمة إلى خطيبها عن تلك الحادثة

فنتج من ذلك ان ديودات كان يجهل ان باردالیان أنقذ خطيبته وان باردالیان كان يجهل ان تلك الخطيبة هي وصيفة ملكة التاقار .

وقد قلنا ان ليس كانت في تلك الليلة قلقة مرتبة .

أما قلقها فقد كان لقدوم حنة وابنتها اليها .

ونعم انها الحدثت كل ما يجب اتخاذه من أسباب الاحتياط فأقامتها في غرفتين في الدور الأعلى وأقفلت عليها الأبواب .

ولكنها كانت تخشى ان يعلم خطيبها بأمرها اتفاقاً ويسألها عنها، فلا تعرف كيف تجيب او يكلم حنة وهناك الطامة الكبرى فإنه يعلم للفور من حديثها ان خطيبته تمثل أسفل دور يمثله إنسان .

وليس ذلك ما يروع ليس ويرعبها فقد كانت أطلق الناس لساناً وأكثرهم جناناً في مجال الكذب والاختلاق والتلفيق .

ولكن رعبها كان ناتجاً من رسالة موجزة وردت اليها فأحدثت في نفسها هذا الرعب الشديد

ولم ينس القراء ما كان من اتفاقها مع الملكة كاترين في اجتماعها الأخير وهو ان تكتب لها كل ليلة تقريراً وتلقيه من نافذة في ذلك القصر الذي تسكنه الملكة الفلكي .

فكانت ترسل اليها بضع كلمات مبهمة مثل قولها :

(لم يحدث شيء جديد . أو رأيت الرجل والأمور جارية في أحسن مجرى) .

إلى غير ذلك من مثل هذه الأقوال .

وقد دهشت في تلك الليلة ، حسب عادتها ، لتلقي تقريرها في النافذة ، فلما رت ان يداً خرجت من تلك النافذة ، ووضعت في يدها ورقة مطوية .

فأخذت الورقة ورجعت إلى المنزل ففتحتها وقرأت ما يأتي :

(دعي الرجل يقم عندك الى الساعة العاشرة واصرفيه في هذه الساعة بدون تأخير فاذا شاء ان يقم الليلة كلها عندك ، فاخدعي ما تجديه صالحاً من الأعذار بشرط ان يكون الساعة العاشرة في الشارع ، واعلمي انه لا يراد أذيته في شيء) .

وكانت هذه الرسالة من الملكة كاترين ، فلم تطمئن ليس لكلماتها الأخيرة وأيقنت أنها لم تطلب ان يكون الكونت دي ماربليك في الشارع في الساعة العاشرة إلا لمواجهته او لاختطافه ، لأن هذه الملكة لا تقف في جورها عند حد .

ولما كانت شديدة الرعب ولم تستقر على رأي .

ولما طرق الباب ، وقفت مصفرة الوجه ، خفاقة القلب ، وقالت : هودا قد أتى .

وقد استقرت في تلك اللحظة على رأي وهو ان تدعي للملكة وتكرره خطيبها على البقاء عندها كل الليل فهو مكافئها للمواقب .

وبعد هنيهة دخل ديودات الى غرفتها فاستقبلته باسمة باشة كأن المواصف لم تكن قائمة في قلبها .

فصافح يدها وقال لها :

– إني أقدم لك أيتها الحسيبة الشقالبية دي باردالیان أخلص إخواني وأغلى أن تحبيه كما أحبه .

فعرفت ليس باردالیان لأول وهلة .

وكذلك باردالیان فإنه عرفها أيضاً ، فانحنى أمامها وحياها أجمل تحيـا بدون ان يظهر انه يعرفها من قبل .

فقالت له اليس : إنك يا سيدي الشقاليبه صديق الكونت فاحسب نفسي سعيدة بوجودك في منزلي وان الكونت يعد نفسه سعيداً باعتماده على صداقتك في حالته الحاضرة في باريس .

فأجابها باردالیان بمثل هذه المجاملة من غير ان يظهر لها انه يعرفها .

وكانت اليس تعجب كيف انه لم يشر إلى تلك الحادثة السابقة .

وكان باردالیان يقول في نفسه كيف وجدت وصيفة ملكة انكلترا في هذا المنزل ؟ وما هذا الاضطراب السائد عليها ؟ وإني أذكر أن الملكة قد ربطتها أمامي لدفع التركة إلى الجسر .

ولبثوا على ذلك يتحدثون ويتناهمون إلى ان دقت الساعة العاشرة فارتعشت اليس وقالت رباه ماذا أصنع ؟

ثم جعلت تتشاغل عنها وخطيبها بالحديث وهي تتلو معه ، فتصفر مرة وتحمر اخرى وباردالیان يراقبها فيعجب لما يراه منها .

إلى ان وقف الكونت وقال : لقد آن أوان الانصراف .

فدعرت اليس وقالت له : كلا لا أدعك تذهب لأني خائفة .

فبهت الكونت وقال ما هذه المخاوف يا اليس وما تخافين ؟

وقال لها باردالیان بلهجة العارف بما يجول في نفسها : أقسم لك يا سيدتي انه لا يصاب الينا بمكروه .

وخرج الصديقان فشيعتهما اليس الى الباب الخارجي وهناك همست في أذن باردالیان قائلة : أرجو أن لا تفارقه حتى يدخل الى محل أمين لأني أظن انهم يريدون قتله .

فارتعش باردالیان لأن هذا القول أيد ما كان يراه من عيبتها حين مراقبتها .

ثم انصرف الاثنان وبقيت اليس واقفة عند الباب مدة طويلة فلم تسمع حساً ورجعت الى المنزل مطمئنة .

أما باردالیان وديودات فإنهما جعلا يسيران ويتحدثان ، وباردالیان موحس خيفة على صديقه .

فقد رابه أمر هذه العشاء ، وتقدمها نقد الدقق ، فعلم انها تحبه حباً خالصاً ولكنه علم أيضاً أنه يرجد في حياتها سر عظيم تضطرب له وانن خوفها على خطيبها لم يكن عبثاً .

خلافاً لديودات فقد أعمى الحب بصيرته فلم ير شيئاً مما رآه باردالیان فسأل صديقه قائلاً :

ـ كيف رأيت خطيبتي .

فأجاب باردالیان : إني لم أر أبدع منها جمالاً ، كأنما الله قد خلقها كما اشتهت .

ـ ولكنها تخاف علي خوفاً شديداً ، ولا أعرف سبب هذه المخاوف .

ـ إن الحب يضعف القلوب أيها الصديق ، ولو أحبتني امرأة كما تحبك خطيبتك لأعطتها الى كل ما تريد حتى في وقاية هذه المخاوف .

فتنهد وقال : لا شك ان اليس غير عالمة بشيء فإذا كانت خائفة علي فليس هذا الخوف إلا من ذاك الحب .

ولبثا يتحدثان ويمشيان حتى دخلا في شارع بيتيبيسي فلقيا رجلاً قد دنا منهما فحذرا منه ووقفا في موقف التأهب .

أما الرجل فإنه اقترب منهما فحياهما وقال :

لي كلمة يا سيدي أحب القائها الى أحدكما الكونت ماربلياك .

فأجابه ماربلياك قائلاً :

ـ أنا هو يا سيدي فماذا تريد .

وكان هذا الرجل دورفر ، عامل الملكة كاترين وعدو باردالیان الألد ،

وحاول أن يرى وجه باردالبيان ، ولكن الظلام كان حالكا فلم يره ، فخاطب الكونت قائلا :

أحب يا سيدي الكونت أن أكلمك في خلوة فلا يسمع كلامنا أحد .

فعرف باردالبيان مورفر من صوته وضغط على يد صديقه ديودات فأدرك قصده وأجابه قائلا :

قل يا سيدي ما تشاء أمام صديقي فاني لا أكتمه شيئا من أمري .

فتردد مورفر هنيهة وهو يحاول أن يعرف هذا الرجل الذي يصحبه فلا يستطيع حيث قال :

– لقد عهد إلي يا سيدي الكونت ان أسير بك إلى شخص ينتظرك

– من هو ؟

– هو امرأة في ارفع منزلة وهذا كل ما استطيع التصريح به ما زال يوجد من يسمع حديثنا ، وأزيدك يا سيدي ان هذه المرأة قد تجاوزت عهد الصبى فليست الزيارة زيارة غرام .

– إلى أين تذهب بي إذا رضيت الذهاب معك .

– إلى اول منزل على الجسر الخشبي يا سيدي الكونت ولكنك لا تستطيع الذهاب إلا وحدك .

ولكن من أنت يا سيدي ؟

– اسألك العذرة يا سيـــدي ، وأرجو أن تقتصر على الي مندوب الذي ارسلني .

فأخذ باردالبيان عند ذلك صديقه ديودات وابتعد به بضع خطوات كي يحدثه على انفراد فقال له بصوت منخفض :

– أعزمت على الذهاب معه .. اذكر أيها الصديق انك أقسمت على ان تكون حكيما .

– لا أذهب

وفي ذلك تكون قد أحسنت .. أتعلم من هذا الرجل الذي يكلمك .. ان مورفر أحد جلادي كاترين .. ثم أتعلم من الذي ينتظرك في ذلك المنزل الذي هيه ؟ .. انها كاترين مدسيس نفسها .

فاشتاطت لهجة ديودات وقال : أأنت واثق مما تقول ؟

– كل الثقة فأصرف هذا الرجل بما تقتضي حرفته الشائنة أي ..

ولكن ديودات لم يدع باردالبيان يتم حديثه فانه أفلت منه وعاد مسرعا إلى مورفر وقال له :

– اني مستعد يا سيدي للذهاب معك .

وقد لفظ هذه الجملة بلهجة الناوط وهو يقول في نفسه : لقد آن ان أرى أخيرا وجها لوجه ..

أما باردالبيان فقد كاد يجن من خوفه عليه وقال له : ماذا تفعل ؟

فم يجبه ديودات بل قال لمورفر : هلم يا سيدي .

فبذل باردالبيان جهدا عنيفا كي يمنعه عن الذهاب غير أن الكونت شد على يد صديقه كأنه يودعه الوداع الأخير .

ثم قال له هامسا في أذنه :

اودعك ايها الصديق آخر وداع وأسأل الله ان يباركك .

فقال له باردالبيان : ماذا تفعل يا ديودات أجننت ؟

كلا ، لأني ارجو ان تقتلني كاترين دي مدسيس .

– ولكني لا افارقك .

بل تفارقني لأنك لا تستطيع الذهاب إلى حيث أنا ذاهب .. بل لأني ذاهب إلى حيث يدعني القدر .

– كونت ، اني لا افارقك واذا كنت واياك فلا خوف علينا من القتل .

باردالبيان .. ليس الكونت دي ماريليك الذي يذهب الى الملكة الأم بل هو ديودات الولد القتيل الذي وجد طفلا على سلم الكنيسة .. أتريد أن

أخبرك بكلمة سبب هذه الكآبة التي تتولاني .. أريد أن تعلم لماذا أذهب إلى الملكة وأنا عالم أني لا ألاقي إلا الموت ..

– نعم .. نعم . أريد أن أعلم ..

– إذاً .. فاعلم أني أريد أن أعرف أمي .. فإن كاترين دي مديسيس أمي .

ثم أقلت من يد بارداليان وأشار إشارة إلى مورفر وتقدمه ، فتبعه مورفر وبقي بارداليان ساهياً تائهاً يقول : ديودات ابن الملكة ؟

ثم ذهب إلى ذلك المنزل الذي ذهب اليه صديقه مع مورفر وهو يعرفه من قبل ، لأن قابل الملكة فيه ، وقد عزم على أن ينتظر صديقه خارج ذلك المنزل فإذا لم يخرج منه دخل اليه غير مكترث لما يكون .

وكان يقول في نفسه وهو ذاهب : ترى أكانت الليلة هي ليلة مورفر يراقب خطيبها .

حتى إذا وصل إلى ذلك المنزل رأى ان الظلام يكتنفه من كل نواحيه ، وانه أشبه بالقلاع والحصون منه بالبيوت والقصور فوقف يناجيه ويقول :

أي هذا القصر الفخم إنك تشبه الوفر بجمالك وروائك ، وتختلف عنه بجلالك وسلطانك .

إن الوفر يسكنه ملك ضعيف الرأي هزيل الجسم يجول فيه قلقاً مضطرباً كما يجول الثعلب في الصحراء القاحلة .

وهنا تقع تلك الملكة التي يدعونها الملكة الكبيرة ، فتدير دفة البلاد منه وهي ساكنة سكوناً تنقض منه الصواعق .

إن هذه الملكة هي أم فرانسوا الذي مات بعد بضعة أشهر من ملك مبتة غريبة لم يعلم سرها أحد .

وأم شارل الذي لا بد أن يموت أيضاً موتاً خفياً .

وأم هنري دانجو المتآمر .

وأم مرغريت المتزوجة ..

وهي أيضاً أم ديودات الذي استجمع كل صفات الرجولية والكمال ، فكيف خرج هؤلاء البنون على اختلاف أخلاقهم من بطن واحد .

وقد تمثلت له تلك الغرفة التي استقبلته فيها وتمثل ذلك الملكة جالسة على كرسيها الضخم ، وانها تصدر الأمر بالقاء القبض على صديقه فوضع يده على حسامه وقال : والله إذا لم يخرج صديقي في الغريب العاجل دخلت المنزل ولو كان حراسه من الأبالسة وانتزعت روح تلك الملكة من صدرها فطهرت الأرض من الدنس .

وعندما رأى انه لا بد له من الاختباء ، بعدما عزم على الانتظار فاختبأ في مكان قريب .

أما كاترين فقد كانت جالسة في غرفتها ، ولا يوجد معها غير الفلكي والد ديودات .

ولكنها لم تكن تكتب رسائلها في تلك الساعة كما كانت تفعل حين كانت تنتظر بارداليان ، بل كانت تحادث الفلكي فتسأله من حين إلى حين قائلة : ترى أيحضر .

وكانت علائم الاضطراب بادية على الفلكي كأنه كان يتوقع أن يصاب ابنه بكروه .

ونظرت اليه الملكة نظرة المشفق وقالت له :

– ألم اطمئنك يا رينيه ؟ اني لا أريد له الموت الليلة ، بل أريد أن أسبر غوره وأكشف دخائل نفسه ، فإذا كان كما أريد أن يكون ورأيت في غروره دمي عقوبت عنه ونجا من الموت .

إنك أبوه يا رينيه ، وانا أيضاً أمه ، ولكني ملكة ولا بد لي من قتل عواطف الأمومة والتفرغ إلى شؤون الملك .

وأما إذا رأيته على غير ما أريد ، فلا بد ان يموت .

رحمة قاسم
مكتبة الإسكندرية

وقال لها رينيه : ولكن أي دخل لحياته وموته بشؤون المملكة .

لو كنت واثقا يا رينيه إن هذا السر يبقى مكتوما لتعاميت عن ونسيته ، وأما أن أعيش ما بقي لي من العمر منذرة متوعدة بسر مولده القاتل فذلك ما لا أطيق .

أم تحسب يا رينيه ان قلبي لم يختلج حنوا حين قلت لي انه لا يزال في قيد الحياة ، واني أردت موته لكيان السر دون تأثير .

فأجابها الفلكي بلهجة القانطين : لماذا لم تخبريني انك صممت على موته وان لا يستطيع أحد انقاذه ، حتى والده المنكود ، وانك قضيت عليه القضاء المبرم .

ـ أعيد عليك ما قلته ، وهو اني ما قضيت عليه بعد ، وربما كنت اليه من الحسنين ، إذا أمكن الاتفاق على بعض أمور .

وقد تحملت ملبا بهذه الحالة ورجائي أن يمكن الاتفاق .

وبعد ، فما الذي أريده يا رينيه ؟

اني أريد أن يكون ولدي الذي يحن اليه قلبي حقيقة ملكا لفرنسا وهو الدوق دانجو .

ومتى لبى ولدي شارل دعوة ربه يرتقي دانجو إلى العرش ، والأمر بسيط كما يبدو لك .

ولكن لدينا عدو هائل ولا سبيل إلى الراحة والاشفاق بيننا وبين هذا العدو ، فهو يريد لنا الموت الحتم ، ونحن نريد له القضاء المبرم .

ان هذا العدو يا رينيه ، أسرة البوربون ، وولدة هنري دي نفار ، تلك الملكة الذكية الشديدة الطامعة ، التي تتولى رئاسة هذه الأسرة ، وتعمل على نزع الملك من أسرة فالوا وتقليده أسرة بوربون ، بحيث يكون ابنها ملك فرنسا .

وهي إذا تتقلد عرش الثاغار سلما ترقى به الى عرشنا ، فلا بد لي إذا ما

تقطع هذا السلم وسد هذا السبيل .

فالت أم هنري دي نافار وليصبح ابنها دون عرش وليستحق تلك الأسرة البوربونية سحقا .

ومتى خلا عرش الثاغار من ملكه أيكون ملكا عليه ، غير رجل من دمي .

فاعلم يا رينيه انه متى بث ولدي هنري ملكا لفرنسا ، يصبح ولدك ملكا للثاغار .

وربما كانت كاترين صادقة فيما كانت تنويه ، غير ان الفلكي لم يلق بالي من أقوالها فأطرق برأسه إطراق الحزين ، وعادت اليه المخاوف والاضطراب

وعند ذلك طرق الباب ودخل مورفر يتبعه الكونت ماريلياك .

فاستقبله رينيه وقال له بصوت مضطرب : أهلا بحضرة الكونت .

وكان ديودات أشد اضطرابا من أبيه فانحنى أمامه صامتا دون ان يتلبث في اضطرابه .

وقد أشار اليه رينيه أن يتبعه وسار به الى الملكة .

ولما دخل اليها ورآها ، خفق قلبه خفوقا شديدا وقال في نفسه : هذه هي أمي .

أما الملكة فإنها نظرت اليه دون أن يبدو عليها شيء من علائم الحنو ، فقالت له :

ـ لا أعلم يا كونت إذا كنت تعرفني

فأجابها ديودات قائلا :

ـ أنت .

ثم اختنق صوته كأنه يحاول أن يقول لها : أنت أمي ، ولكنه لم يستطع فسكت .

فقالت الملكة وقد خفق قلبها خفقة في تلك الساعة : ماذا ..

– إني عرفت جلالتك يا سيدتي فإنك أم . شارل التاسع ملك فرنسا .

– أرأيتني قبل الآن ؟

– نعم .. لقد تشرفت بمشاهدة جلالتك في بلوا ..

– حسناً فاصمع ، إني سأكلمك بلغة الجلاء .

اني عالمة بأنك في باريس ، أما السبب في قدومك اليها مع النساس الذين صحبتهم فلا أود ان اعرف شيئاً من ذلك .

غير اني أعرف ان الكونت دي ماربلياك صديق إبنة عمنا حنة دي اللريت ، وان الملكة التافار ثقة بك لا حد لها .

ولما كنت في حاجة إلى مباحثة هذه الملكة العظيمة في شؤون خطيرة ، وكنت انت في المنزلة التي وصفتها من ثقتها بك فقد أحببت أن تكون رسولي اليها لأنها ستراك نعم الرسول .

وكانت الملكة تتكلم وهو ينظر اليها مضطرباً ، إذ كان يعلم ان هذه الملكة أمه ، وانها أعظم ملوك الأمم المسيحية بأساً ، وانها إذا علمت انه يعرف كونها امه قتلته .

ولكنه بذل جهداً عنيفاً إخفاء لاضطرابه ، وأجاب الملكة قائلاً :

– اني انتظر يا سيدتي تلك الأقوال التي تريد جلالتك أن تعهد الي إبلاغها فأتعلمها بملء الأمانة والوفاء .

فقالت الملكة في نفسها :

إن ، بلا ريب ، لا يعلم اني امه وكيف يستطيع ان يعلم ، بل كيف يخطر في هذا الخاطر ، العلي جنانك .

ثم التفتت اليه وقالت :

– ان الذي أريد إبلاغه خطير يحتاج إلى مقدمات .

وأول ما أبدأ به اني أسألك أن لا تعجب من اني استقبلك هنا في

الليل بحضور صديق وفي بدلاً من استقبالك في اللوفر ، وفي النهار ، وأمام رجال البلاط .

فإن لذلك سببين : اولهما وأخصهما انه ليس من يعلم بوجودك في باريس ، ووجود أصحابك إلاي ، فلا أريد أن اعلمك واعلمهم فتكونون ضحية تلك الأحقاد .

والسبب الثاني اني اريد ان يبقى كل ما اقوله لك مكتوماً .

ثم لا بد لي ان اخبرك بالسبب الذي دعاني إلى اختيارك وتفضيلك عن سواك في هذه المهمة ، في حين انه كان يسعني ان انتدب لها واحداً من رجالي أو من رجال الملك ..

بل كنت استطيع ان انيط بهذه السفارة الأميرال كوليني ، بل كنت استطيع ايضاً ان أعهد بها إلى ملك التافار نفسه

ولم يكن ماربلياك غائباً عن نفسه ، فقد ذهب إلى الملكة ذهاب القانط وهو غير مكترث للموت .

ولكنه ارتعش حين سمع الملكة تذكر بهذا الأسلوب الدقيق أسماء الذين قدموا سراً إلى باريس واجتمعوا في منزل الأميرال

أما الملكة فقد علمت انها ادركت قصدها بدليل ابتسامها لما رأته من اضطراب ماربلياك .

وعادت الى الحديث وقالت :

– نعم يا كونت اني آثرت ان اعهد اليك دون سواك بمهمة خاصة بأعظم مملكة .

بل اني القيت بين يديك سلام مملكتين يجب ان تكونا اختين ، واخيراً اني اريد حل مسألة هذا الخصام الهائل الذي اسال من دماء الرجال واسفاه بقدر ما اسال من دموع الأرامل والأيتام .

ومثل هذه الفظائع تؤثر باغلب الناس أكباداً ، فكيف لا تؤثر في وانا لست ملكة فقط بل أماً أيضاً .

فارتعش ديودات ارتعاشاً بيناً كائنا . بسبب ان الملكة تقول هذا القول مقدمة التصريح بانها أمه .

وقد كان اضطرابه شديداً حتى انه اضطر ان يستند إلى الكرسي الواقف بقربه كي لا يسقط ، وكان الفلسكي يراقب أتم المراقبة ، فما رأى ان اضطراب لم يظهر إلا حين سمع الملكة تقول :

« وانا أيضاً أم » قال في نفسه : انه لا شك عارف بكل شيء .

أما الملكة فلم تلتفت إلى شيء من ذلك ، فاستطردت حديثها وقالت :

لقد تقدم في القول إني اخترتك دون سواك ايقيني من ان ملكة النافار تحبك ، ولكن هذا القول لم يكن غير حجة ، والحقيقة إني اخترتك لأن لي بك مآرب

فأجابها ديودات متذهلا : لك في مآرب يا سيدتي ؟ اهل جلالة الملكة تعرفني قبل الآن ؟

فابتسمت الملكة وقالت :

نعم اعرفك ، بل اعرفك من عهد بعيد لا يخطر لك في بال

— انتظر من جلالة مولاتي ان تشرفني باظهار هذا المآرب

— سأظهر لك كل شيء يا كونت ، واما الآن فأني مظهرة لك الاقتراحات التي أعهد اليك إبلاغها إلى ابنه عمي ملكة النافار .

وسأسردها عليك بلا حرية واجلاء ، فاصغ إلي أتم الاصغاء كي لا تفوتك كلمة مما سأقول .

إني بذلت ما يمكن بذله من الجهد لتوطيد اركان السلم في العالم ، فاذا اصبحت الملكة بما يكدر صفو هذا السلم ، فانا بريئة امام ملك السماء وملوك الأرض .

واني يعتبرني الناس رئيسة حزب الكاثوليك ، ويعتبرون ملكة النافار رئيسة حزب الهوكينوت .

وسواء كانوا مخطئين أم مصيبين فاني مظهرة لك اقتراحاتي قاصع .

اعطاء الحق للهوكينوت بتعيين كاهن والشاد كنيسة في كل مدينة من المدن الكبرى .

والشاد ثلاث كنائس في باريس مع الحرية التامة للهوكينوت بالصلاة حسب دينهم الجديد .

إعطاء الهوكينوت عشرة حلات منيعة لتختارها ملكة النافار ، فتكون لهم ملجأ وحماية .

يحفظ لهم منصباً في بلاطنا .

يكون لهم المساواة التامة بالكاثوليك في جميع شؤون الدولة والاعمال التجارية .

هذه هي الاقتراحات يا كونت فكيف تجدها .. اني اسألك ابداء رأيك الخاص بها .

فأجابها ديودات قائلا : أرى يا سيدتي انه اذا روعيت هذه الشروط كما ينبغي بطلت تلك الحرب الدينية وذهبت آثارها

— إذاً فاصغ الضمانات التي أقدمها لرعاية هذه الشروط ، فان كلامي وتوقيع الملك عليها قد لا يكونان كافيين على انهما مقدسان ؟

فلم يجب ديودات بشيء على هذا التقريع ، وعادت الملكة إلى الكلام فقالت :

ان الدوق دي الب يحق الهوكينوت حقاً في هولندا منعاً لانتشار مذهبهم . وأنا أنعهد بتأليف جيش باسم ملك فرنسا لمساعدة اخواننا في هولندا .

واني أفضل ذلك على ما هو مشهور من مودتي للملك وملكة هولندا .

ولكي لا يبقى أدنى شك أولي الأميرال كوليني قيادة هذا الجيش وهو يمين

وحده فاطمه
منتدى الواحه

من يختاره من القواد ، فما تقول في ذلك يا كونت ؟

أقول ان ذلك من أقصى رغائب الأمير ال .

– حسناً فاسمع الآن الضيافة الثانية التي أعرضها ، فتكون خير مؤيد لدعم التهاني بيننا.

وهذه الضيافة هي أنه بقي لي ابنة يتسابق إلى خطبتها أمراء النمسا في كل يوم .

وستكون ابنتي خير رهينة ، فان البيت الذي تدخل اليه يكون صديق الأسرة المالكة ، فأنا أعرض تزويج ابنتي مرغريت بالملك هنري ملك نافار .

فماذا تقول في ذلك يا كونت ؟

أقول يا سيدتي إني سمعت بذلك من توابع السياسة ، وقد حقق الخبر .

– أتظن أن ملكة النافار ترضى هذه الشروط وتتزع السلاح ؟

– انها إذا كانت لا تتزع السلاح ازاء القوة فهي تتزعه دون شك ، بعد هذا التساهل فان ملكتي ترغب نفس رغبة جلالتك بتوطيد أركان السلم ، وانها لم تندفع إلى الحرب إلا بما كان بمانيه الهوكينوت من اضطهاد الكاثوليك فهي تستقبل هذه الشروط بمل‌ء الرضى والارتياح ، لانها خير ضامن لتأييد السلامة والمحبة بين الحزبين .

– إذاً أبلغ جلالتها كل ما قلته لك ، واعلم انك سفيري السري ، وهذا كتاب مني اليها يؤيد سفارتك .

ثم أخذت عن المائدة كتاباً مفتوحاً مختوماً بالختم الملكي وهو يتضمن ما يأتي .

« سيدتي وقريبتي العزيزة .

« أسأل الله أن يصلك كتابي هذا وتكونين في أتم حالات الخير والسلامة .

« وبعد فاني لما رأيت هذا الخلاف الذي يفرق مملكة ولدي قد استفحل

« أهبت الى الكونت دي مارياياك ان يبلغك اقتراحاتي على رجاء أن تنال لديك قبولاً .

« وهو سيخبرك بكل أفكاري في هذا الشأن ، ورجائي أن أكون قد أحسنت باختيار هذا السفير ، فأختم كتابي بالدعاء إلى الله ان يصون جلالتك من كل مكروه » .

فركع ديودات وأخذ الكتاب وقرأه ووضعه في جيبه ، ثم نهض فوقف وهو ينتظر أن تبدأ الملكة الكلام .

أما الملكة فانها كانت تتمعن مفكرة ، وهي تنظر من حين الى حين نظرات خفية إلى ديودات تبدو منها علائم الاضطراب .

ولم يكن يظهر من هذه النظرات إذا كانت قد تحركت فيها عواطف الأمومة .

ولكن الحقيقة إنها كانت تفحص ديودات لتعلم إذا كان صادقاً في اخلاصه لملكة النافار .

بل كانت تناجي نفسها وتفحص رأيها الفحص الدقيق لتعلم إذا كان يجب عليها أم استبقاؤه وجعله ملكاً .

ثم عادت إلى الحديث فقالت :

قد فرغنا الآن يا كونت من البحث في شؤون المملكة والكنيسة ، فلنبحث في شأنك الخاص .

وأول ما أبدأ به إني سأكفي عليك سؤالاً بحرية وجلاء آملة ان تجيبني عليها ، أما سؤالي فهو .

الى أي حد بلغ اتصالك بملكة النافار والى اي حد تبلغ باخلاصك لها ؟

فارتعش ديودات مع ان السؤال كان بسيطاً ، ولكنه بالنظر إلى اضطرابه الذي في خلال كلامها انذار للملكة .

اما الملكة فانها مضت في حديثها قبل ان يجيبها ديودات فقالت :

افهم ما اقوله جيداً يا كونت . ان ملكة الناقار إذا رضيت بافقر اجنبي ، وهو الذي ارجوه فلا بد لها من الحضور إلى باريس لحضور الحفلات التي تعدها إجلالاً لهذا السلم وهو بمثابة الجميع .

واني اريد ان تكون حفلة زواج بنتي بملك الناقار حفلة فخيمة ، يشترك فيها الشعب ويتحدث بها الناس عدة اجيال .

بل اريد ان يسيل اللون الأحمر في شوارع باريس ، وان ينير شماع الهب المدينة عدة ليال

ولقد قلت لك يا كونت ان ملكة الناقار ستحضر هذه الحفلات ، وكذلك هنري ولدها والاميرال كوليني ، وانت وكل من ينتسب إلى مذهبك ، فاني اريد ان يعلم الناس أجمعون جدارتي حين اسمي لسلم المملكة .

ولكن ليس هذا كل الذي اريد قوله يا كونت ، واني اكاشفك بحرية خاصة.

الي اعد هنري دي ناقار مستقبلاً باهراً بعد ان يقترن بابنتي وتصبح بضعة من امرائي ، بل اريد له مملكة تليق بكفاءته

وما هي مملكة الناقار . انها بقعة صغيرة جميلة يقنع بها رجل نبيل بسيط واسما مثل هنري دي ناقار فيجب ان يكون له مملكة تشبه مملكة فرنسا كبولونيا مثلاً .

فقال ديودات متذهلا : بولونيا ؟

قالت : نعم ايها الكونت العزيز ، فقد وردتني انباء خطيرة من هذه المملكة ، وساظفر بعرشها قريباً دون شك فاسقطه لأحد اولادي .

أولا يكون هنري واحد منهم حين يتزوج بابنتي ؟

اني ارقب عندها الى عرش بولونيا وتصبح مملكة الناقار من غير ملك

فأجابها ماريلياك قائلاً :

– لا اظن يا سيدتي ان امه تتخلى عن الناقار .

– كل ذلك ممكن يا كونت ، ولكن إذا اتفق انك كنت منخدعاً وخلا

عرش الناقار لسبب من الأسباب ، فما القول ..

– لا أقول شيئاً ، ولكني انتظر ان توضح جلالتك افكارها .

– ان فكري بسيط ، وهو انه يجب ان تجد ملكة الناقار ، بعد خلو عرشها ، فإن هذه المملكة الغنية لا ينبغي أن تبقى من غير ملك ، وقد وجدت هذا الملك .

فانذهل ديودات وعجب كيف ان ملكة فرنسا تتدانى إلى مباحثته في هذه الشؤون الخطيرة وهو لا منصب له كبير ، ولا هو من كبار النبلاء او اصحاب النفوذ في السياسة .

على انه في الحقيقة لم يكن يكترث لشيء من هذه المباحثات ، بل كانت امانيه قاصرة على ان يسمع من فم هذه الملكة كلمة حتى تدل على انها حقيقة امه .

ولم يكن قد مر به من جميع هذه المباحثة غير الاقرار على السلم وزواج هنري دي ناقار .

وعادت الملكة إلى الحديث فقالت : وقد وجدت هذا الملك يا كونت كما قلت لك وهذا الملك هو انت .

فذعر ديودات وقال : أنا .. أنا اكون ملك الناقار ؟

فأجابته بلهجة السكينة : نعم انت هو يا كونت .

– ولكن جلالة الملكة نسيت اني لست شيئاً مذكوراً في هذا الوجود .

– ولذلك أريدك أن تجعلك شيئاً مذكوراً .

– سيدتي ماذا أصنع ... إن من كان في منزلتي الحقيرة لا يرفعون به إلى هذا المقام الرفيع إلا لأسباب خطيرة .

– وساجد هذه الأسباب فاطمئن .

– اني قد أكون أخطأت التعبير ، يا سيدتي ، فإني ما أردت بتلك الأسباب ، بل الأسباب عظمتي القادمة التي تحمل جلالتك على ترقيتي إلى

واني أضحي نفسي يا سيدتي في سبيل معرفة هذا السبب .

وكان يقول هذا القول بلهجة تأثير عظيم ولكن الملكة حسمت تأثره مما أصابه من الدهشة فقالت :

— ماذا تقيدك يا كونت معرفة السبب ألم أقل لك في بدء الحديث أن لي بك مأرب .

فاغتنم أيها الكونت هذه الفرصة التي تمر بك فانها لا تمر كل حين ولا تحاول معرفة السبب الذي يحملني على إسعادك .

وأنا اعلم ما يصيبك من الاضطراب في مثل هذا الاقتراح الجسيم الذي يعرض عليك ، ولكن لا تبال بكل ذلك وثق اني ضامنة لك ما أقول .

وكل ما أريد ان اعطه الآن ما سألتك إياه من قبل وهو الى اي حد يبلغ اتصالك بملكة الناقار ، فاني سأعتمد عليك باتمام هذا المشروع الذي أشرحه .

اي مشروع إخلاء عرش الناقار .

ثم ابتسمت وقالت : اي المشروع الذي يضمن لملك الناقار عرشاً أهل .

فأجابها ديردات قائلاً : اني لا اتطاول الى معرفة نيات جلالتك ، ولكني اقتصر على اجابتها عما شرفتني بالسؤال عنه .

وقد سألتني جلالة الملكة إلى اي حد يبلغ اتصالي بملكة الناقار وعن مبلغ إخلاصي لها ، أليس كذلك ؟

— هو ذاك ..

— إذاً فاعلمي يا سيدتي .. انك قلت منذ هنيهة قولاً لا أزال مضطرباً له إلى الآن فقد قلت : وأنا أيضاً لم .

وقد اذكرتك هذه الجملة يا سيدتي ، لأنك لم تظن ان لديك ذلك العواطف المقدسة التي تزين قلوب الأمهات ، وانك قد تؤثرين الموت على ان تكوني السبب في إشقاء احد بنيك ، ولذلك فأنت تعلمين كما اظن شدة التعلق

الولد على امه .

فاصفر وجه الملكة كاترين وقالت له بصوت أجش :

ما هذا التملق الغريب في حديثك يا كونت فإنك تظن ان لي عواطف أمومة ، وتظن اني أعرف انعطاف البنين على الأمهات ، فهل تشك في ذلك يا كونت

فأجابها ديردات ببرود قائلاً :

— أسأل مولاتي المغفرة فقد بت يحق لي ان اشك بكل شيء وافترض كل شيء بعد ان تخلت عني أمي .

— كونت . . ان الرجل الشريف له أن يشك بكل أمر ما خلا كلام ملكة .

— انك سألتني يا سيدتي عن مبلغ حبي لملكة الناقار فهو حب ابن لأمه .

وما أنا يا سيدتي من الأشراف ، فاني لا أعرف اسم ابي ولا أعلم إذا كان قاطع طريق او خادماً علقت به إحدى النبيلات قولتني .

وأنت ترين يا سيدتي اني لست من الأشراف فينطبق علي حكمهم بحيث ان يحق لي أن ارتاب حتى بالملكات .

وبعد ، فما الذي يثبت لي ان أمي ليست من الملكات ، فان مجال الظن والافتراض متسع لدي وأنا ألج باب هذه الظنون كما يلج الناس الغابات الكثيفة في حنادس الظلام فلا يعلم كيف يصير .

نعم يا سيدتي من يضمن لي أن أمي . . تلك المرأة السافلة التي جعلت مهدي درجات كنيسة وحكمت علي بالموت وأنا لم أكد أولد .

من يضمن لي يا سيدتي ان هذه الأم لم تكن ملكة عظيمة ارادت بقتلي أن تدفن زلتها معي .

ومن انا يا سيدتي وأنت تريدين ان تجعليني من الملوك . .

اني ولد لقيط تعس أنكره أبوه وأمه يوم ولادته . يراه الرجل الشرير

فيأنف ان يصافحه ، واذا عامله الرجل الكريم بشيء من الخشونة كان كمن يحسن إلى فقير بصدقة .

لم أجد في الوجوه غير امرأة واحدة أشفقت علي وهي المرأة التي التقطتني من حيث كنت مطروحاً فحملتني بين ذراعيها وربتني كما ربت ابنتها وابتسمت لي ذلك الابتسام الذي كان يجب ان تبتسمه لي امي .

ولما نشأت وترعرعت وعرفت شأني ، جعلت تعزيني فكانت هذه المرأة يا سيدتي أماً حقيقية ، وهذه المرأة الصالحة هي ملكتي المطيعة ملكة الناقار .

ثم تسألين يا سيدتي اذا كنت أحبها . وكيف لا احب من كانت لي بمثابة أم وكنت مدينا لها بحياتي وتربيتي وعلمي .

اني اموت سعيداً يوم تقول لي مت من اجلي فان موتك مفيد لي .

وأنا عائش بقربها اراقب كل من يدنو منها ويريد بها شراً فاضربه بيد لا ترتجف .

وأما امي الحقيقية فكل ما اتمناه في هذا الوجود هو ان لا اعرفها .

ولما فرغ ديودات من كلامه تراجع خطوة إلى الوراء وضم يديه إلى صدره وجعل ينتظر .

وربما كان يرجو ان يسمعها تصيح صيحة اثر ولكنه كان يجهل هذه الملكة.

أما الملكة فانه لم يبد عليها شيء من علائم التأثير فنظرت إلى ديودات نظرة تكلفت فيها الأشفاق وقالت :

لقد علمت ايها الكونت ما عانيت من الشقاء وعلمت حبك لابنتنا هذه ملكة الناقار .

والذي اراه انهم لم يخدعوني بك فانك شريف القلب طاهر النفس كما وصفوك لي .

وقد سرني تعلقك بملكة الناقار وحبك اياها هذا الحب الصحيح فهذا ما

كنت أريد .

فاذهب يا كونت وستعود إلى المشروع العظيم الذي باحتنائك فيه ، واني لا ازال اراك خير كفؤ لارتقاء عرش الناقار إذا رضي هنري ان يتزوج بملكة أعظم .

اما الآن فيكفي ان تحرر ملكة الناقار بالشروط التي اقترحتها .

وقدمت الملكة له يدها ليقبلها حسب العادة .

ولكن ديودات لم يريدها دون شك فانحنى مسلماً وخرج ، وسقطت يد الملكة على الكرسي .

وكان الفلكي ، قد حاول ان يرافق الكونت ، ولكن الملكة اوقفته باشارة .

حتى اذا علمت ان ديودات بات خارج الباب أمسكت يد الفلكي وقالت له : انه عالم بالحقيقة

ـ لا أظن .

ـ واذا لم تكن انه عارف . اسرع بالاشارة .

ـ سيدتي . سيدتي انه ولدنا .

فجذبته بعنف إلى النافذة وفتحتها بيدها وقالت له : الاشارة .

فنفخ الأب نفخاً عظيماً وقال :

رحماك يا كاترين اصغي عن ولدنا .

فخافت الملكة ان يضيع الوقت بالرجاء والاستعطاف فانتشلت صفارة كان يعلقها في عنقه بسلسلة ذهبية وادنتها من فمها تريد ان تصفر بها .

فأسرع الفلكي إلى ايقاف يدها وقال لها بصوت منخفض ، انظري .

فنظرت كاترين من النافذة فرأت رجلاً قد انتصب إلى ديودات فتأبط ذراعه وسار وإياه .

وكان هذا الرجل بردالبان .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

فقالت الملكة بلهجة تشف عن الغضب الشديد : انه لم يأت وحده كما يظهر .

- نعم ، ولا بد ان يكون هذا الرجل في انتظاره ايضاً .. وفوق ذلك انظري ، فقد فات الأوان .

ثم تنهد تنهد ارتياح .

اما الملكة فانها اقت الصغارة بعنف شديد وقالت :

لقد افلت مني الليلة ، ولكنه لا ينجو من قبضة يدي ، فاني أعرف الآن أين يقيم .

انه يعرف كل شيء يا ربيبه ، ومن عسى ان يخبره غير ملكة الشافار ... انها هي التي اخبرته بلا ريب ...

ولكن هي نفسها كيف عرفت هذا السر .

يجب ان يموت هذا الرجل وتلك المرأة .

ثم دعت مضيفة وجلست في كرسيها وما لبثت هنيهة حتى استقر وجهها بذلك الابتسام الهادئ الذي يعرفه الفلكي حق المعرفة .

فدنا منها وقال لها هل أقرت سيدتي على امر ؟

- كلا . كلا .. ليدعوا كوليني وملك الشافار مطمئنين .. الا ترى ان هذا الرجل الذي خرج من هنا الآن سيذهب اليهم ويخبرهم اني عالمة بوجودهم في باريس وانهم سيعجبون لكرمي .

دعهم يتخبطون في ظلماتهم قسطاً لا يعلمي شيء حتى تطمئن قلوبهم كل الاطمئنان ، ويأتي جميع الموكينوت الى باريس . وعند ذلك .

وهنا سكتت ولم تتم جملتها ، ولكنها نظرت من النافذة نظرات تتقد ناراً فدهش الفلكي لهذه النظرات ولم يجسر ان يسألها .

وحده قاضيه
منتدى ليلاس

كيف كان يتسلى ابن اليمس

سار باردالیان مع دیودات فأوصله إلى منزل الأمير الكوليني وبلغوا اليه عند انتصاف الليل .

وكان ديودات متأثراً مما حدث فظريفه بكآبة وهما على الطريق ، ولكنه حين وصل الى المنزل دعا صديقه باردالیان الى الدخول معه فدخل .

ولما دخل ديودات كان الجميع نياماً فسأل خادم غرفة ملك الشافار أن يوقظه من نومه ، كما انه ايقظ كوليني ورفاقه .

وكان الملك نائماً نوماً عميقاً فلما ايقظوه وثب مرعباً من السرير وقبض على حسامه وهو يقول : العلهم يقتلون .

فأجابه الخادم : كلا يا مولاي ، ولكن الكونت دي ماربالياك يريد إخبار جلالتكم بأمر خطير .

فترك الملك حسامه وقد تنهد تنهد رضى وارتياح ، فقد كان صحا مضطرباً لاعتقاده إنهم لا يوقظونه إلا لشأن خطير ..

فانه كان يتذعر من منظر السماء ويخاف الجرائم ، ولكنه مع ذلك كان يقاتل خير قتال .

ولما صحا الجميع عقدوا جلسة فأخبرهم ماربالياك بأن الملكة كاترين تعرف أنهم في باريس واين يقيمون فيها .

فذعر الجميع وقال الأميرال : يجب ان نهرب .

فاعترضه الملك قائلا : بل يجب ان نبقى فإن كاترين لم تناوش هذا المنزل برجالها على عرفانها انها فيه إلا لسبب يجب ان نعرفها .

فقال له دبودات : لقد أصبت يا مولاي .

وعند ذلك أخبرهم بكل ما سمعه من فم الملكة .

وقد تناقش الحضور في أقوالها ، فاتفقوا ان تعلم ملكة النافار ، وهي رئيسة الحزب بكل ما جرى ، وكان اشد الحضور سروراً باقتراحات الملكة كاترين الأميرال كولبني فانه كان يذوب حنواً على إخوانهم المضطهدين في هولندا ويود من صميم قلبه مساعدتهم .

وعلى ذلك قرروا ان يسافر ماريليك عند الفجر ، أي حين تفتح أبواب باريس فيذهب الى الملكة ويخبرها بكل ما اتفق .

أما ماريليك فانه بعد ان فضت الجلسة ذهب الى صديقه باردالبان فوجده في الغرفة التي كان تركه فيها واخبره بقرار الجلسة ثم قال له :

- اسمع ايها الصديق ما انتظره منك ، إن غيابي قد يطول شهرا وقد أحسنت إلى نفسي كل الاحسان بتقديمك الى قيس في هذه الليلة

فاني ارجوك ان تذهب اليها ايها الصديق وتقول لها اني ذهبت لأرى ملكة النافار ، واني سأغتنم هذه الفرصة فأخبرها بحبنا

ومن المرجح ان الملكة ستحضر إلى باريس وعند ذلك لا يبقى مانع من عقد زواجنا .. هذا ما اسألك ايها الصديق ان تقوله لأليس ، ورجائي ان تخفف هذه البشرى تعب الفراق ، لاسيما وانت الذي سيزف اليها هذه البشرى

وأقسام الصديقان ساعة يتحدثان فيتكلم باردالبان عن لوزا ودبودات عن اليس

ثم افترقا ، فرجع باردالبان الى قصر موتورانسي لينام ، واما ماريليك فانه سافر عند الفجر كما تم الاتفاق .

* * *

بعد ذلك بعدة أيام انتشرت إشاعة في باريس مفادها ان صلح سانت جرمين الذي عقد بين الكاثوليك والهوكينوت قد تعزز وتأيد ، وان الملكة كاترين كانت أول من جاهر في البلاط بقولها : إن سفك الدماء في سبيل اختلاف المذاهب من الجرائم المنكرة .

وكان الملك يتلهى بالصيد وهو فرح القلب بهذا السلم ، خلافاً المتعصبين على الهوكينوت من عامة الشعب ورجال الدين فقد لزموا الصمت ، كأنما قد تلقوا الأوامر الخاصة وجوب السكوت .

ثم عقب هذه الاشاعات ، إشاعة أخرى ، وهي ان ملك النافار سيتزوج مرغريت اخت ملك فرنسا .

وانه ستجري حفلات عامة يشترك فيها الشعب بجملته ، وان ملكة النافار ستحضر إلى باريس بجفرها جميع من يوجد في المملكة من مشاهير الهوكينوت .

وقد كان انذهال الشعب عظيماً حين رأى البلاط الملكي رجع إلى خطة السلم ، واستقبالهم بعد ان كان عازماً على إبادة الهوكينوت . ثم عرفوا ان الأميرال كولبني قد حضر ، وان الدوق دي كيز نفسه أشد المتشيعين على الهوكينوت قد استقبل هذا الزعيم وصافحه

واكنا سنبين جميع ذلك في حينه ولنعد الآن إلى باردالبان فنقول :

انه كان يسير في باريس فيها كا يسير الثائه في الطرقات ، أو كالنسيم الأدراج في الفضاء وهو يبحث عن لوزا فلا يجدها .

وكان المارشال مونمورانسي أشد منه عناء ، فإنه يداً يفقد كل رجاء من وجود زوجته وابنته .

حتى انتهى باردالیان التكهن أن بمنقد ان لويزا وابنها قد أرسلتا إلى قرية من قرى الريف وسجنتا فيها .

وأما أبوه ، فإنه لم يقتصر على حرمانه مما وعده به من الأخبار ، بل انه توارى واختفى فلم يعد يسمع به ولا يراه .

وكان احتجاب ابيه مما يزيد في تكتيمه ، فخطر له مراراً ان يدخل الى قصر هنري بالحيلة ..

ولكنه كان كلما سار الى ذاك القصر يهذه النية رأى الأبواب والنوافذ محكمة الاقفال فيعود قانطاً حزيناً .

وقد ذهب في اليوم الذي سافر فيه صديقه ، يريدات لزيارة خطيبته اليس كما أوصاه .

فاستقبلته اليس بملء البشر والفرح ، وكان أول ما قالته سؤاله عن خطيبها وهل هاجه أحد عند خروجه .

فقال لها : إطمئني يا سيدتي ، لقد جرت الأمور وفقاً لما أراد ، ولم يهاجه أحد .

ـ ولكنك ، قد عدت الي وحدك كما أرى .

فأخبرها عند ذلك باردالیان كيف ان مورفر لقيها في الطريق ودعاها خطيبها إلى الذهاب معه إلى الملكة ..

فدهشت اليس وقالت : إلى الملكة ؟.. إلى الدوفر ؟.. ويلاه انه لا يخرج منه ..

ـ لم يذهب إلى الدوفر يا سيدتي ، بل إلى منزل عند الجسر الخشبي ، وقد خرج منه خلافاً لما تعتقدين سالماً آمناً ، وكنت انتظره عند الباب ، وصحبته إلى منزل الأميرال في بيتهيمي .

فقالت له اليس بلهجة المضطرب الخائف : أثم يخبرك الكونت بنتيجة هذه المقابلة الغريبة .

ـ نعم أخبرني ، فإن الملكة عهدت اليه بمهمة سرية إلى ملكة الناقار فاضطر الى السفر عند الفجر وكلفني أن أحضر اليك لتطمئني .

فاسفر وجه اليس وعضت شفتها وحمر في باقا كثير من السائل لم تجسر على قولها .

وكان باردالیان يراقب اضطرابها بامعان وكان من قبل مشككاً بها فزاد الشك توطيداً ورسوخاً في نفسه ، وعزم منذ تلك الساعة ان يراقب هذه المرأة كي يعلم حقيقة أمرها خدمة لصديقه

ولم يكن يروج باله من كل ذلك سوى ما رآه من انها تحب خطيبها بدليل الاخلاص والحنو حباً أكيداً لا ريب فيه .

غير ان اضطرابها كان يريبه ويعاد الى حديثه معها فقال :

ـ إنني لم افرغ من مهمتي بعد يا سيدتي ، فان خطيبك قد عهد إلي أيضاً ان أخبرك انه سيغتنم فرصة سفره إلى النـــاقار واجتماعه بالملكة ، ليخبرها بحبكما .

ولم يكد باردالیان يتم حديثه حتى جعلت اليس تنتفض انتفاضاً ، بيضاء بات وجهها كوجوه الأموات وقالت بصوت خافت :

ـ ويلاه لقد هلكت ..

فعجب باردالیان لاضطرابها وقال لها : يظهر يا سيدتي إنك لم تفهمي ما قلته ، فلا ريب ، فاني لم أخطىء التعبير ومراد صديقي الكونت ان يلتمس من الملكة الاذن له بزواجك حين رجوعه الى باريس وكنت أظن اني أحمل اليك خير بشرى

ـ نعم .. نعم .. إنها خير بشرى زاد اني أموت .

فذعر باردالیان ذعراً شديداً .. إذ رأى الفتاة قد سقطت على الأرض مغمياً عليها .

فنادى الخدم لإغاثتها ونظر اليها نظرة المشفق .

فرأى دمعتين تسيلان على وجهها المصفر وهذا كل ما كان يظهر من هذه المنكودة من دلائل الحياة .

قد قلنا ان باردالیان استنجد بأهل المنزل ...

فأسرعت اليه لورا مذعورة ، وهي كانت واقفة تستمع الى الحديث من وراء الباب ..

ولما رأت اضطرابه قالت له : لا تخف يا سيدي ، فان إبنة أخي يحدث لها مثل هذا الاغماء ، حين أقل حادث يؤثر عليها من حزن أو فرح ، ولكن هذا عارض يزول قريباً .

ثم خرجت العجوز ورجعت بشيء من الخل .. وجعلت تفرك به صدغيها ووضعت في فمها نقطة من زجاجة حتى استفاقت ..

وقالت لها العجوز : ماذا اصابك يا اليس .. لا شك انك تأثرت .. العلك فوجئت بخبر محزن ..

ففتحت اليس عينيها وقالت لها : كلا ..

- إذاً أكان الخبر مفرحاً ؟

فأجابتها بصوت خافت : نعم

وبعد هنيهة رجعت اليس الى ما كانت عليه من الشدة .

وحاول باردالیان ان ينصرف ولكنها منعته عن الذهاب فانها كانت تريد ان تعلم بالتفصيل كل ما جرى

فأعاد عليها باردالیان كل ما سمعه من الكونت تفصيلاً فكانت اليس تسمعه على الاصغاء .

ثم فارقها وانصرف وهو يفكر في امر هذه الفتاة .

وقد آلى على نفسه ان يكشف النقاب عن اسرارها لوثوقه من انها تكتم سراً خفياً

ولكنه حين رجع بعد بضعة أيام لزيارتها وجد باب المنزل وقد سدت مقفلة ، كما وجد قصر هنري .. فسأل الجيران عنها فلم يستطع احد ان ينبئه بالخبر اليقين ..

منتدى الليالي

وعلى ذلك فقد بات باردالیان وحيداً في باريس إذ لم يبق له غير المارشال فرنسوا ، فكان يقيم معه ساعات طويلة يضمان فيها خطط البحث عن الأسيرتين فلا تسفر خطة عن نجاح .

وكان باردالیان يسير في باريس تائهاً حائراً كما قدمناه وهو حذر من اعدائه يبحث عن الأسيرتين بحثاً دقيقاً فلا يجد اليهما سبيلاً .

ولم يكن يرى لحسن حظه احداً في طوافه من اولئك الذين كانوا يعتقدون انه من الأموات .

فاتفق يوماً انه بينما كان يسير هائماً سار دون ان يدرى الى اين يسير واجتاز الجسور وبلغ إلى جبل سانت جنفياف .

وجعل يتنزه هناك فرأى بيوتاً كثيرة قرب الدير ، وفي خارجها نساء يشتغلن بالأزهار الصناعية .

ووقف باردالیان يتأمل وينظر إلى اشغالهن بعينيه ، ولكن قلبه في غير ذلك المكان .

وفيما هو على ذلك حانت منه التفاتة فرأى غلاماً صغيراً يبلغ الخامسة من العمر عليه مخائل الذكاء ، ولكن هيئته تدل على الحزن .

وكان هذا الغلام يشتغل بجمع زهور شائكة فيجعلها طاقات وهو معجب

مسع الحامية .

ففي اليوم التالي لهذه الاهانة ذهب هنري لعيادة هذا الكونت الجريح ، وكان له معه حديث طويل جرى في خلاله ذكر باردالیان ، فعاد هنري بعد تلك الحادثة مفكراً إلى قصر مسيع وخلا بباردالیان فقال له .

أتعرف يا باردالیان من كان يوجد في تلك المركبة التي كنت تحفرها ؟

فارتعش باردالیان وقال : كلا .

– أتعرف أحداً يهمه أن يهاجمنا أو له فائدة في هذا الهجوم ؟

– إني استطيع ان أجيبك على هذا السؤال ، فإنك أنت الذي أخبرتني ، وأظن ان المهاجم كان أحد أنصار أخيك المارشال .

– نعم ثم ألم تؤكد لي أن ابنك لا يستطيع ان يكون في معيتي لأنه بمعية أخي .

– نعم ، ولكن هذه المسائل ...

– اصبر . وقد قلت لي أيضاً أنك طاردت الرجل الذي هاجم المركبة .

– نعم .

– وانك طعنته طعنة كانت القاضية .

– وهذا أكيد أيضاً .

– إذاً فاعلم ان هذا الرجل الذي طاردته وقتلته لا يزال حياً يرزق .

فوضع باردالیان يده على خنجره وحسامه كأنه يفتقدهما وقال أن هذا النبأ جديد لم أسمعه من قبل .

– واني أعرف غيره من الأنباء أيضاً ، أريد أن أخبرك بما أعرف .

– أكون لمولاي من الشاكرين .

– أتعرف اسم هذا الرجل الذي لم تطارده ولم تقتله ، بل تأبطت ذراعه وسرت وإياه إلى الحارة ؟

– يسرني أن أعرف اسمه يا سيدي .

– إذاً فاعلم انه يدعى الشفالييه دي باردالیان ، وهو ولدك الذي يرود كل يوم حول قصري ، والذي سأقبض عليه يوماً ، فأدعه يرصف في القيود .

– آهو باردالیان نفسه الذي أنقذك من القتل يا سيدي حين هاجمك اللصوص .

فوجم هنري إذ كان يتوقع ان يرى باردالیان مضطرباً خائفاً ، فرآه يهزأ به ثم بدت عليه دلائل الغضب .

فلما رأى باردالیان ذلك جرد نصف خنجره .

فقال له هنري لا تستاء يا باردالیان ولا تعجل بالاستياء ، فان الوقف متسع لديك ، وقل لي هل ما قلته لك أكيد .

– لا أجسر على تكذيبك يا سيدي بعد ان قلت ما قلته ، فقد قلت ان ولدي هاجمك ، وذلك ينبغي ان يكون ، وقلت اني صحبته وهذا ممكن .. فلم يبق علي إلا أن اهنئك لضبط ادارة الاستعلامات عندك ، فقد كنت أحسبك محاطاً بالأبطال والأشراف ، فإذا بأبطالك وأشرافك من رجال البوليس ، وكنت أحسبك من قادة الجيوش ورؤساء الأحزاب ، فاذا أنت من رؤساء الجواسيس

– باردالیان .

– مولاي ..

فجعل كل منهما ينظر إلى الآخر محدقاً إلى أن أطرق هنري بنظره فقال له باردالیان :

– ان كلماتي تسوءك يا سيدي المارشال ، ولكن ليس ذلك بذنبي .. وكيف يبدر منك مثل هذا التقريع . أتخاطر بان اكون عدواً لولدي من اجلك ، أي ذلك البطل الذي احبه واعجب به ، وابذل جهدي في

سبيل التوفيق بينك وبينه ، ثم قلومني لأني لم اقتل هذا الولد وهو ولدي ..

أن حسامي يا مولاي يخرج لنفسه من غمده فيقتل اولئك الذين وشوا بي اليك ، واما ان اقتل ولدي فليس ذلك مما يخطر للعقول السليمة .

فقال له هنري ليس هذا الذي أريده يا باردالیان .

– إذاً ماذا تريد .

– اريد ان ابنك لا بد ان يكون عارفاً من كان يوجد في المركبة .

– لا اعلم .

– كيف لا تعلم يا باردالیان فانه لم يكن عارفاً فقط بل انه اخبرك .

– انك منخدع يا سيدي .

فدنا هنري منه خطوتين مسرعاً ، ونظر اليه محدقاً كأنه يحاول ان يستخرج منه الحقيقة بهذا التحديق .

ثم قال بصوت يتهدج من الغضب :

– ومن يعلم فقد تكون متفقاً معه ، وقد تكون تبعتني واياه متلصصين متجسسين .

نعم ايها الرجل الأمين فانك خنتني وخدعتني ، وانت تعلم من كان موجوداً في المركبة ، وتعلم المكان الذي ذهبت اليه .

وبعد ان عرفت كل ذلك ذهبت مع ولدك إلى خمارة لا يجتمع فيها غير قطاع الطرق واللصوص ، فوضعتما خطة واتفقتما على ان يكون الابن عند فرنسوا مونمورانسي والأب عند هنري أخيه ..

ايها الرجل اني اعتبر عملك خيانة شائنة ، ومـــا انت وابنك إلا من الزعانف الأسافل .

فاصفر وجه باردالیان وقال :

يا حضرة الدوق دامفيل اني لا اعتبر كلامك اهانة لي مـــا زال قفاز اخيك على باب قصرك .

فزأر هنري زئير الضواري فمـــده الاهانة ، وانقض على باردالیان والخنجر مشهر بيده ، فقد تألم لاهانة باردالیان فوق تألمه لاهانة اخيه حين وضع القفاز .

وفوق ذلك فقـــد هاله اعتقاده ان باردالیان قـد عرف مكان الاسيرتين ، فـكان مصمماً منذ بدء هذه المقابلة على قتـل الأب ، ثم يحتال على قتل الولد .

ولذلك اتخذ اهانة باردالیان حجة لتنفيذ عزمه ، فلم يكد باردالیان يتم جملته حتى انقض عليه .

اما باردالیان فقد صبر إلى ان وصل هنري اليه فقبض على يده وضغط عليها ضغطاً شديداً فانتزع الخنجر منه وقال :

اني استطيع قتلك الآن يا سيدي وذلك من حقي ، ولكنني ابقيك حياً كي تمحو ذلك العار الذى وصمك به اخوك ، فاشكرني إذا كنت من اهل العدل والانصاف .

فرقص شاربا هنرى من الغضب وقال : بل انت الذى تموت ايها الشقي .

ثم جعل يصيح قائلاً إلي ... إلي ..

فقال له باردالیان : إذاً أنت تريد احداث معركة في غرفتك ... فليكن ما تريد ...

ثم جرد حسامه وتراجع خطوتين كالأسد يتحفز للوثوب ، ووقف وعيناه تتقدان ناراً .

وعند ذلك فتح باب الغرفة بعنف ، ودخل اليها كل من كان باقياً في القصر ، فنظر اليهم باردالیان فرآهم ستة ما عدا هنرى .

اما هنري فقد صاح بهم قائلاً :

– اقتلوه ... اقتلوه دون اشفاق .

فوثب باردالیان كالنمر إلى الجهة اليسرى من الغرفة ، ووضع حسامه في

فه عاضاً عليه ، واخذ كرسياً كبيراً ضخماً ورمى به المهاجمين

وكان باردالیان قد فعل ذلك محتالاً كي يهاجموه في الجهة اليسرى فيبتعدون عن الباب .

وقد نجحت حيلته فانه حين ابتعدوا عن الباب وهاجموه رماهم بذلك الكرسي ، وامتشق حسامه بيده ووثب إلى البـــاب ، فخرج منه وهو يضحك هازئاً .

وبعد لحظة بلغ إلى آخر السلم .

وهناك باب مقفل دفعه بيديه فلم يفتح .

فصاح هنري بالرجال الذين كانوا في أثره قائلاً :

ـ لقد ظفرتم به .. اقتلوه .

وكان هناك أيضاً جدار يستطيع ان يثب من فوقه فيهبط إلى الحديقة ويفر منها ، ولكنه لم يفطن له في تلك اللحظة وقد هاله اقفال الباب .

فوقف عند اسفل السلم وقال في نفسه انهم لا يستطيعون جميعهم أن يقفوا على درجة واحدة وسأقتلهم واحداً بعد الآخر .

وعلى كل فانه لا يموت قبل ان ينتقم لموته شر انتقام .

وعند ذلك هجم عليه الجنود فابلى فيهم بلاءً حسناً ، وكانت ساعة هائلة لم يسمع فيها غير صليل السيوف وشتائم باردالیان وتألم جرحاه .

إلى أن أصيب بطعنة في كتفه ، فصاح متألماً واضطر إلى الرجوع خمس خطوات ، ولم يكن قد رجع إلى الآن غير خطوة .

ولم يكن باقياً من مهاجميه غير ثلاثة ، فسقط واحد منهم وقـــد طعنه باردالیان طعنة بأس كانت القاضية .

ثم نقل الحسام من يده اليمنى إلى اليسرى ، وجعل يشتم شتماً قبيحاً فيقول:

خسئتم أيها الأوغاد .. ان سيدكم لم يعلمكم مقارعة الأبطال ، بل علمكم التجسس ... إلى الوراء أيها الأسافل .

ثم طعن أحدهم بسيفه فجرحه جرحاً بالغاً .

ولكنه شعر على أثر هـذه الطعنة ان صدره أصيب بطعنة مثلهـا فتدفق الدم من ذلك الصدر ، وبدت على هنري عـــلائم الفرح الوحشي فجعل يجمجم ويقول :

ـ اجهزوا عليه اقتلوه .

فهجموا عليه هجمة واحدة وجرحوه بيده اليسرى .

فنقل الحسام إلى اليد اليمنى وهي جريحة ايضاً .

وكثر تدفق الدم من صدره وكتفه ويديه ، وشعر بغمامة كثيفة مرت على عينيه ، وانه سوف يسقط صريعاً ، فثار به اليأس وحمل حملة هائلة فقتل واحداً من المهاجمين .

ولكنه خارت قواه بعد ذلك ، ورجع حتى التصق بالجدار .

وكان هنري قـد انضم إلى من بقي من الهاجمين ، فحملوا عليـه بحملتهم واصابه أحدهم بجرح آخر في رجله .

فجعل يزحف زحفاً على الجدار وهو يدافع ما استطاع الدفاع إلى ان سقط السيف من يده ، وشعر ان الجدار المستند اليه قد فتح وظهر منه منفذ مظلم فولج ذلك المنفذ وسقط مغمياً عليه .

فصاح هنري قائلاً :

ـ اقفلوا عليه باب القبو ودعوه يموت جوعاً فيه .

فامتثل الباقون واقفلوا الباب وساد السكوت في ذلك القصر .

* * *

أما باردالیان فانـه سقط صريعاً لا يعي ، فلو تبعه هنري لاجهز على مـا بقي من رمقه بطعنة خنجر .

ولكنه خشي عاقبة الدخول اليه في ظلام القبو ، وأيقن أن هذا القبو

يكون قبراً له ، وتجسمت في نفسه السافلة فظاعة الانتقام ، ففضل أن يقتله جوعاً وقال في نفسه : لا يمر ثلاثة ايام حتى يصبح جثة باردة فاطرحه في بئر السين طعماً لأسماكه .

وأما باردالیان فانه لم ينض به ساعة حتى استفاق من اغمائه ، فبدأ بتحريك يديه ، ثم رجليه ثم رفع رأسه وفتح عينيه ، ثم حاول الوقوف فلم يستطع ، فجلس على الأرض وحمل رأسه بين يديه فبقي مدة طويلة على هذه الحالة وهو لا يستطيع ان يستجمع افكاره .

واخيراً عادت اليه الذاكرة ، فكان أول مـــا قاله : إني لم أمت بعد والحمد لله .

وبعد هنيهة قال : إني لم أمت ، ولكني اخاف أن اكون دفنت حياً .

فذعر في البدء ذعراً شديداً لهذا الخاطر ، ولكنه مـا لبث ان تعزى عنه فقال : ولكني لا أزال حياً ويفعل الله ما يشاء .

وعنـد ذلك جعل يزحف متجولاً في هـذا القبو ، فايقن انه غير مقبور في لحد .

وكان الظلام حالكاً فجعل يقول في نفسه :

ولكن أين أنا الآن . . ولماذا وجدت في هذا المكان ... وماذا اعمل فيه ... رباه ما هذا العطش الشديد .. وكيف السبيل إلى الماء .

وكان يقول هـذا القول بلهجة المحتضر وهو يواصل الزحف فوق أرض القبو الرطبة .

وفيما هو يزحف عثرت يده على شيء بارد ، فعلم لأول وهلة انه زجاجة ... وخطر له في الحال خاطر سريع وهو انه في قبو لتخزين الخمور .

ثم بحث بيده ايضاً مستكشفاً فعثرت بزجاجة ثانية فثالثة .

فلم يبق لديه شك انها زجاجات خمر ، فأخذ احداها فكسر رأسها على الأرض وشم رائحتها فاستوثق انها زجاجة خمر وشرب مـــا فيها على نفس

لم يقطعه بسذة لا توصف ، حتى إذا اتم شربها ألقاهـا على الأرض ، وقال : بورك خمرة تحيي الأموات .

وعند ذلك شعر ان الروح قد ردت اليه وعادت اليه كل قوى ذاكرته .

فجعل يتذكر كل ما مر به فلم يفته شيء من تفاصيل تلك المعركة الهائلة .

ثم أخذ يفحص نفسه فحص الطبيب ، فاستنتج من فحصه ما يأتي :

أولاً انه مصاب بجرح في مؤخرة الرأس ، فعلم ان هذا الجرح لم يكن إلا بسقوطه في القبو .

ثانياً ان انفه وذراعه مرضوضتان ، وذلك أيضاً بسبب السقوط .

ثالثاً ان يده اليمنى مجروحة ، وقد ذكر ان الذي اصابه بهذا الجرح كان القيكونت اسبرمونت .

رابعاً جرح غير بالغ في اليد اليسرى .

خامساً جرح عميق تحت الركبة اليمنى .

سادساً تمزيق جلد في الكتف اليمنى .

سابعاً جرح عميق تحت الثدي الأيمن .

فلما اتم باردالیان فحص جراحه ، قرر انها جراح غير مميتة ، وقد روى غلته من الخمر وبقي عليه ان يشبع معدته من الجوع .

على أنه مع احتقاره لهـــذه الجراح لم يطل بـه العهد حتى أغمي عليه مرة ثانية .

ولكن اغماءه لم يطل هذه المرة ، فلما صحا عاد اليه ذلك الظمأ الشديد .

فعاد إلى شرب الخمر فانتعشت روحه وتجددت قواه واخـــذ يهتم بضمد جراحه

فمزق قميصه قطعاً وضمد بهـا تلك الجراح الدامية ، بما تعوده لكثرة ما أصيب به من الجراح ، فقد كان له جرح في كل منبت شعرة من جسمه فبات من أمهر الجراحين .

ولم يجد ماء يغسل جراحه فغسلها بالخمر ، ولا نعلم إذا كان الجراحون يوافقون على غسل الجراح بالخمر ، ولكن الذي نعلمه أن باردالبان بعد ان غسلها وضمدها كما تقدم أصبح يستطيع الوقوف والمشي كما يريد ، وقرر انه يشفى تمام الشفاء بعد أسبوعين .

وسار في أرض ذلك القبو ويداه مبسوطتان إلى الأمام كما يمشي العميان ، حتى وصل إلى زاوية فتوسد فيها ذراعه ونام .

ولما انتبه من رقاده جعل يتمعن في حالته وقال : إني قررت أن شفائي ممكن بعد أسبوعين ، ولكن ذلك لا يكون إلا بشروط أهمها أن أنام في فراش لين ، وأن أتغذى غذاءً جيداً قوياً ، وغير ذلك فأين أجد هـذا الفراش ، وكيف أظفر بهذا الطعام وأنا أوشك أن أموت جوعاً .

ثم نظر إلى ما حواليه محدقاً كأنه يحاول أن يخترق حجاب الظلام ، لكنه لم يستطع أن ينظر شيئاً ..

فقال في نفسه إني مهتم بأمر جراحي ، ومتى يكون شفاؤها وأمامي خطر الموت جوعاً ، فاني وجدت ما أشربه فأين أجد ما آكله في هذا القبو .

ويا خيبة الرجاء ، أأنجو من مائة كمين والف معركة ومائة براز لأموت جوعاً في هذا القبو المظلم .

وما هذا البرد الذي أشعر به فإن المكان رطب وأنا ضعيف ولا سبيل إلى الوقاية ، فلنصبر .

ثم جعل يتمشى حتى وصل إلى سلم القبو فصعد اليه وانتهى الى البـاب فوجده مقفلا وأيقن أن لا سبيل الى فتحه .

وقد خطر له انهم قد يفتحون هذا الباب ويدخلون اليه وهو نائم فيخنقونه فذعر ذعراً شديداً لهذا الخاطر ، وقد رضي ان يموت جوعاً ولكنه خاف أن يموت خنقاً ، فارتأى ان يحصن ذاك الباب حتى لا يمكن فتحه وهو نائم

دون ان يستفيق .

ورجع عن السلم إلى القبو وجعل يبحث عن مواد يضعها وراء الباب وكان كلما مشى بضع خطوات ، عثر بقناني الخمر ، فكرع كرعـة ورجع إلى التفتيش .

وفيما هو يفتش عثر بفخذ كبير من اللحم المقدد فقبض عليه بكلتي يديه وهو لا يصدق هذا الظفر وجلس لساعته على الأرض ، وجعل يأكل بشراهـة لا توصف لفرط ما نابه من الجوع .

ولا نخوض في وصف فرحه لهذه اللقية فانه مما لا يحيط به وصف ، بل نقول انه بعد أن شبع من طعامه قال في نفسه لقد وجدت الطعام والشراب وسأجعل فراشي من قش القناني فأشفى من جراحي في اسبوعين

ولم يبق علي الآن إلا ان احتاط لنفسي فلا أقتل غيلة ولا أموت خنقاً بعد أن أمنت الموت من الجوع

وعندها أخذ عدة زجاجات وذهب بها إلى الباب فوضعها وراءه بحيث انهم إذا فتحوا الباب يصدم القناني فتسقط على السلم ويخرج لهـا صوت يستفيق بعده إذا كان نائماً فيأمن الغدر .

وكان قد فقد حسامه ولكن بقي له خنجره يدافع به .

وقد اطمأن ومرت به الأيام وهو يأكل اللحم المقدد ويشرب الخمر ، حتى كاد اللحم ينفد ، فجعل يقتصد في الطعام ويستعيض عنه بالشراب .

الى أن وجد يوماً انه لم يبق لديه غير فخذ واحد فعادت اليه مخـاوف الموت جوعاً .

وكان قد مضى عليه في ذاك القبو نحو شهر وجعل يفكر بعـد ذلك في طريقة تمكنه من الفرار ، وكلما وضع خطة رأى ان تنفيذهـا محال إلى ان استرسل إلى اليأس وقال

– لم يبق لي غير طعام يومين أو ثلاثة ، ثم يبدأ الجوع ويعقبه ذلك النزع الطويل الهائل .

- ١١ -

ملكة النافار

بينما كان الكونت ماربلياك سائراً إلى ملكة النافار لينقل اليها أقوال كاترين دي مدسيس كانت ملكة النافار في الروشيل .

وهي مدينة حصينة كانت خير ملجأ للهوكينوت وصارت بعد مذبحة برتلماوس الشهيرة عاصمة البروتستانت .

وكانت ملكة النافار قد أعدت في تلك المدينة جميع معدات القتال ، وحشدت قواتها ووضعت خطة بسيطة تدل على الجرأة العظيمة .

وهذه الخطة منقسمة إلى قسمين ، فقد كانت عازمة على أن تجمع تحت أسوار الروشيل جميع من يوجد في فرنسا من البروتستانت ، كي تضرب بهم الضربة القاضية ، وتنال حرية الدين وحق المساواة بين البروتستانت والكاثوليك .

وعلى الجملة فإنها كانت تريد أن تندفع اندفاع القانطين ، فقد رأت ان الساعة قد اقتربت ، ساعة الانتصار او الموت .

وحين يجتمع هذا الجيش من أطراف البلاد وينتظم تتولى قيادته بنفسها وتزحف به إلى باريس .

وهذا هو القسم الأول من خطتها .

وأما القسم الثاني فهو أن تعمل في باريس نفسها عملا جريئاً يتفق مع ظهور جيشها عند أبواب العاصمة .

وهذا العمل الجريء هو اختطاف شارل التاسع ملك فرنسا من قلب اللوفر ونقله إلى معسكر الهوكينوت .

ولذلك ذهب ولدها ملك النافار والبرنس كونديه وكوليني إلى باريس خفية لاعداد معدات هذا الاختطاف .

وفوق ذلك فقد قررت أن يدخل نحو الف رجل من البروتستانت إلى باريس جماعات متفرقة ويجتازون تباعاً جميع الجهات الكائنة بين اللوفر وبين مونمارتر .

وهذا هو القسم الثاني .

أما نتيجة هذين القسمين فهي كما يأتي :

تظهر ملكة النافار عند أسوار باريس بجيش عرم يبلغ خمسة عشر الف مقاتل والفي فارس وعشرين مدفعاً .

فتقف هي في قمة مونمارتر وتشير إشارة خاصة فيسير ولدها هنري يتبعه البرنس دي كونديه والأميرال كوليني ، ويحيط به البروتستانت الذين دخلوا إلى العاصمة جماعات ، فيجتاز هذا الموكب المدينة ، إلى باب مونمارتر ورجاله يصيحون قائلين للباريسيين ان الملك شارل التاسع أسير في معسكر الهوكينوت .

وعندها يهاجم الجيش باب مونمارتر فتدخل ملكة النافار بجيشها الى باريس وتجتمع بابنها فيزحفون الى اللوفر ويحتلونه ويشترطون على الملكة كاترين شروط المنتصر الظافر

هذه هي خطة تلك المرأة التي كان يعدها معاصروها من مشاهير أهل الحرب ، وهي خطة لم يوحها غير اليأس .

وفي كل حال فقد رأى القراء ان القسم الثاني من هذه الخطة بدأ ينفذ فإن ملك النافار لم يتردد في الدخول إلى باريس سراً مع رفاقه ، وأخذ يبحث في الطرق المؤدية إلى اختطاف شارل التاسع ويحاول ان يضم إلى حزبه المعتدلين من الكاثوليك .

وكذلك المستائين من خرق معاهدة سانت جرمين واضطهاد الهوكينوت كفرنسوا مونمورانسي وغيره .

ولكن ملكة النافار وصلها في هذا الوقت نفسه كتاب من شارل التاسع أعاقها عن تنفيذ عزمها .

فقد أرسل اليها ملك فرنسا مع أحد رجال معيته كتاباً أكد لها فيه حسن نيته ورغبته الخالصة في توطيد أركان السلم ، ووضع حد لهذه الحرب الجائرة وطلب اليها أن تقابله في بلوا للمباحثة في شروط سلم دائم لا يبقى بعده سبيل إلى التنافر والخصام .

وقد أضاف إلى ذلك قوله انه سيخبرها شفاهاً عند المقابلة بما تضمن بعده توطيد السلام ، ويكون خير ضمانة لتأييده (وهو يشير بذلك إلى زواج ولدها بأخته) .

ولبثت ملكة النافار تعد معدات الحرب ، ولكن هذا الكتاب كان قد شغل أفكارها ، فاكتفت بأن تقول لمندوب الملك انها ستجيب جلالته .

وفيما هي على هذا الاهتمام أقبل الكونت ماريلياك إلى روشيل بعد أن اجتاز اليها ستة عشر يوماً من باريس .

وكان قلبه يخفق خفوقاً شديداً حين يفتكر انه سيقابل الملكة .

وإنما كان هذا الخفوق للمقاصد التي عزم على تنفيذها ، وقد وضع خطتها في الطريق .

وكان ديودات يحب ملكة النافار كما يحب الابن أمه وفوق ذلك فقد كان يعجب بها أشد الاعجاب ، ويخاف ان تؤنبه إذا بسط لها أفكاره ، وهو لا

يعلم ما يكون منها حين يخبرها بعزمه على الزواج بأليس .

وكان إذا جال في فكره هذا الخاطر لا يجد ما يحمل الملكة على معارضته في هذا الزواج . ولكنه كان يشعر بقلق خفي لا يعرف أسبابه ، ويحدثه قلبه بمصائب شتى كتبت له في لوح المقدور .

ولم يكن يفتكر بأصل اليس وعائلتها والسبب في قدومها إلى بلاد النافار بل كان يحبها حب عبادة ، وقد شغله التدله في هواها عن التساؤل عنها ومعرفة أحوالها .

أما الآن وقد عزم عزماً أكيداً على الاقتران بها فقد وجب عليه أن يتأهب لدفع اعتراض الملكة بالحجة إذا حاولت ان تعترض هذا الزواج .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان ديودات لم يسأل اليس سؤالاً واحداً عن ماضيها على طول صحبته إياها حذراً من ان يؤلم عواطفها ، فإن مثل هذا السؤال يدل على الشك والريبة وعلى انه غير واثق بمن يحب .

وعلى الجملة فانه لم يكن يعرف شيئاً من ماضيها ، ولا يشك بشيء من سيرتها ولكنه كان يعتريه مخاوف لا يعلم أسبابها .

فلما دخل إلى مدينة روشيل كان مضطرباً إضطراباً شديداً ، فكان أول ما عمله إنه سأل عن القصر الذي تقيم فيه الملكة وذهب اليها .

وقد نسي حين وقف بحضرتها كل مشاغله ، وظهر الفرح بين عينيه ، فمدت له الملكة يدها فقبلها بحب واحترام .

فقالت له الملكة : ما جاء بك يا بني ، ورجائي أن لا تكون قدمت بخبر سيء .

– كلا يا سيدتي ، بل هو عكس ما تقولين ، فان جلالة ملك النافار بخير وعافية ، ولا خطر يتهدده على الاطلاق وكذلك أعوانه .

فنظرت اليه الملكة نظرة حنو وقالت : العل ولدي أرسلك إلي ؟

– كلا يا سيدتي بل إني جئت مندوباً من الملكة كاترين إلى جلالتك .

ثم أخرج من جيبه كتاب الملكة كاترين ودفعه اليها فقرأته وقالت :

إذاً لقد رأيت أم ملك فرنسا .

– نعم يا سيدتي فتفضلي بسماع ما قالته لي :

وعند ذلك روى لها جميع ما كلفته الملكة كاترين بقوله مما عرفه القراء .

فلما أتم حديثه قالت له الملكة : ما كلفك يا كونت بحمل جوابي اليها كما إني سأعهد اليك أيضاً بحمل كتاب آخر إلى الملك شارل التاسع ، ومثله إلى ولدي الأميرال .

وسأفتكر اليوم وغداً باقتراحات الملكة كاترين ، وبعد غد أجمع المجلس ونتباحث مع اعضائه بهذه الشؤون الخطيرة .

وعلى ذلك فانك تستطيع العودة إلى باريس بعد ثلاثة أيام ، فاستريح يا بني في هذه الأيام الثلاثة وكن قريباً مني ما استطعت .

فانحنى ديودات بملء الاحترام وهو يعجب بتلك السكينة التي تلقت بها الملكة تلك الاقتراحات الغريبة التي يتعلق عليها مستقبل ولدها وجميع الهوكينوت .

وعادت الملكة إلى الحديث وقالت :

لندع الآن السياسة يا بني وحديث الحرب ، ولننظر في شأنك الخاص فقد اجتمعت بالملكة كما تقول .

– نعم نعم يا سيدتي إني رأيت أمي وعرفت هذه الأم ابنها الذي تنحت عنه .

– أأنت واثق من عرفانها انك ابنها .

إن أمي لم تذكر كلمة تدل على انها عرفتني ، ولم تنظر إلي نظرة تدل على الاشفاق .

بل إني قلت لها إني نشأت لقيطاً وذكرت لها كل ما عانيته وما أعانيه من شقاء هذا المولد الخفي .

وكنت أرجو من ذلك أن أرى في عينيها بارق حنو ، ولكنها لم تظهر شيئاً مما كنت أرجوه ، ومع كل ذلك أقول يا سيدتي ان أمي ..

وهنا توقف عن الكلام وقد بدت عليه علائم التأثر فقالت له الملكة : صبراً يا بني وتشجع .

– لقد قضي الأمر ولا ارى الملكة كاترين غير عدوة لي فقد ذكرت لك اقتراحاتها السياسية التي عهدت إلي بابلاغها ولكني لم اذكر لك بعد ما اقترحته علي .

فارتعشت ملكة النافار وقالت : ماذا اقترحت عليك .

– إنها عازمة على ان تعرض على ملك النافار عرش بولونيا بحيث تبقى ملكة النافار دون ملك .

– وبعد ذلك .

– وبعد ذلك يعين ملك للنافار بدلاً من إبنك إذا رضي إبنك أن يستبدل مملكته ببولونيا .

اما هذا الملك يا سيدتي ... اني لا أجسر ان أعيد هذا الخاطر الغريب الذي خطر للملكة كاترين ، فان هذا الملك الذي تريد تعيينه على النافار ، يا سيدتي هو انا .

ولبثت ملكة النافار مدة طويلة وهي مطرقة مفكرة تناجي نفسها فتقول :

– نعم لا شك انها عرفته كما يقول . إن هذه الملكة المتكبرة القادرة على نفسها مقدرتها على الناس قد عرفت ، بلا ريب ان ديودات الذي كانت تحسبه ميتاً لا يزال في قيد الحياة .. وقد تأثرت حين رأته ، ولكنها لم تظهر شيئاً من ذلك التأثر وبالغت في إخفائه حتى خفي عن ديودات .

نعم إن تأثرها كان شديداً حتى انها أرادت ان ترقي ولدها اللقيط إلى مصاف الملوك .

هذا ما كانت تناجي به نفسها ، أما ما اقترحته الملكة كاترين من أن تجعل

ولدها ملكاً لبولونيا، فلم تتردد لحظة في دفع هذا الاقتراح ، فان بولونيا أعظم من النافار ، ولكنها كانت تحب بلادها فلا تستبدل عرشها بأعظم العروش ولو كان عرش فرنسا .

أما ولدها هنري فقد كان على شبابه شديد المطامع وكانت أمانيه كلها ان يلقب يوماً بلقبين وهما :

ملك فرنسا والنافار .

وأما ملكة النافار ، فقد استنتجت بعد الامعان نتيجتين من اقتراح الملكة كاترين .

أحدهما ان الملكة كاترين تحب الكونت دي مارلياك حب الأمهات للأبناء وأن هذا الحب حملها على أن تجعله من الملوك .

والثاني انها كانت صادقة في جميع اقتراحاتها السلمية لأن مستقبل ولدها وهناءه موقوفان على هذا السلم .

وقد كان لهذا الاستنتاج تأثير يذكر ، فإن الملكة رضيت بعده ان تقابل الملك في بلوا، وأن تذهب إلى باريس ووافقت على زواج ابنها بأخت الملك .

فلما استقرت على هذه الأفكار رفعت رأسها بعد إطراقها فنظرت إلى مارلياك وقالت :

– ما رأيك يا كونت بهذا المنصب الملكي الذي عرض عليك .

فأجابها قائلا : أظن يا سيدتي انه يغير نظام حياتي ، فاني لا أبحث في المصاعب السياسية التي تعترض تحقيق أمنية أمي ولكني اقول اني غير أهل لمثل هذا المنصب فما خلقت لأكون ملكاً .

إني أبحث يا سيدتي عن الهناء في الحياة ولكني لم أجده إلى الآن ولا أخالني اظفر به إذا ارتقيت الى العروش .

وفوق ذلك فاني أذعر ذعراً لا يوصف حين أفتكر أني سأقيم في قصر ملكي وملكتي .

ولقد تجاسرتي يا سيدتي وتكلمت عن الهناء ، وأنا لم أعرف غير اليأس إلى الآن ، فهل يجد من كان مثلي هناء يعلق به كما يعلق الغريق بما يظفر به من أسباب الانقاذ ؟

لقد دنت الساعة يا سيدتي التي أبسط لك فيها خفايا قلبي لأنك أنت الوحيدة التي أرادت لي الخير في هذا الوجود .

– تكلم يا بني ، واعلم إني مصغية اليك إصغاء أم ، لا إصغاء ملكة

– إني أعرف ذلك يا سيدتي ، وهو الذي يطلق لساني في القول ... ولكن كلمة واحدة يا سيدتي ، تظهر لك ، كيف ان هذا القنيط القانط المنكود يجسر على ان يطمع بالهناء ، وهذه الكلمة يا سيدتي « إني أحب » .

فاستنار وجه الملكة فإنها طالما كانت تقول في نفسها عن ديودات « إن هذا الشاب القانط لا ينجيه من يأسه غير الحب »

ثم قالت له :

– أقسم لك يا بني إذا كنت تحب حباً نقياً خالصاً كما يحب قلبك الطاهر ، فقد نجوت وظفرت بما ترجوه من الهناء .

– نعم يا سيدتي أكون قد نجوت لأني حين كنت أفتكر بما أنا فيه لم يكن يرجى غير الموت .

فابتسمت الملكة ، كأنها أرادت ان تشجعه بهذا الابتسام وقالت له : والآن ؟

– والآن يا سيدتي أشعر ان الهناء ممكن في الحياة واني بت أحب هذه الحياة من أجل التي أحبها .

– لقد سررتني جداً ، يا بني ، لانك إذا كنت محباً ، فلا ريب أنك محبوب

– هذا الذي أظنه بل إني واثق من تبادل الحب بيننا .

– وهذا هو نعيم الحياة ، فلا هناء إلا للمحب المحبوب ، وأية سعادة أفضل من إمرأة تحبك فتشاركك في نعيمك أيام مسرائك وتعزيك في متاعبك أيام ضرائك بل هذا الذي كنت أتمناه لك حين كنت أراك كثيباً ... ولكن لم تقل لي اسم هذه الحبيبة .

فارتعش ديودات ورجعت اليه المخاوف الخفية التي كان يشعر بها في الطريق وأجاب الملكة قائلا :

– أنت تعرفينها يا سيدتي وقد كانت شقية مثلي ونالت من إحسان جلالتك ما نلت ، فهي ضعيفة لا سند لها ... هاربة من الاضطهاد .. وحيدة شريدة تولتها جلالتك بكرم تلك النفس الطاهرة التي تسدع الناس يحبونك بقدر إعجابهم بذكائك .

فقالت الملكة بصوت أجش : اليس دي ليكس .

فنظر ديودات نظرة نافذة إلى الملكة ، يريد ان يستطلع أفكارها ، ثم قال :

– نعم هي يا سيدتي .

فلم تجب الملكة ، وقد وقع هذا النبأ منها وقعاً شديداً ، لأنها كانت تشفق على اليس بعد خيانتها ، ولكنها كانت تشفق أيضاً على ديودات ، وتكره ان تزوجه من خائنة جاسوسة ، وتشفق عليه من اليأس إذا أخبرته حقيقة أمرها .

أما هو فقد أصفر وجهه لصمتها فقال لها : أنت لم تقولي شيئاً يا سيدتي ، فبماذا تفكرين ؟

فأجابته دون جفاء وقد أرادت المطاولة كي تجد جواباً صالحاً :

– يظهر انك شديد الاضطراب يا كونت ، بحيث أراك تقدم على سؤال ملكتك .

فانحنى وقال لها وهو يتلعثم : أسأل جلالتك العفو يا سيدتي .

لقد غفرت لك يا بني وفوق ذلك فإني طالما كلفتك من غير كلفة فلا عتب إذا نسيت مرة الواجبات .

وبعد ، فأنت سألتني عما أفكر باليس دي ليكس ، اليس كذلك ؟

– نعم يا سيدتي .

– إني لا أرى بها رأياً الآن لقد عرفتها زمناً قصيراً ولم أكلمها مدة إقامتها عندي غير عشر مرات .

فاشتد أسفه لما رآه من اضطراب الملكة وقال في نفسه : ما بالها متحيرة وهي لم تعرف الحيرة قبل الآن .

ثم نظر اليها وقال :

– سيدتي .. أتوسل اليك ان تأذني لي بأن أسألك سؤالاً ، تلتهب به شفتاي .

– سل يا بني ما تشاء .

– هل ترى سيدتي اني أسأت اختيار خطيبتي . .

فأطرقت الملكة برأسها لأن ديودات كان يسألها ، فإما ان تكذب أو تقول حقيقة هائلة .

ولما رآها ساكتة قال : إن سكوت سيدتي يدل دلالة صريحة على اني أسأت الاختيار وانها غير راضية عن خطيبتي .

– إني لم أقل شيئاً مما تظن وما أنا بغاضبة على اليس .

فركع ديودات وقال :

– إرحمي يا سيدتي رجلاً شقياً جعلك ملء قلبه ولم يجد إلاك نصيراً له في هذا الوجود .

كلمة يا سيدتي تكفي لهنائي فأتوسل اليك ان تقوليها .. أحق إنك غير غاضبة على اليس ؟

فلزمت الملكة الصمت ، وقد اضطربت اضطراباً لم تشعر بمثله في حياتها ، لأنها كانت تحاول ان تجد مخرجاً لديودات من هذا الغرام ، لاعتقادها أن اليس لا تحبه ، وإنها تعبث به لغرض من أغراض الملكة كاترين . فأحبت أن تفحص هذه المشكلة الخطيرة فحصاً دقيقاً ، فنظرت إلى ديودات وقالت له :
قم يا كونت واصغ إلي .

فنهض ديودات وهو يتمايل كالسكران ، والعرق ينصب من جبينه ، فقالت له الملكة :

– إني سأبرهن لك أيضاً عن عطفي عليك ، كما أعطف على ولدي هنري ، فاعلم إني لا أستطيع ان أجيبك الآن بشيء عن اليس ، ولا أستطيع ان أقول لك تلك الكلمة التي تريد سماعها ، قبل ان أرى اليس دي ليكس . وسأراها وأكلمها ، وبعد ذلك أجيبك يا ابني بما تريد أن تعلمه .

وإني آمرك ان تلزم السكينة الى أن أراها ، ولا يحق لك ان تفتكر اني غاضبة عليها او كارهة للزواج بها إلى ان أراها .

ثم إني أعيد عليك ما ذكرته ، وهو إني لم أعرف هذه الفتاة حق المعرفان ، ولا أحب ان تتزوجها قبل ان أعلم إذا كانت جديرة بك وبحبك ، فأين هي الآن ؟

فتنهد ديودات تنهداً طويلا وقال :

– إنها في باريس ، وهي تقيم في شارع لا هاش ، في منزل بابه أخضر قرب البرج الجديد .

– حسناً سأسافر غداً إلى باريس وستسافر معي ، اتتولى رئاسة حراسي . فاذهب الآن يا كونت وتأهب للسفر غداً .

فخرج ديودات مفكراً مهموماً وهو يقول في نفسه :

– لا بد ان يكون لأليس سر خفي لا تريد الملكة ان تقوله لي ...

ولكن الملكة تقول انها لا تعرفها ، أما أنا فقد عرفتها حق المعرفان ، والويل لمن يتهمها أمامي .

غير ان الغريب في كل مـــا أراه ، إني لم أذكر غرامي بها إلا للملكة ولباردالليان .

أما باردالليان فقد كنت أراه شبه الحائر حين أكلمه عنها ، وأذكر انه قال لي مرة هذه الجملة المبهمة وهي : « من يعلم ، فقد تكون عارفة بأمور تجهلها »

وما عسى ان تكون هذه الأمور التي تكتمها عني .

ثم كلمت الملكة بشأنها فقالت لي : إنها لا تعرفها ، وكيف لا تعرفها ؟ وقد كانت وصيفتها وأقامت في بلاطها عاماً كاملا . العلها تريد بهذا أنها عرفتها كثيراً .

لا ريب ان باردالليان والملكة يعرفان عنها ما أجهله .

ولكن ما عسى ان يعلماه عنها ، ومن يجسر على اتهامها إني أقتل الملكة وأقتل باردالليان إذا اتهماها فهي ملاك الطهر والعفاف ، وهي تحبني وأنا أحبها وأريد ان أحبها .

وقد ثارت الهواجس في نفس هذا المنكود ، حتى لم يعد يعلم ما يقول ويصنع .

وفي اليوم التالي رجع إلى الملكة ، ورأت آثار الاضطراب والتعب في وجهه ، فقالت في نفسها : ما عسى ان يحل بهذا المنكود ، إذا عرف الحقيقة بتمامها .

وقد اجتنبت محادثته عن اليس وأعطته التعليمات اللازمة بشأن السفر ، وختمت كلامها بقولها

– إننا ذاهبون إلى بلوا ، لأن شارل التاسع طلب مقابلتي في هذه المدينة ولا أحب الفرار من هذه المقابلة .

بل إني أريد ان أبذل كل ما أستطيع بذله في سبيل السلم قبل ان ألجأ مضطرة إلى تحكيم السيوف .

وبعد هذه المقـــابلة نذهب إلى باريس ، مهما كانت نتيجة مقابلتي مع الملك .

فإذا كان السلم قد تقرر ، ندخل تلك العاصمة بصفة رسمية ، او ندخلها منتكرين .

فـانحنى ديودات ، بدون ان يجيب ، وانصرف للاهتمام بعـدات السفر .

وبعد ذلك بثلاث ساعات ، كانت ملكة النافار مسافرة في طريـق بلوا ، يحفرهـا مائة وخمسين فارسـاً من الهوكينوت ، بقيـادة الكونت دي ماريلياك .

وفي اليوم نفسه كان شـارل التاسع وامه كاترين قد برحا باريس ايضاً ، إلى بلوا .

حيث ذهب اليها كذلك هنري دي نافار والبرنس دى كونديه والأميرال كوليني والقائد اندلوت .

- ١٢ -

انذهال جيل وجيلوت

عندما برح شارل التاسع قصر اللوفر ذاهبـــاً الى بلوا ، لمقابلة ملكة النافار ، لاحظ مستاء ان جميع حراسه كانوا من أشد الكاثوليكيين حقداً على الهوكينوت .

وقد أبدى هذه الملاحظة لأمه فدفعت اعتراضه بقولها : إني قد فعلت ذلك خاصة ليكون برهاناً على صدق نيتنا لدى ملكة النافار إذ سيكون شهود الصلح بيننا أشد الراغبين في الحرب .

وكانت بين حاشية الملك الدوق دي كيز وهنري دي مونمورانسي .

وكان هنري قد جاء بوكيله جيل ليلة السفر فخلا به خلوة طويلة وداوله بشأن الأسيرتين .

وقال له في الختام : إنك المسؤول عنهما ، واعـــلم ان الاحوال ستتغير قريباً ، وسيوافقني الملك بعدها على ما أريد ، فأرسل أخي فرنسوا يموت في أحد سجون الباستيل ، وأما الآن فيجب ان تكون حكيماً ، وان تراقب الليل والنهار .

فأقسم له جيل انه سيجد الاسيرتين بعد رجوعه حيث تركهما .

فقال له هنري : ثم أخبرك انه يوجد في القبو جثة يجب التخلص منها .

– ذلك سهل يا سيدي ، فإننا نخرج في ظلام الليل ونطرحها في السين .

فوافقه هنري باشارة من رأسه وافترق عنه .

وبعد سفر هنري مع الملك ببضعة أيام نادى جيل ابن اخته جيلوت وقال له : إننا سنهتم الليلة بمهمة صعبة وهي نقل الجثة من القبو .

فأجابه ابن اخته : اني أجد لذة بقضاء هذه المهمة ، وأتولى بنفسي دفن باردالیان .

– إذاً تحمله على مركبة وتسير به الى ميناء سانت بول فترميه في الماء وهو خير من ان تحفر له حفرة وتدفنه فيها .

فأظهر جيلوت سروره لهذا المشروع وجعل يسن سكيناً كانت معه .

فقال خاله : ما هذه السكين وماذا تريد بها ؟

– إني أريد قطع أذني هذا العجوز ميتاً ، فقد تهددني وهو حي بقطع أذني .

فضحك جيل ضحكاً شديداً .

– لماذا تضحك ؟

– اني تذكرت رأس هذا الشيطان المريد بدون اذنين .

فهز جيلوت سكينه بيده وقد أتم شحذها وقال لخاله هلم بنا .

فأخذ جيل حساماً معلقاً على الجدار ووضع في زناره خنجرين ، ثم ذهب مع ابن اخته الى الاصطبل ، فأخذا مركبة خشبية وربطا بها حماراً كي ينقلا الجثة عليها الى السين .

وقد وضعا على المركبة حجراً ضخماً وحبلاً كي يربطاه في عنق باردالیان لينحدر الى أعماق النهر .

وبعد ان أتما هذه المعدات سار جيـــل وهو مشهر بيده الحسام ، ويحمل بالاخرى مصباحاً

وسار ابن اخته وراءه وهو يجر الحمار والمركبة الى القبو المسجون فيه باردالیان .

ووضع جيلوت المفتاح في القفل وقد مثل له الوهم ان الجثة قد فسدت واخذت تسد انفه بيده وقال أف لهذه الرائحة الكريهة

ففعل خاله فعله وقد تم أيضاً بالوهم هذه الرائحة .

وبعد ان أدار المفتاح في القفل دفع الباب فلم يفتح ، فذعر وتراجع قائلاً ، ما هذا ؟

فأجابه خاله : إنه قد حصن الباب بلا ريب ، حين دخوله إلى القبو ، هلم نتعاون على فتحه .

فاندفع الاثنان على الباب برفسانه حتى تساقطت القناني من ورائه وفتح ، فدخلا إلى القبو وجعلا ينزلان درجات سلمه .

وكان جيل يتقدم ابن اخته وبيـده المصباح وقد كان واثقاً انه لا يلاقي غير جثة باردة منحلة ، فترك حسامه عند الباب ، ولكن ابن اخته لم يترك السكين ، فقد كان أقصى مراده ان يقطع أذني باردالیان ! فكان يمشي وراء خاله ويقول

– لا بد لي من قطع أذنيك أيها الجبار . ولكن أين أنت ؟

– سنجده وتهدينا اليه رائحته .

– لقد أصبت ثم رجع إلى سد أنفه .

وكان هذا القبو شديد الاتساع وفيه كثير من الغرف والمنعطفات ، فجعـل الاثنان يسيران ويفتشان .

حتى عثر جيل بقطع من العظام فقال : ما هذه العظام .

فأجابه ابن اخته بلهجة الأسف : لا ريب ان الجرذان قد أكلته وتركت عظامه وحرمتني من أذنيه .

– ولكنها ليست عظام إنسان أيها الأبله ، فهاتها

فالتقطها جيلوت عن الأرض ودفعها إلى خاله ، ففحصها وقال إنها عظام اللحم المقدد .

ـ أنظر إلى القناني الفارغة كيف تكدست فصارت كالجبل .
ـ ويح لهذا الشقي لقد أكل وشرب قبل موته كل ما في القبو .
فهز جيلوت سكينه وقال :
ـ الانتقام ... الانتقام !

ولبثا يفتشان نحو ساعة فلم يدعا زاوية في ذلك القبو العظيم إلا بحثا فيه دون أن يظفرا بشيء .

فقال جيل : ما هذه الغرائب وأين اختفى وليس في القبو منفذ .

فأجاب ابن اخته قائلا : إني أعيد ما قلته وهو ان الجرذان قد حرمتني من أذنيه .

ـ أصمت أيها الأبله ، على إني أود ان تكون صادقاً لتتخلص من عناء نقله إلى السين .

غير أنه كان حائراً في أمره ، واثقاً كل الثقة من أن باردالیان لم يخرج من القبو ، لأنه كان محصناً من بابه من الداخل ، ولأنه لا يوجد منفذ فيه .

وبعد ان يئس من وجوده رجع مع ابن اخته إلى الباب فشم وهو يتقدمه مطرق الرأس .

وصعد السلم حتى إذا وصل إلى الباب صاح صيحة هائلة لأنه وجده مقفلا وهو قد تركه مفتوحاً حين دخوله .

وقد خطر له بعد ذلك الرعب انه هو نفسه قد أغلق الباب ، ولكنه حين حاول فتحه ، وجده مقفلا من الخارج ، فصاح صيحة منكرة وأيقن أنه من الهالكين .

وكان ابن اخته قد أدركه وسمع الصيحة فقال :
ـ ماذا حدث ؟
ـ حدث اننا بتنا سجينين ، ولا بد أن يكون قد دخل إلى القصر

في أثرنا لص ، أو عفريت من الجن ، وأقفل الباب علينا ، وسنموت جوعاً في هذا القبو .

فذعر جيلوت ذعراً شديداً ولم يجب .

وعندها سمع الاثنان قهقهة من خارج الباب وصوتاً يقول : لا تخف يا جيلوت فسأقطع أذنيك

فجمد الدم في عروقهما إذ علما ان هذا الصوت صوت باردالیان نفسه وهما يعتقدان انه من الأموات .

وقد أصاب ظنهما لقد كان هذا الضاحك الهازىء باردالیان الأكبر وهو الذي أقفل الباب عليهما .

ولقد كنا تركناه في ذلك القبو ، وهو لم يبق غير قطعة واحدة من اللحم الجاف فكان يتوقع الموت جوعاً .

ولما أكل تلك القطعة وفتش القبو مائة مرة باحثاً عن غيرها دون ان يجد وثق كل الوثوق من الموت .

وعند ذلك عزم عزماً نهائياً ، وهو ان ينتقم من الموت بالموت ، فيتغذى بالحجر .

حتى إذا شعر بألم الجوع ولم يعد له طاقة على احتماله طعن نفسه بخنجره ، ومات مستريحاً بدون عذاب .

وكأنما هذا العزم قد أراح سره ، فجمع ما وصلت اليه يده من القناني ، ووضعها أكداساً واضطجع بقربها ، فجعل يشرب ويتلهى بالشرب عن الجوع .

وقد مر به عدة ساعات دون ان يذوق طعاماً ، فلما رأى انه لا نجاة له من الموت ، وان الجوع يعض أحشاءه سهل له السكر الانتحار ووطد نفسه على الموت ، و جرد الخنجر يريد الانتصار .

ولكنه سمع في تلك اللحظة صرير مفتاح في قفل القبو ، فوثب إلى السلم

حتى وصل إلى الباب ووقف وراءه يسمع ما يقال .

ولقد سمع محادثة جيسل وابن اخته ، فسر سروراً لا يوصف ، وجرد خنجره ، ووقف كامناً وراء ذلك الباب ، وهو ينتظر أن يتمكنا من فتحه .

وبعد هنيهة فتح الباب ودخل الاثنان دون ان يريا باردالیان .

وكان باردالیان عازماً على قتلهما ولكنه حين رأى أنهما مرا به دون أن يريا خطر له خاطر سريع .

فتركهما حتى توغلا في القبو فخرج هو منه آمناً مطمئناً بملء السكينة وأقفل الباب بمفتاحه .

وعندما تنفس تنفساً طويلا ، وكان أول ما خطر له ان يبتعد عن ذلك القبو الذي كاد يكون قبره .

ولكنه تذكر انه لا يوجد أحد في القصر ، وأن لا خوف عليه من البقاء .

فأحب ان يعلم ما يكون من السجينين حين يعلما بسجنهما .

حتى إذا عاد التعيسان إلى الباب ، وضحك عليهما كما تقدم ، اكتفى بذلك وانصرف .

- ١٣ -

الاب والابن

كان باردالیان الأكبر على قصر مدة إقامته في قصر هنري عارفاً بجميع مداخل القصر ومخارجه .

فقد كان من عادته ، ان يدقق البحث في كل مكان ، يحاول ان يسكنه .

ولما ترك القبو ، وغادر ذينك الشقيين في أشد حالات النكد ، صعد إلى غرف القصر وجعل يتفقدها غرفة غرفة .

ولقد كان يعتقد ان له الحق في تفتيش القصر . وسواء كان مخطئاً او مصيباً في اعتقاده ، فانه جعل يطوف مفتشاً وهو لا يعلم في البدء ماذا يريد وعن أي شيء يبحث .

إلى ان رأى مرآة فنظر نفسه فيها فرأى انه حاسر الرأس وان ملابسه مقطعة وقد صبغت صباغاً مختلف الألوان بما علق عليها من الوحل والدم والخمر والدهن ، وانه لم يكن لديه حسام .

ثم رأى جراحه قد ختمت ولم يبق منها غير أثر جرح في أنفه .

فقال في نفسه لنبدأ بالترتيب . ثم دخل توا إلى الغرفة التي ينام فيها هنري دي مونمورانسي .

وهناك رأى خزانة كبيرة للملابس مقفلة فأخذ خنجره وكسر بها قفلها ،

فتحت ورأى فيها جميع الملابس على اختلافها .

فخلع ملابسه حتى بات عارياً ولبس من تلك الملابس ما اختاره وهو ينظر إلى نفسه باسماً معجباً .

ثم خرج منها إلى غرف الضباط فاخذ من غرفة درعاً ومن غرفة اخرى حذاء رقيقة جميلة مزينة بالريش .

وخرج منها إلى قاعة السلاح فتقلد خير حسام وجده فيها .

وبعد ان أتم ملابسه وعدته جعل يواصل تفتيشه حتى دخل إلى غرفة منزوية فاستلفت انظاره فيها صندوق ضخم فحدثته نفسه بفتحه .

فاخذ يعالج اقفاله حتى فتحها فدهش ووقف حائراً مبهوتاً إذ رأى فيه من الذهب ما يدهش الأبصار .

وبعد أن تاب من دهشته حك انفه وقال .

اني لست من اللصوص فاسرق دنانير هنري دي مونمورانسي ولكني اعتقد ان هذا الرجل مدين لي بغرامة حربية فاني صاحب النصر الآن .

وقد بقي ان أقدر هذه الغرامة دون أن يصيبه او يصيبني شيء من الحيف فلابد لهذا التقدير من ملابسي .

ولا انكر اني استبدلت ملابسي بسواها ولكني كنت شديد الاعجاب بملابسي لا اريد استبدالها .

وفوق ذلك فان هذه الملابس الجديدة ترعجني فلنجعل قيمة التعويض عن هذا الازعاج مائة دينار .

ثم اني مصاب بعشرة جراح فلنجعل ثمن كل جرح عشرة دنانير ، فيكون المجموع مائة دينار ، ويكون كل المجموع مائتي دينار وليس في ذلك شيء من الغبن .

ولكن ليس هذا كل ما يجب نيله من التعويض ، فقد بقي الاضطراب الذي اصابني ، فلنجعل ثمنه ١٨٠٠ دينار ، ثم نضيف الف دينار ،

مقابل اقتصاري على أكل اللحم المقدد ، فاني سأحتاج دون شك الى طبيب يعالج معدتي .

وعلى ذلك تكون جملة الغرامة ثلاثة الآف دينار وواللهِ ليس ذلك بالتعويض الكثير فلو تأخر قدوم جيل لحظة لكنت قتلت نفسي .

ثم أخذ المبلغ الذي عينه لنفسه فوضعه في منطقته وأقفل الصندوق وخرج من تلك الغرفة وهو مقلد حساماً مرهفاً وقد حشا جيوبه بالدنانير .

ولبس ملابساً جديدة من الرأس إلى القدم وسار متجهاً إلى باب القصر الكبير وهو يمشي معجباً مختالاً بملء النشاط كأنه من الفتيان وخرج من ذلك القصر الذي كاد يلاقي فيه الموت .

وكانت الشمس قد اشرقت حين خروجه فسار وهو يقول في نفسه ، ترى ماذا حدث في خلال سجني في القبو ؟ وما بال قصر هنري خاوياً خالياً وأين هو هذا المارشال ؟ وماذا جرى لولدي .

ولبث يسأل نفسه هذه الأسئلة حتى وصل إلى فندق دافنير ، فعلم من صاحبه ان الملك سار بجيشه إلى بلوا كي يعقد الصلح بين الكاثوليك والهوكينوت .

ثم قال له صاحب الفندق وهو ينظر اليه معجباً ، اسمح لي يا سيدي ان اهنئك فان هيئتك تدل على انك في أحسن حال .

– هو ذاك يا لاندري فقد سافرت سفراً كان رائدي فيه حسن التوفيق .

أتعلم كم كانت مدة هذا السفر .

– انك يا سيدي كنت عندي منذ شهرين وهي آخر مرة زرتني فيها ، وطعنت الفيكونت تلك الطعنة .

– قال عجباً كيف تمضي الأيام (ثم قال في نفسه لقد فاتني أن اضيف حساب الغرامة مدة هذا السجن فانها تسوي الف دينار على الأقل) .

وعاد إلى محادثة صاحب الفندق فقال له :

– إني توفقت في هذه الرحلة ، كما قلت لك ، وسأدفع لك ذلك الدين القديم

فبرقت أسرة صاحب الفندق سروراً وقال : ما شككت مرة يا سيدي انك من أشراف الناس .

– قل لي إذاً كم يبلغ ذلك الحساب

وجعل ينظر عرضاً إلى الشارع

فأجابه صاحب الفندق قائلاً : إنك مدين لي يا سيدي ..

ولكنه قبل أن يتم جملته صاح باردالبان فجأة وقال : ايها الشقي اني مجازيك عن خيانتك .

ثم اندفع الى خارج الفندق راكضاً ، ووقف لاندري ينظر اليه منذهلا مبهوتاً إلى أن توارى عن الأنظار .

أما باردالبان فانه بينما كان يطلب الى صاحب الفندق بيان حسابه ، رأى الفيكونت اسبرمونت ماراً في الشارع ، فأسرع اليه يريد قتله لوثوقه أنه هو الذي وشى به الى هنري مونمورانسي ، تلك الوشاية التي سجن من أجلها شهرين .

وكان الذي رآه باردالبان الفيكونت نفسه ، ولكنه كان مستعجلا كما يظهر .

ولما خرج باردالبان من الفندق لم يدركه ولم يره .

وبحث عنه في المنعطفات الأربعة ، فلم يجد له أثراً ، فشتم شتماً قبيحاً ونسي صاحب الفندق ، وذهب توا إلى قصر مونمورانسي كي يرى ولده فيه وهو يقول :

– أرجو أن لا يكون أصيب بمكروه ، فاني بت أعتقد أن أسرة مونمورانسي أسرة شر ، وقد لقيت من هنري ما يثبت هذا الاعتقاد فحسبي أن لا يكون أخوه مثله .

ولما وصل إلى قصر فرنسوا وجد فيه ولده سالماً آمناً فعانقه بلهف .

وبعد هنيهة سأل ابنه قائلا : أين كنت يا أبني وما أصابك ؟

– سأروي لك حديثي فاخبرني الآن ما أصابك أنت .

– لم أصب بشيء كما تراني .

– بل أراك ناحلا حزيناً وما تعودت أن أراك على هذه الحال ..

– أرو لي قصتك يا أبي في البدء ثم أروي لك قصتي .

فقص عليه أبوه عند ذلك جميع ما اتفق له بالتفصيل .

فضحك باردالبان الأصغر وقال : إذاً ... لقد بات الآن جيل وجيلوت في مكانك !.

– نعم ، والفرق بيننا انني كنت أتغذى باللحم المقدد وسيتغذون بما تركته من العظام .

– ولكن يجب إنقاذ هذين المنكودين يا أبي فانهما لم يعملا إلا بأمر سيدهما ولا حرج عليهما فيما أرى .

– ما هذا يا بني العلك جننت ، وكيف تطلق سراح جيل فيذهب توا إلى مولاه ويخبره بما جرى ومن ينقذني منه بعد ذلك ؟

ان هنري يعتقد الآن إني ميت ، ولا بد لي من ابقائه على هذا الاعتقاد إلى أن أجد مخرجاً من هذا الخطر .

أما جيل وابن اخته فهما شقيان لا يستحقان الرحمة وحسبك ان جيلوت أسف حين اعتقد ان الجرذان اكلتني ، لأنه كان يود قطع اذني ، فلا أجد بداً من قطع أذنيه ، فلندعهما الآن في شأنهما ولنبحث في شأنك ، فقل لي ماذا حدث لك .

– إنك تعلم يا أبي السبب في حزني .

– نعم ... فهو قاتك المرأتان ، الا تزالان أسيرتين ؟.. ألم تعلم مكانهما ؟

– كلا ، وأسفاه فقد نقبت مع المارشال فرنسوا جميع باريس ، حتى يئست من لقائها ، ثم لما رأيت انك لم تعد إلي عوات على أن أبرح باريس وان أطوف البلاد هائماً على وجهي ، غير اني أشفقت على المارشال فإن اليأس يكاد يقتله ولم أستطع فراقه .

– قسماً ببيلاطس .. قسماً بباراباس .. قسماً بقرون الشيطان .

– ما بالك يا أبي ، وماذا جرى ؟

– وجدت .. وجدت !

– ماذا وجدت !

– وجدت مكان الأسيرتين ، أو طريقة معرفة ذلك المكان ، وكلاهما واحد ..

فاصفر وجه باردالیان وقال : إحذر يا أبي أن تفرحني فرحاً كاذباً .

– لقد قلت لك ، اني وجدت الطريقة ، فما بالك تضطرب هذا الاضطراب ؟

نعم ، لقد نسيت انك تحب لويزا ، ويحق لي أن أنسى ، فان هذا الحب لا يخطر في بال أحد من العاقلين .. على انك تريد أن تتزوجها بعد أن تجدها ، فلا بأس تزوج وأنا موافق على هذا الزواج ..

– أتهزأ بي يا أبي .

– قطع الله لساني إذا كان يهزأ بك يا بني .. ونعم إني حذرتك من النساء ، ولكني لما رأيتك علقت بالشراك ، ولا سبيل لانقاذك رأيت انه لا بد أيضاً من موافقتك على هواك وستتزوج لويزا .

فأجابه باردالیان بصوت يتهدج . أبي إن ذلك لا يمكن ان يكون ، أنسيت إنها ابنة فرنسوا دي مونمورانسي .

– ماذا تعني ؟

– أعني إنها ابنة أشهر وأشرف رجل في فرنسا فلا يزوجونها بمثلي .

– أرى أن رأسك قد طاش يا بني .

– هو ذاك فان من يكون مثلي ويخطر له أن يصاهر مثل هذا النبيل الذي تصاهره الملوك فما هو إلا من المجانين .

فأخذ الأب يد ولده بين يديه وقال له :

لقد قلت لك يا بني انك ستتزوجها ، واذا تم هذا الزواج بينكما كان الشرف لأسرة مونمورانسي ، فان من كان مثلك يعادل الملوك .

وأريد بالملوك أولئك الملوك القدماء الذين كانوا يستحقون الرقي إلى منصب الملك ، بما كان يبدو منهم من الشجاعة والكرم .

ولا تحسب أن حنوي الأبوي يعميني عن الحقيقة ، فأنا أعلم منزلتك وأثق بأن المارشال يقدرك حق قدرك وستتزوج لويزا كما قلت لك .

فهز باردالیان رأسه ، إذ كان يعلم أكثر من أبيه ، ذلك الحاجز المنيع الكائن بين مثله ومثل اسرة مونمورانسي .

ولكنه كان قد صمم النية على أن يحب تلك الفتاة حباً خالصاً من الأغراض وأن يخدمها بملء الاخلاص ، فأجاب أباه قائلاً :

يجب أن تبدأ يا أبي بايجاد الفتاة وأمها .

– لقد اصبت يا بني .

– أما قلت إنك تعرف مكانهما .

– كلا ، بل قلت إني اعرف طريقة الاهتداء إلى المكان ، فاذهب واخبر المارشال .

– كلا ، هلم بنا نذهب معاً فإني أحب أن أكون أنا الذي يعيد اليه ابنته .

– هلم بنا يا أبي .

وخرج الاثنان وباردالیان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن أباه سيكتشف مكان الأسيرتين لما رآه من لهجته .

وفي الطريق قال الأب لابنه :

– يوجد يا بني رجل لا بد أن يكون عارفاً مكان الأسيرتين ، وهو وكيل هنري وكاتم اسراره .

– أهو جيل ؟

– هو بعينه .

– لقد أصبت يا أبي فلنسرع اليه .

– انه اسيرنا فلا تخف .

– إني أخاف أن يكون وجد منفذاً في القبو خرج منه .

– اطمئن يا بني فإني بحثت في هذا القبو الهائل فلم أجد منه مخرجاً ، ومع ذلك فقد اشفقت عليه في البدء واردت اطلاق سراحه .

على أن هذا الأب الحكيم خشي أن يكون لهذا القبو باب سري ، فوافق ولده على السرعة .

* * *

وبعد هنيهة وصلا إلى قصر مسيو ودخلا اليه من الحديقة ، فذهبا إلى القبو ووجدا المفتاح لا يزال في القفل .

فأراد باردالیان ان يفتح الباب ، ولكن أباه منعه وقال صبراً : ووقف مصغياً عند الباب .

أما جيل وجيلوت فانهما سمعا من داخل القبو وقع اقـــدام عند الباب ، فجعل جيل يصيح بأعلى صوته قائلا : افتحوا بحق السماء

فغير باردالیان الأكبر صوته وقال : من أنت ؟

قال أنا جيل وكيل سيدي الدوق دامفيل حبسنا في هـــذا القبو لص من الأشقياء .

فضحك باردالیان الأكبر ضحكاً عالياً وقال : كفى .. كفى .

فأن جيل أنين الموجع وقال : هو بعينه .

إنك لم تخطيء يا حضرة الوكيل ، فقل لي كيف حال ابن اختك فقد جئت لاقطع اذنيه ، وأما أنت يا جيل فاصغ إلي .

– إني مصغ اليك يا سيدي فقل ما تريد .

– إني اشفقت عليك من الموت في هذا القبو ولذلك عدت اليك .

– أشكرك يا سيدي وأسأل الله أن يكافئك عني .

– وتمثل لي إنك ستموت جوعاً ، فكرهت لك هذا الموت الشنيع .

– وأي موت اشنع منه يا سيدي .

– أعرف طرقاً كثيرة للموت ، مثال ذلك إنك ترى في جدار ذلك القبو الذي انت فيه مسماراً غليظاً ناتئاً ، ولدي حبل شديد فاذا علقت الحبل بهذا المسمار وربطته بعنقك كانت الميتة اقطع .

– رباه ما تقول العلك تريد شنقي .

– إني أريد انقاذك من الموت جوعاً ايها الناكر الجميل ، وأمـا ابن اختك فاني لا أصيبه بأذية سوى إني اكتفي بقطع أذنيه .

وعند ذلك فتح باردالیان الباب ودخل مع ابنه ، فرأى جيل راكعاً على السلم وقد أصفر وجهه كالأموات .

فنظر باردالیان إلى ابنه وقال له : قف عند هذا الباب ، فإذا حاول أحد هذين الشقيين الخروج منه فاقتله دون اشفاق .

فصاح الوكيل اسألك العفو والرحمة يا سيدي .

– ولماذا ، العلك خفت من الموت .

– وأي عاقل لا يخافه .. رحماك لا تقتلني .

– إذا كنت تخاف الموت كما تقول فاني أدلك على طريقة للافتداء .

– قل يا سيدي كل ما تريد وسلني كل ما جمعته من المـــال منذ خلقت أعطك اياه واني من الاغنياء .

– أنا لا أريد مالك .

– إذاً ماذا تريد .. سل ما تشاء .. لقد خفت ، بربك اصفح عني

– لا تخف فاني لا اقتلك جوعاً ولا اشنقك ، بل اني اطلق سراحك في الحال ، ولكن بشرط واحد .

ففرح جيل فرحاً لا يوصف وقال ما هذا الشرط يا سيدي .

– أريد ان تقول لي أين مدام دي بيانس وابنتها .

فنظر جيل إلى باردالبان نظر الأبله وقال : أهذا الذي تريد ان تعلمه مقابل انقاذ حياتي .

– نعم وانت ترى انه شرط سهل ميسور .

وكان جيل راكعاً أمام باردالبان ، فوقف عندذلك وقد زال ارتعاشه فقال بلهجة تدل على العزيمة والثبات .

إذاً اقتلني فإني لا أقول شيئاً ولا تعلم مني هذا السر .

فغضب باردالبان الأكبر غضباً شديداً وصاح بابنه قائلاً .

– هات الحبل يا شقاليبه .

ثم أمسك جيل وجره جراً إلى مكان المسمار وقال له : أترشدني إلى محل الأسيرتين ؟ إني سأمهلك دقيقة للتفكير .

فقال له جيل : أرى أن ليس لديك حبل ، فإذا كان ذلك فاعلم انه يوجد حبل في تلك المركبة الواقفة عند باب القبو ، وقد كنت جئت بها لانقل جثتك عليها إلى السين ، فقل لرفيقك يحضر ذلك الحبل واشنقني به ، فاني لا أبوح بحرف .

فقال باردالبان كأنه يخاطب نفسه والله ان هذا الرجل شجاع ويسومني أن أقتله ثم جرد خنجره وقال :

– ان من كانت له بسالتك لا يجب ان يموت شنقاً ، ولكني سأقتلك بهذا الخنجر إذا لم تقل .

فمزق جيل صدرته بحركة عنيفة وقال :

– هوذا قلبي فاطعنه ، ولكن رغائب الناس مقدسة في ساعة الموت ، فارجوك أن تخبر الدوق دامفيل بعد قتلي اني مت وفياً بعهده أميناً على سره واني مت في سبيله .

فذهل باردالبان وابنه ذهولاً عظيماً ، فان هذا الرجل الذي هلع قلبه من خوف الموت في البدء ، يعرض صدره الآن للخنجر غير وجل و هياب .

ونظر باردالبان الأكبر إلى ما حواليه فرأى جيلوت قد خرج من زاوية وهو يرتعد خوفاً .

فقال له لا تخف أيها الأبله فانا لا نريد قتلك ، ولكننا بعد قتل خالك نكتفي بقطع أذنيك .

فارتعش جيلوت وقال : إني عارف بغيتك والذنب ذنبي ، فقد نويت لك هذه النية من قبل ، ولكني أحب أن تبقي لي أذني ، فأتيت أساومك في سبيل استبقائها .

– قل .

– إني أعرف مكان الأسيرتين اللتين تبحثان عنهما .

فقال له جيل منذعراً . أنت تعرف مكانهما أيها الأبله .

فقاطعه باردالبان قائلاً : كلا ، ليس هو بابله وما الأبله إلا من لا يعرف أن يصون نفسه من الأذى .

فقال جيل : انه كاذب أثيم .

ثم حاول أن ينقض على ابن أخته ، ولكن باردالبان الأكبر قبض على عنقه وسلمه إلى ابنه والتفت إلى جيلوت فقال له : تكلم .

فعاد جيل إلى الصياح قائلاً : إنه كاذب يريد أن يخدعكما .

فأجابه ابن اخته قائلاً كلا ، إني لست بكاذب ، فإني أنا أعددت المركبة

لنقل الأسيرتين ، وأنا الذي تبعتها في الليل حتى عرفت المكان الذي وقفت فيه وأنا مستعد لإرشاد هذين السيدين إلى مكانهما .

فقال له الشفالييه باردالبان : أين هو هذا المكان .

– في شارع لاهاش .

فخطرت لباردالبان اليس دي ليكس ، عند ذكر هذا الشارع وقال شارع لاهاش ؟

– نعم يا سيدي .

– في أي مكان منه فان الشارع كبير .

– أن معرفته سهلة فهو كائن في عطفة الشارع من جهة تراقزين ، وله حديقة بابها أخضر ، وليس في الشارع بيت يشبهه .

فقال باردالبان الأكبر : هلم بنا يا بني ولنسرع في انقاذهما .

ولكن الشفالييه لبث واقفاً في مكانه وقد اصفر وجهه .

فقال له أبوه : ما بالك واقفاً العلك مرتاب بصدقه ، فإذا كان ذلك فلنأخذه معنا .

– كلا ، فاني واثق من صدق ما يقول .

وليث ساهماً حائراً فانه تمثل له ان اليس دي ليكس شريكة هنري في جرائمه ، واشفق على صديقه ديودات لوقوعه في شرك هذه المرأة فقال لأبيه : هلم بنا فاني سأعرف الحقيقة منها إذا وجدتها .

فلم يفهم أبوه شيئاً من مراده ، ولكنه عزم على أن يتبعه ، فنظر إلى جيل وجيليوت وقال لهما .

– إذهبا فقد أطلقت سراحكما وليشنقكما غيري .

فأجابه جيل : هو ذاك فلا بد لمولاي الدوق من أن يشنقني .

فقال له باردالبان الأصغر : كن مطمئناً فسأشهد فيك خير شهادة لدى مولاك .

أشكرك يا سيدي أجزل شكر فلا ينقذني غير هذه الشهادة .

– وأنا أضمن لك اني سأبلغ مولاك حديث وفائك وأمانتك .

فقال له أبوه : أهكذا تعامل من أراد أن يلقي جثتي في النهر .. أنك تجاوزت الحد في مكارم الأخلاق يا بني ، وسترى أنه لا يكون لنا من ذلك غير الشر .

وفي خلال هذه المحادثة ، كان جيلوت قد هرب ، حذراً من أن يبقى مع خاله .

وأما جيل فقد جلس على برميل صغير ، ووضع رأسه بين يديه وهو يتأمل بهذه الحادثة وكيف انقلبت عليه .

فتركه باردالبان وأبوه وسارا توأ إلى شارع لاهاش .

وبينما هما على الطريق قال له أبوه سر عسى أن يقع في هذا المنزل ذي الباب الأخضر .. انه أحد ضباط الدوق دامفيل دون ريب ، وقد أقام فيه مع فريق من الحامية لحماية الأسيرتين .

وعندي انه خير لنا ان ننتظر فنراقب المكان ، ونعلم قوة من فيه فنحتاط كي يكون النجاح مضموناً .

– كلا يا أبي بل يجب أن أكون وحدي في هذه المهمة ، إذ لا يوجد ضباط ولا حامية في هذا المنزل .

– كيف ذلك العلك تعرف المنزل .

– نعم ولا أخشى غير أمر واحد ، وهو أن يكون هذا المنزل الآن مهجوراً .

– لا أفهم شيئاً مما تقول ، ولكني أرى انه يوجد سر تحاول اخفاءه عني .

– هو ذاك لأنه ليس بسري ، بل هو سر صديق أحبه حب أخاء واحترمه

وحدة فلاشية
منتدى الياسمين

فوق احترامي لجميع الناس ما خلاك يا أبي .

– وانت تريد ان تذهب وحدك ؟ اتؤكد لي انه لا خطر عليك

– لا خطر علي على الاطلاق ، ولا بد من أن أكون وحدي

– إذا كان ذلك فسأنتظرك في آخر الشارع .

– كلا ، بل لنفترق هنا حذراً من أن يروك ، فان أهل المنزل إذا عرفوا انه يوجد من يصحبني لا يفتحون لي الباب .

– إذاً أين تريد أن انتظرك ، أفي فندق دفنبير ؟

– كلا ، فان الاقامة فيه خطر .

– بل تنتظرني عن كاتي .

– أرأيتها في خلال هذين الشهرين .

– نعم فقد انشأت بدلاً من تلك الحارة المحترقة ، حارة غيرها بفضل ما أعطيتها ، وقد جعلتها في شارع تيكتون .

– ماذا دعت حارتها الجديدة .

– حارة « ميتين يتكلمان » .

وهي تشير بهذا الاسم الطويل إلى حادثتنا ..

وعند ذلك افترقا فسار الأب إلى كاتي ، وسار الابن إلى شارع لاهاش .

ولما وصل باردالیان إلى منزل اليس وجد جميع نوافذه مقفلة ، فهلع قلبه واستدل من ذلك ان المنزل غير آهل .

ولكنه طرق باب الحديقة مراراً فلم يفتح .

وقد تمثل له ان لويزا وأمها سجينتان في ذلك المنزل تقاسيان مر العذاب ، فكاد يجن اشفاقاً .

ولم يجد بداً من الدخول إلى المنزل ، فتسلق جدار الحديقة بخفة النمور ووثب منه اليها ، ثم صعد إلى باب المنزل ففتح ذلك الباب حين وصوله اليه ، وظهرت منه اليس دي ليكس

وكانت مصفرة الوجه تحيلة الجسم بادية الاضطراب والكآبة ، فقالت لباردالیان حين رأته : أسرع يا سيدي بالدخول .

فدخل باردالیان وسارت معه إلى تلك الغرفة التي اجتمعت به فيها مع ديودات .

فلبثت واقفة ولم تشر اليه بالجلوس بل قالت له :

لماذا تضطهدونني هذا الاضطهاد ولا تدعونني أموت بسلام .. أنك أتيت إلى هـــذا المنزل ثلاث مرات ، وطرقت بابه فلم أفتح لك ، وأنت من أهل الظرف والكياسة ، أما كان الأجدر بك أحترام عزلتي وشقائي .

فأجابها باردالیان قائلاً : ان استقبالك أياي بهذه اللهجة يعتبر بمثابة طرد ، بل هو اهانة لا استحقها ، ولو لم أكن قادماً إلى منزلك في شأن خطير لمـــا بقيت فيه لحظة .

قل كلمة يا سيدي فقط العلك قادم من قبله

– تريدين أن تعلمي إذا كان الكونت ماريليك أرسلني اليك .

– هو ذاك ولا بـــد أن يكون هو الذي أرسلك ، فقد قابل ملكة الناقار ، اليس كذلك ؟ وأن الملكة اخبرته بكل ما تعلمه ، كي تنقذه من مخالب امرأة مثلي ، فهو يعلم الآن حقيقة أمري ، ولم يجسر أن يأتي بنفسه إلي فيوسعني كرهاً واحتقاراً ...

إني كنت أظنه أنبل مما أراه .. وأنت يا سيدي كيف رضيت أن تتولى هذه المهمة

فذهل باردالیان مما سمع وحاول أن يخبرها بأنها مخطئة ، ولكنها قطعت حديثه وقالت :

.. لا تقل شيئاً يا سيدي ، فإني أعلم كل ما عهد اليك بقوله فلا فائدة من اعادته .

وفوق ذلك لا أطيق سماعه . إذهب يا سيدي وقـــل له : أن العقاب

سينقذ لنفسه فاطمئن .

أما أنت يا سيدي فإنك منذ دخلت إلى منزلي علمت أن مصيبة قد دخلت معك ، فقد كنت نذير سوء حين جئتني مخبراً أن ماريلياك ذهب إلى ملكة النافار ، ولو جاء بنفسه لكنت منعته ، ولكن فات الأوان وأما الآن فقد قضي الأمر .

ثم جئتني الآن تنذرني بخاتمة المصاب : فاذهب يا سيدي في شأنك ، وليغفر لك الله فاني غير حاقدة عليك .

فكاد باردالیان يجن اشفاقاً على هذه الفتاة وقال لها :

سيدتي إنك مخطئة خطأ عظيماً فليس الكونت الذي أرسلني ، وما أنا قادم اليك لاغراضه بل لغرض خاص بي .

– إذاً ليس هو الذي أرسلك .

– كلا ، فانه لم يعد بعد .

– رباه ماذا قلت وماذا بدر مني .

ثم غطت وجهها بيديها وجعلت تبكي بكاء الاطفال .

فركع باردالیان أمامها وقال لها بلهجة رقيقة حنونة :

سيدتي أتوسل اليك أن تثقي باني نسيت ما سمعته منك ، وإنك كيف كنت فلا أراك غير إمرأة كئيبة متوجعة تبكي .

واني أضحي نفسي في سبيل إزالة هذا الشقاء الذي يبكيك وفي سبيل خطيبك وصديقي النبيل

ثم اني لا أعلم أي خطاء ارتكبته فحملك على الندم والاكتئاب ، ولكن الذي أعلمه انك تحبين صديقي حباً خالصاً طاهراً ، ومثل هذا الحب الصادق يغفر الزلات ، بل يغفر الآثام والجرائم .

– زدني من حديثك ايها الرجل النبيل ، فاني أتألم منذ عهد بعيد ، فلا أجد معزياً ولا أسمع كلمة رأفة وإشفاق .

ونسي باردالیان الغرض الذي جاء لأجله ونهض فأخذ يد الفتاة بين يديه ، ثم جذبها اليه فضمها إلى صدره وقبل شعرها بملء الحنو .

وكانت القبلة ظاهراً فيها الاخاء حتى ان اليس ارتعشت لهذه القبلة الظاهرة وأكبرت مقام هذا الرجل الشريف ، فنظرت اليه نظرة تشف عن امتنان عظيم لا تصفه الأقلام .

فاستأنف باردالیان حديثه فقال :

انه يحبك يا سيدتي حباً ليس بعده غاية لمستزيد ، وهو لا يريد أن يعلم أسرارك ، وما خفي من أمرك ، فأنت نوره ورجاؤه وحياته .

ولا تحسبي انه صرح لي بهذا الحب ، بل ان كل كلمة من كلماته ، بل كل حركة من حركاته غرام ناطق جلي .

– لقد أحببتني ، يا سيدي ، وحبذا لو أمكن لخطيبي النبيل ، ان لا يعلم شيئاً .

– قلت لك يا سيدتي انه يحبك حب عبادة فلا تبالي بعد ذلك اذا عرف ما تريدين كتمانه عنه أو لم يعرفه .

فارتعدت اليس وقالت : انك انت الوحيد الذي وضع بلسماً على جراح شقائي وكاد ينجيني من اليأس . .

اني استقبلتك كعدو لدود فاذا بك أخ صادق ، وانما عرفت حقيقة شقائي لأنك شقيت فيما أظن ، وفي كل حال فاني أريد أن أخبرك حقيقة حالي لتعلم من أنا فاسمع .

فذعر باردالیان وقال : كلا يا سيدتي دعي سرك في طي الكتمان فلا احب أن أسمع شيئاً .

– أيها الصديق .

– نعم أنا صديق الكونت الذي يحبك وصديقك انت أيضاً ، وإذا كنت لا أدافع عنك حتى مني ، وأمنع هذه الكلمات أن تخرج من فمك ، فأية

صداقة هذه .

انك تريدين أن تبوحي لي بسرك فتخففين شيئاً من عنائك بهذه الاباحة ، ولكنها راحة لا تدوم لحظة ثم بعد ذلك تأسفين .

ولا تنظري إلى الحاضر أيتها العزيزة بل الى المستقبل .

ولو تركتك تبوحين بسرك الآن فانك بعد ان يتم هناؤك بزواج الكونت وبعد ان يسترخ ذيل النسيان على ماضيك تندمين وتأسفين للاباحة بسرك لرجل غريب .

فارتعشت اليس وقالت في نفسها : رباه أهو رجل وحيد الذي يعرف سر حياتي .. كلا فقد عرف كثيرون سر حياتي الذميمة .

ثم قالت لباردالبان : إذاً لم يعد الكونت بعد إلى باريس ؟

– كلا ..

– ألم يردك منه شيء ؟ ألا تعلم شيئاً عما يعمل ويظن .. نعم اني أضحي حياتي .. كي أعلم ماذا يفتكر الآن .

– لم يردني شيء منه يا سيدتي ، ولكن جميع الناس يعلمون في باريس ان ملكة النافار في بلوا ، وإنها تتداول مع ملك فرنسا ، ولا شك ان الكونت موجود في بلوا منذ خمسة عشر يوماً .

فانقدت عينا اليس ببارق من السرور وقالت في نفسها : إن ملكة النافار لو أظهرت أمري لماريلياك لكان أتاني منذ عهد بعيد .

وعند ذلك زالت عن وجهها آثار الكآبة ، فجعلت تلاطف باردالبان ، ونادت لورا فسألتها إحضار الفاكهة والحلواء .

ولكن باردالبان لم يذق شيئاً منها ، ورجع بدوره إلى الاضطراب ، فانه كان قد نسي شقاءه للاهتمام بشقاء سواه ، ولما تمكن من تعزية تلك الفتاة رجع الى التفكير بشقائه .

فقالت له اليس : اغتفر لي يا سيدي عنفي في استقبالك فقد كنت شبيهة بالمجانين .

– لا تعيدي هذه الأقوال يا سيدتي ، ودعيني أذكر منها فقط انك دعوتني بصديق .

– نعم وأنت خير صديق بل أنت الصديق الوحيد .

– اتأذنين لي أن ألجأ إلى هذه الصداقة التي شرفتني بها .

– بل ابركك وأشكرك ما حييت .

– سيدتي اني قد اسألك قضاء مهمة خطيرة يعز عليك قضاؤها او تحتاجين إلى تضحيات كثيرة .

– لا يعز علي قضاء شيء من حاجاتك مهما كانت التضحيات .

ولقد تقدم لي القول انك ما عرفت شقائي إلا لأنك شقيت وقد كان كلامك خير عزاء لي ورأيت ان الأخلاص اذا تجسم ما تمثل إلا بك فانك لم تغتنم فرصة اضطرابي والوقوف على سري ، ولو اتفق ذلك لسواك لعلم مني ما اقوله وأخبر خطيبي بكل ما سمع .

ولكن المروءة منعتك عن الوقوف على سري واشفقت على مصابي دون أن تعرف اسبابه وهي مروءة لا انساها ما دمت في قيد الحياة فقل أيها الصديق ما تشاء فاني اضحي في سبيل خدمتك كل ما يمكن ان يضحى به .

– إذاً فاعلمي يا سيدتي ، اني أنا ايضاً أحب ، ولكي تعلمي مقدار حبي أقول لك ان التي أحبها قد نزلت من قلبي نفس منزلتك من قلب صديقي الكونت .

والآن افترضي يا سيدتي ان خطيبك الكونت اسير عندي وانك اتيت إلي تسألينني اطلاقه من الأسر .

اواه ، اني ارى من اضطرابك ما يدلني انك فهمت مرادي .

اني لا أعلم السبب في سجن لويزا دي مونفورانسي ولا اعلم السبب الذي

حمل الدوق دامفيل على سجنها مع امها عندك ولكني اسألك يا سيدتي سؤالاً واحداً وهو اتريدين اطلاق الأسيرتين

فاضطربت أليس اضطراباً عظيماً وقالت : أتحب لويزا دي مونفورانسي .

– نعم يا سيدتي

– ويح لنفسي ما أشد شقائي

– ماذا تقولين يا سيدتي .

– أقول اني أشقى امرأة في هذا الوجود .

– بربك يا سيدتي قولي ماذا اصاب لويزا ؟

– لم تصب بشيء ... ولكن

– ولكن ماذا .. انك تستطيعين ردها إلي ، أليس كذلك ؟

– ان لويزا وامها ذهبتا من عندي

فوقع هذا النبأ على باردالبان وقع الصواعق ، إذ كان واثقاً من ان اليس تقول الحقيقة .

فقال لها بلهجة القنوط : كيف ذلك ؟

– انهما ذهبتا في اليوم التالي لليوم الذي جئت فيه إلي ، فانبأتني بسفر موريلياك لمقابلة ملكة النافار .

– ومن سار بهما أهو الدوق دامفيل ؟ ان هذا السافل يختبىء الآن ولكني سأظفر به ، والويل له حين ألقاه .

– كلا يا شفاليه ، فليس الدوق الذي ذهب بهما ، بـــل أنا اطلقت سراحهما من نفسي .

فصاح باردالبان صيحة فرح قائلاً : إذاً هما مطلقتا السراح .

– نعم ، واسمع يا سيدي كيف اطلقتهما ، فاني حين رأيت نفسي مقضياً علي ، وحين علمت ان خطيبي النبيل سيلعنني بعد أن يقابل ملكة النافار ، كبر علي ذلك المصاب حتى هممت بالانتحار لولا رجائي ان

اراه مرة قبل الموت .

وقد تمثل لي الدوق دامفيل وانه يضطهد امرأتين تعيستين لا ناصر لهما وهما تستوجبان الرحمة والاشفاق وانه قد عهد إلي ان اسجنهما واني كنت مضطرة إلى الامتثال له لذلك السر الذي ابت مروءتك ان تعلمه .

ولما أيقنت ان ماريلياك سيفترق عني إلى الأبد ، ولم أعد أخاف وشاية الدوق دامفيل ، لاعتقادي ان تلك الوشاية التي ينذرني بها قد أبلغتها ملكة النافار لخطيبي صعدت إلى الأسيرتين ، وسألتهما العفو عمـــا اسأت به اليهما وأطلقت سراحهما .

وأسفاه أيها الصديق اني لولا هذه المروءة لكنت الآن خارجاً من منزلي مع من تحب .

– إنك مخطئة يا سيدتي بتقدير هذا المصاب وكفاني ارتياحاً علمي بأن الاسيرتين لم تعودا في قبضة ذلك المارشال الدنيء .. ولكن ألم تقولا لك إلى أين ذهبتا .

– إني كنت شديدة الاضطراب فلم اسألهما ، وهب إني سألتهما فإنهما لا تخبراني بشيء بعد ان كنت في عرفهما سجانة اثيمة .

– ألم تقولا كلمة تشير إلى شيء .

– كلا ، وأسفاه .

وساد السكوت هنيهة ، ثم عاد باردالبان إلى الحديث فقال :

– بقيت لي مسألة خاصة يا سيدتي ، وهي انك اجتمعت بهاتين السيدتين اليس كذلك .

– مرتين أو ثلاثاً .

– ألم تسمعيهما ذكرنا إسمي .

– كلا .

فمرت غمامة كثيفة على مخيلة باردالبان واضطربت عيناه ، ثم تنهد وقال

وماذا يدعوها إلى التفكير بي فانها نسيتني بلا ريب من عهد بعيد ، ومع ذلك فهي هي التي استغاثت بي ودعتني إلى نجدتها يوم قبضوا علي .

ورأى باردالبان انه لم يبق له ما يعمله في منزل اليس فاستأذنها بالانصراف على ان يعود لزيارتها كلما سنحت له الفرصة .

ثم ودعها وانصرف .

ولما خرج من منزلها ذهب توا إلى لقاء أبيه في تلك الحمارة التي اتفقا على اللقاء فيها .

وكان يسير مفكراً ، وهو مرتاح النفس لافلات حبيبته وامها من هنري .

وليث سائراً حتى انتهى إلى قرب اللوفر . فرأى الجنود مصطفة والناس مزدحمين ..

فسأل أحد الواقفين فأخبره أن الملك رجع من بلوا إلى اللوفر .

وعند ذلك انتشرت إشاعة بين اولئك الجماهير ، ان الملك لا بد بهذا الشارع ، وانه سيمر بشارع موغارتر ، فأسرع الناس يتراكضون إلى ذلك الشارع .

وسار باردالبان الى الحمارة للقاء أبيه .

وحدة فلسطين
منتدى الميلاس

١٤

العصيان

أما باردالبان الأكبر فانه كان قد ذهب الى تلك الحمارة الجديدة ولقي فيها كاتي فاستقبلته استقبالاً حافلاً

وتفقد باردالبان تلك الحانة الجديدة التي أنشئت باسمه فهنأ كاتي بها .

ولما لم يكن له ما يشغله إلى ان يأتي ولده ، رأى ان يقتل الوقت بمعاقرة الخمر لتعوده الأعمال .

وطلب إلى كاتي ان تأتيه بزجاجة خمر ، وجعل يشرب وقد طار الى ولده بأجنحة الخيال .

وفيما هو يشرب سمع قرع الطبول تدوي من بعيد ، فأصغى كي يعلم مصدر هذه الأصوات فعلم انها من شارع موغارتر .

فنادى كاتي وسألها عن هذه الأصوات .

فأجابته : ان الملك عائد من بلوا إلى اللوفر ، ويقولون أن ملكة النافار وابنها يصحبانه ، مع كثير من أسياد الهوكينوت ، ونبلاء الكاثوليك .

– إذا كان ذلك فهو دليل سلم لا دليل حرب كما كانوا يتوقعون ، وفي كل حال إني ذاهب لأمتع النظر بلابس الحراس وأسلحتهم وسيأتي ولدي فليتنظرني إلى ان أعود .

ثم تركها وذهب إلى شارع مونمارتر فرأى كثيراً من الناس مزدحمين عند باب منزل .

وهناك غلام يصيح بأعلى صوته قائلا :

ـ أجرة الكرسي ريال ... إن من يقف فوقها يرى جلالة الملك والملكة كاترين ومركبتها الذهبية ، وأسياد دي كيز فوق جيـــادهم ... أجرة الكرسي ريال .

وكان كلما دنا منه أحد المتفرجين وأعطاه ريالاً أخرج له كرسياً من ذلك المنزل ووقف عليه .

فاستأجر باردالبان كرسياً ، وجعل يسرح طرفه ، فرأى جماهير الناس مزدحمين في الشارع ، والرؤوس مطلة من النوافذ ، والكل يصيحون : ايحيى الملك ..

وكانت الأجراس تقرع في الكنـائس ، وقـد بدأت الجنود تتقدم أمام الموكب الملـكي ، وهم يفرقون الناس قائلين : إفسحوا المجال لمرور الملك .

وكان الناس يتفرقون يميناً وشمالاً فيزيد انضمامهم ، كما تنفتح الأمواج بمرور السفينة .

وبعد هؤلاء الجنود مرت فرقة حملة البنادق بابدع نظام وتلتها فرقة الرماحة ثم ظهر حراس الملك يقودهم كوسيني .

وبعدها مرت مركبة عظيمة كلها مذهبة وعليها تاج عظيم .

وكان يجرها اثنا عشر جواداً يقود زمام كل جواد منها حارس ضخم الجثة هائل الخلقة .

وكان الملك جالساً في هذه المركبة بشكل يراه فيه جميع الناس وهو مرتد الملابس السوداء ، وكان أصفر الوجه ينظر إلى جماهير الهاتفين له نظرات تنم عن القلق .

وكان على يساره في المركبة ملك النافار ، وهو يشير إلى الرجال إشارات ودية ويبتسم للنساء بحيث تمكن من إخفاء مخاوفه .

وفي أثر تلك المركبة العظيمة مركبة مذهبـــة ، لا تقل رواء عن المركبة الملكية ، وكان فيها الملكة كاترين ويجانبها ملكة النافار . وكانت الملكة كاترين طلقة الوجـه ، لا تنقطع عن رد تحية النـاس ، إلا لتبتسم لملكة النافار .

وكان يظهر عليها في بعض الأحيان علائم فرح وحشي ، فتضغط على يد ملكة النافار ، مظهرة لها التودد وهي في الحقيقة فرحة لوثوقها انها لا تنجو منها هذه المرة ، وتضغط على يدها لتتأكد من جواز حيلتها ، وانها لا تزال في قبضة يدها .

أما ملكة النافار فكانت تفكر تلك الساعة بابنهـــا ، وتقول في نفسها : إنه مهما يكن من الأمر ، فقد ضمنت لولدي عرشه بتزويجه أخت ملك فرنسا .

ولكن قلبها كان يحدثها بمصاب عظيم سوف يحل بها ، ولا سيما حين تسمع الناس من حولها يصيحون :

ـ لتحيى الملكة كاترين حامية الكنيسة !

وكان الموكب الملكي يسير الهوينا مخترقاً صفوف الجماهير .

وقد مر بعد المركبتين اللتين تقدم وصفهما الدوق دانجو أخو الملك ، وهو ممتط جواداً وعلى يمينه الأميرال كوليني وهو يعبث بلحيته البيضاء وينظر إلى الجماهير نظرات السكينة والوقار .

وعلى اليسار الدوق دي النسون ثم الدوق دي كيز وهو يبتسم للمعجبين به والهاتفين له .

ووراءهم مركبات السيدات ثم جمهور من النبلاء والأمراء كالبرنس دي كونديه والدوق دامفيل وغيرهما من عظماء الكاثوليك والهوكينوت يحدق بكل

منهم حراسه .

وكان باردالیان مشرفاً على هذا المشهد من فوق كرسيه وهو ينظر إلى الهوكينوت مبتسماً ويقول: لقد عرفنا كيف دخلوا إلى العاصمة ولكننا لاندري كيف يخرجون منها .

وكأنما هذا الكهل المتخلق باخلاق الثعالب قد أدرك غاية كاترين ودهاءها ولكن منظر هذا الموكب كان يروق له ويسليه .

فلما مر هنري دي موغورانسي وهو راكب جواده ، وباردالیان فوق الكرسي التقى النظران ، فشتم باردالیان شتماً قبيحاً ، وأوقف هنري جواده وهو مرتعب منذعر ينظر إلى باردالیان ولا يصدق عينيه ، لاعتقاده انه جثة أكلها البلى منذ عهد بعيد ، ثم يراه فجأة ينظر اليه منهكماً ، ويبتسم إبتسام الهازيء .

أما باردالیان فقد رأى ان هنري قد عرفه ، وان جميع أعدائه ينظرون اليه ، فقد كان بجوار هنري ثلاثة رجال أوقفوا جيادهم أيضاً منذعرين كذعره ، وجعلوا ينظرون إلى ذلك الكهل ، وكلهم يعتقدون انه كان من الأموات .

فقال أحدهم لرفيقه أليس هو الرجل الذي أحرقناه في الحارة .

وأجاب أحدهم : هو بعينه . وقد أحرقناه فيها مع الشفاليه دي باردالیان .

وقال آخر : إننا تركناه رماداً وها هو الآن بعث حياً .

وكان هؤلاء المتحدثون من حاشية الدوق دانجو ، وهم كاليس ومورفر ومونتجرون ، وجعلوا ينظرون اليه ، نظرات تختلف بين الرعب والاندهال

وأما باردالیان فإنه لم يخف هذه النظرات ولكنه خشي عاقبة اللقاء وهو فرد وحاول النزول عن كرسيه كي يتوارى بين الجماهير

ولكن الزحام كان شديداً فلم يستطع المرور بحيث اضطر إلى البقاء واقفاً فوق كرسيه .

وفيما كان باردالیان يحاول عبثاً ان ينزل عن كرسيه التفت الدوق دانجو إلى حراسه فرأى بعضهم متوقفين عن السير قدنا منه كاليس وكلمه فأشار الدوق إشارة إلى رئيس حراسه ، فسار الجميع يتبعون الموكب .

ولم يكن باردالیان وحده الواقف على كرسي فقد كان يحيط به كثير من الموائد والكراسي والناس وقوف عليها .

فهز كرسيه هزاً عنيفاً حتى سقطت فانسل بين الجمهور .

وقد بقي عليه ان يخرج من هذا الزحام فقد رأيه ما أشار به الدوق إلى رئيس حراسه وعلم انه المعني بهذه الاشارة .

وعند ذلك جعل يفرق الناس بكوعيه ، فرأى عكس ما كان يتوقعه وهو ان هؤلاء الناس بدلاً من ان يتفرقوا ويفسحوا له المجال كانوا يتدفعون إلى جهته

فاندفع بتيارهم إلى باب منزل يجاور المنزل الذى استأجر منه الكرسي وأمسك بطرقة الباب

وكان السبب في اندفاع الناس ان عشرين فارساً انفصلوا عن الموكب الملكي وهجموا بجيادهم غير مكترثين لصياح الرجال والنساء .

فأيقن باردالیان انه المقصود بهذه الحملة وتحركت المطرقة بيده دون ان يريد، فرن صداها في داخل المنزل .

وقد رأى نفسه أمام عشرين فارساً في طليعتهم هنري دي موغورانسي وعلى يساره الفيكونت اسبرمونت وفي الجانب الأيمن مورفر ومونتجرون وكاليس وفي الوسط فرسان الدوق دانجو .

ووقف باردالیان أمامهم غير هياب ورفع قبعته فقال : السلام على القتلة السفاكين .

فضج الفرسان ضجيجاً منكراً ، ولكن أحدهم وهو رئيس حراس الدوق دانجو أشار اليهم إشارة الأمر فسكتوا .

ودنا هذا الرئيس من باردالیان ، وقال له : أطلب اليك ان تسلمني حسامك .

فضحك باردالیان ضحك الساخر وقال له : إذا كنت تريد حسامي فتعال خذه .

ثم جرد حسامه الطويل ، وقد اتقدت عيناه ببارق من نار ، فأسند رأس السيف إلى حذائه ، وجعل يضحك ضحك القانطين ، ويقول في نفسه : لا بد لي من الدفاع حتى تنهب جسمي السيوف ، فذلك خير من الموت في السجون .

وعند ذلك قال مونتجرون :

— إن جلد السيد باردالیان غليظ لا تنضجه النار ، لقد كنا نحسب اننا شوينا في تلك الحارة .

فضحك الجميع كأنهم شاءوا تعذيبه قبل قتله .

أما باردالیان فإنه أجاب قائلاً :

— ولكن جسمك سريع النضج يا سيدي ، فقد قلوت وجهك بالزيت كما أقلي السمك .

فصاح مونتجرون قائلاً : اقتلوا هذا الوقح .

فاعترضهم هنري موفورانسي قائلا :

— وأنا لي أيها السادة ما أقوله أيضاً ، لأن هذا الرجل حمار متلبس بجلد أسد ، ولا شك . إن هذا اللص قد فتح خزائني ، وسرق منها هذه الملابس

فأجاب باردالیان قائلا :

— لقد أخطأت التعبير أيها الدوق فأنت الحمار وأنا الأسد ، ودليل ذلك إني

بحثت في منزلك عن قفاز البسه فلم أجد ما يوافق يدي حتى ذلك القفاز الذي لا يزال موجوداً على باب قصرك الفخيم .

— تباً لك من كلب دنس .

— تمهل فيما تقول يا حضرة الدوق فهل أنا كلب أو أسد أو حمار ؟

— سأخرق صدرك بهذا الخنجر .

— لقد كنت أحسب ان سلاحك السيف أي سلاح الأشراف فإذا به الخنجر وهو سلاح الخدم وقطاع الطرق .

فرجع رئيس الحراس إلى مخاطبة باردالیان فقال له :

— هات حسامك باسم الملك .

— أين تريد يا سيدي ان أضعه أفي قلبك أم في بطنك .

فقال هنري : كفى ولنفرغ من شأن هذا الرجل .

وقد مرت هذه الحادثة بأقصر من وقت قراءتها .

وكان الفرسان في خلالها ينضمون ويقتربون حتى القوا نصف دائرة حول باردالیان وهو مستند إلى باب المنزل .

فلما صدر أمر هنري جرد الجميع سيوفهم ، فأمرهم بالهجوم ولكن مورفر اعترضهم قائلا :

— إن هذا الرجل غلاماً يدعى الشفالیه باردالیان تجاسر على إهانة جلالة الملك في نفس قاعته ، فلنأخذه حياً كي نكرهه بالتعذيب على إرشادنا إلى مكان ولده .

فاتقدت عينا هنري واستحسن الرأي لأن الشفالیه باردالیان كان واقفاً على مؤامرته أيضاً ، وقال :

— نعم لنأخذه حياً كي نعلم مكان ولده

وعند ذلك سمع صوت دوي بين تلك الجموع كالرعد القاصف وقال : هوذا الذي تبحثون عنه .

وكانت لحظة هائلة عمت فيها الفوضى بين اولئك الفرسان ، فإن أحدهم سقط على الارض قتيلا ، وامتطى جواده رجل سواه ، كان يبتسم ابتسام المنتهكم ، وعيناه تتقدان اتقاد اللهب ، وقد ظهرت على وجهه الجرأة النادرة .

فلكز بطن الجواد الذي استولى عليه لكزة عنيفة ، مزقت جلده ، وضربه على رأسه ضربة شديدة ... فصهل الجواد صهيلا يدل على الألم ، واندفع اندفاع الصواعق بين الفرسان ، فاضطروا إلى التراجع منذعرين .

أما باردالیان الأكبر ، فإنه صاح صيحة فرح ممتزج بالحنق والقلق ، وقال : ولدي !..

فأجاب ولده قائلا : نعم أنا هو ، تجلد .

ولقد تركنا الشفالیيه باردالیان وقد برح منزل اليس ، وذهب إلى شارع اللوفر ، فعلم بقدوم الملك من ازدحام الناس . وسار لمقابلة أبيه في خارة كاتي كما اتفقا .

فوصل إلى شارع مونمارتر ، إذ لم يكن له بد من المرور بهذا الشارع .

فرأى الموكب سائراً والناس مزدحمين فعول على ان يحيد عن طريقهم ويذهب في شارع آخر .

ولكنه رأى مورفر ورفاقه مندفعين إلى باب منزل بقوة مسلحة .

وكان أول ما خطر له ان يحيد عن طريقهم كي لا يروه ، وان يسرع إلى الشارع الآخر .

وبدأ بالانسحاب ، غير انه سمع للفور صوت أبيه ، فاندفع لنجدته اندفاع السهم .

وكان الناس قد هربوا ووقفوا بعيداً يتفرجون فخلت الكرامي والموائد فصارت شبه حائل بين باردالیان والهاجين عليه .

وكان الشفالیيه باردالیان قد انضم إلى أبيه ، ورجع الحراس إلى الانضمام ، فقال رئيسهم مخاطباً الأب وابنه :

– إني أطلب اليكم التسليم باسم الملك ألا تسلمون .

فأجاب الشفالیيه بهدوء كلا .

– إذاً أنتم من العصاة .

– نعم ..

فصاح الرئيس عند ذلك بحراسه قائلا : إذاً تقدموا واقبضوا على هذين المتمردين .

فهجم الحراس واتباع الدوق دانجو بسيوفهم على الأب وابنه وهم عازمون على القبض عليهما ميتين أو حيين .

فعلم الشفالیيه ان الساعة قد دنت وعزم على ان يقاتل قتال يأس وان يرجع إلى الخطة التي بدأ بها لما رآه من فوزها .

ولكز بطن جواده لكزة شديدة هائلة ، ولكن الجواد لم يندفع كما اندفع في المرة الأولى .

بل صاح صيحة ألم وسقط صريعاً على الأرض .

فوثب باردالیان الأصغر عن ظهره مسرعاً وحسامه مشهر بيده ولكنه كان محصوراً بين كثب وقد بلغ عدد محاصريه خمسة عشر فارساً .

وكان السبب في موت جواد باردالیان انه حين قدم لنجدة أبيه فقتل الفارس واستولى على جواده كما تقدم ترجل مورفر عن جواده حين عرفه واستل خنجره ووقف يراقب باردالیان .

إلى ان أصدر رئيس الحراس أمره بالهجوم ، فكان مورفر أول المهاجمين .

ولكنه لم يهجم على باردالیان بل هجم على جواده وطعنه بخنجره طعنة كانت القاضية عليه وهذا هو السبب في سقوط الجواد .

فلما وثب عن جواده سمع اباه يقول له : تعال الي .

فالتفت فرآه قد جعل الموائد والكراسي متاريساً ، ووقف وراءها عند باب المنزل .

وأسرع باردالبان إلى موقف أبيه وقد لمعت عيناه ببـــارق من الرجاء ، فأقفل أبوه بعد قدومه ذلك الممر الذي كان قد تركه مفتوحاً لدخول إبنه فأصبح الاثنان داخل حصن مؤقت يستطيعان الدفاع فيه دقيقتين أو ثلاثاً .

وقد تبادل الأب والابن نظرة وداع أخير إذ لم يتسع لهما الوقت للصافحة والعناق .

وكان هنري دي مونمورانسي قد ابتعد في البدء حين أهانه باردالبان الأكبر ثم اقترب بعد ذلك وهو خائف أن يفلت هذان الرجلان فيدفعه الحقد الى رغبة موتهما وتدفعه ظواهر بسالتهما إلى الاعجاب .

وزحفت الجياد متضامنة ، ولكنها لم تكد تدنو خطوة حتى تـــراجع منذعرة ، لأن باردالبان وابنه كانا يخزان صدورها بسيفيهما من خلال منفرجات الكراسي والموائد .

ورأى قائدالحرس أن طريقة هجومه لم تفلح فأوقف القتال

وسأل باردالبان ولده قائلاً : هل أنت جريح ..

– كلا ، وأنت ..

– لم أجرح بعد فلتمت موت الأبطال يا بني .

فأجابه ببرود قائلاً : بل لنجتهد أن لا نموت .

أما القائد فإنه بعد أن أمر حراسه بايقاف الهجوم أمرهم بالترجل عن جيادهم ، وهو يقول في نفسه يعز علي والله أن أقتل هـذين البطلين فلأقبض عليهما عساهما ينجوان .

وبعد أن ترجل الفرسان أحدقوا بالأب وابنه من كل جانب والسيوف مشهرة في أيديهم .

وسألهما القائد التسليم .

ولكنهما أشارا إشارة الإباء ، فهز القائد كتفيه وأمر جنوده بالهجوم .

فهجموا جميعهم هجوماً واحداً ، وكانت السيوف تمتد من منفرجـــات الكراسي والموائد مثل السنة النار .

فما مضت لحظة حتى قتل أربعة من المهاجمين وتكسرت سيوف كثيرين ، وصبغ البطلان بلون أحمر ، فإن كليهما جرحا في الرأس والصدر والذراعين .

ثم استأنف الهجوم فسقط باردالبـان الأكبر جاثياً على ركبتيه وهو يقول استودعك الله يا بني

واستند باردالبان على الجدار كي لا يسقط ، وهو يقول : الوداع يا أبي .

وقال رئيس الحراس وقد أدمعت عيناه لبسالة البطلين : سلما أخلصكما من جريمة العصيان .

فأجابه الشفالييه قائلاً : أشكرك يا حضرة الرئيس فإني أموت وأنا أرى شريفاً إلاك بين هؤلاء الأسافل . جدد الهجوم علينا فإننا لا نستسلم .

– يعز علي أيها الباسل أن أجدك في هذا الموقف ، ولكن لا بـــد لي من قضاء واجباتي .

ثم أمر الجند أن يزيحوا الكراسي والموائد .

فهجموا جميعهم هجوم الوحوش الضارية على الكراسي فأزاحوها جميعها بحيث لم يبق حائل بينهم وبين البطلين .

وضحك باردالبان الأكبر وقال : لقد بدأت النهاية وطعن بسيفه الطويل ثلاث طعنات أصابت ثلاث صدور .

وفعل إبنه مثل فعله ثم طبقت السيوف عليه من كل جـــانب وصوبت رؤوسها إلى صدره فأطبق عينيه قائلاً : الوداع يا لويزا .

ولم تكن إلا لحظة حتى فتح عينيه استقبالاً للموت ، ولبث جامداً باهتـاً وقد أصيب بانذهال لا تتصوره العقول ، إذ حسب نفسه ميتـاً وأن روحـه

هائمة ، أو أن الروح تحشرج في صدره ، وقد آراه الخيال حلماً يعذبه في انحداره إلى هوة الأبد وهذا الذي رآه .

انه رأى السيوف التي كانت على قيد قبضة من صدره قد انخفضت ورأى أولئك المهاجمين قد ارتدوا منذهلين وفتحوا ممراً إلى هنري دي مونمورانسي.

ورأى في هذا الممر إمرأة متشحة بملابس السواد تسير إلى هنري ببطء وجلال .

فصاح قائلاً : ذات النقاب الأسود .

وقد فتح باب ذلك المنزل الذي كان يدافع عنده البطلان وخرجت حنة منه فقدمت إلى هنري ووقفت ابنتها لويزا في الباب ، وقد أدهش جمالهـــا الأبصار فنظرت إلى باردالیان القى نظرة رعب وإعجاب .

فلما رآها ركع على تلك الأرض المصبوغة بدمه فسالت من عيني الفتـــاة دمعتان ونظرت اليه بحنو لا يوصف .

وقال باردالیان : لأمت الآن بسلام وعزائي أنها تحبني .

ثم سقط مغمياً عليه .

وأما حنة أمها فقد تقدمت إلى هنري ، وهي تخترق السيوف ، وتسير بين الجرحى ، وبهت الجند لما رأوه من جلالها وتوقفوا عن طعن باردالیان لظهورها الفجائي .

ثم انقلب هذا الذهول إلى احترام شديد ، وقد أيقن الجميع من حـدوث شيء غريب ، ولم يجسر أحد على طعن باردالیان الذي كانت تحميه تلك الحورية بنظراتها .

ومشت حنة حتى وقفت على قيد خطوتين من هنري.

وكان هنري يراهـــا ماشية اليه كما يرى خيالاً في الحلم ، وقـد بهت لرؤياها وجعل ينتظرها وهو لا يعلم ما يصنع .

أما حنة فإنها نظرت إلى هنري نظرة سحقته وقالت له :

– إني أتولى هذين البطلين بحمايتي ، فإن أحدهما أرجع لي ابنتي التي سرقت مني ، والثاني ولده .

وإن امتناني لهما يا سيدي الدوق لا يقف عند حد ، وقد قلت إني أريد حمايتهما وأسألك أن تأذن لي بهما وتتنازل عن حق أسرهما ، فهل تأذن بذلك أم تريد أن أوضح لجميع الناس سبب امتناني لهذين البطلين ..

قل أتريد أن أتكلم ..

ثم مدت يدها مشيرة إلى باردالیان وأبيه كأنها تنتظر إشارته لتتكلم ..

فثارت العواصف في صدر هنري ونظر إلى الحراس وندماء الدوق داخجو فرآهم ينظرون اليه وهم منذهلون .

ثم نظر إلى حنة فنكس بصره ولم يستطع لقاء نظراتها وشعر انه مغلوب على أمره وقال لها :

– ان الأسيرين لك يا سيدتي فخذيهما .

فنظرت عندها إلى رئيس الحراس وقالت له : إنك جئت إلى هنا بمهمة .

– نعم يا سيدتي ، ومهمتي أن أقبض على هذين الرجلين باسم الملك .

– إني أدعى ، يا سيدي حنة كونتس دي بيانس ودوقة دي مونمورانسي.

فانحنى رئيس الحرس بملء الاحترام .

وقابعت : وأنا أضمن هذين الأسيرين وهما عندي على عهدتي .

– إذا كان ذلك يا سيدتي فقـد تخليت عنهما ومعاذ الله ان أشك بكلام نبيلة مثلك ، ولكني أشترط أن لا يبرح الأسيران هذا المنزل .

– انهما لا يبرحاه .

– وأنا أمتثل يا سيدتي ، وأضيف إلى ذلك اني أعد نفسي سعيداً بهذا الاتفاق ، فإن هذين البطلين من أبسل الرجال .

فانحنت حنة أمامه ورجعت إلى الجريحين اللذين كانا ينظران إلى ما حدث ويبذلان جهداً عنيفاً كي ينهضا فلا يستطيعان .

فدنت من باردالیان الأكبر وقالت له بصوت حنون :

– أتريد يا سيدي ان تدخل إلى منزلي فتستريح .

فاضطرب باردالیان الأكبر اضطراباً شديداً واستعان بها فدخلا إلى المنزل وفعلت لويزا فعل أمها ، فمدت يدها إلى باردالیان الأصغر وقالت له وهي تبتسم : تشجع يا سيدي واسمح لي أن أعينك على الدخول .

فأجهد باردالیان نفسه ووقف والدماء تسيل من جراحه فاستند إلى ذراعها ودخل ..

وعند ذلك أقفل الباب وتوارى الجميع عن الأنظار .

والتفت هنري إلى رئيس الحرس وقال له : يجب ان تعين عشرين جندياً لحراسة هذا المنزل واعلم إنك المسؤول بنفسك عن الأسيرين والأسيرتين .

فأجابه الرئيس بلهجة المستكبر : سأفعل ما يجب فعله يا حضرة الدوق .

– إفعل إذاً ولا تنخدع بألقاب هذه السيدة فهي القاب زور .

فأمر الرئيس عند ذلك بنقل الجرحى والقتلى ، وأوقف عشرين جنديا لحراسة المنزل في الليل والنهار .. وتفرق الجميع .

منتدى
الليلاس

وحده قاضيه

- ١٥ -

المأساة

ولنبسط الآن إلى القراء كيف ان لويزا وامها تقيمان في هذا المنزل في شارع مونمارتر وكيف انهما خرجتا منه لوقاية باردالیان وأبيه فنقول :

كانت الأم وبنتها حزينتين خلال اقامتهما في منزل اليس دي ليكس .

وكانت اليس تراقبهما وهي خجلة خزيانة قانطة حتى انتهى الأمر بحنة وبنتها على الاشفاق عليها .

وتعاقبت الأيام والليالي على الأسيرتين وهما لا تبرحان الغرفة ، حتى انتهكت صحة حنة ، وظهر عليها الضعف والهزل ، فلم تكن تعيش إلا لحماية بنتها .

وكان أقصى امانيها ان تضع بنتها في ملجأ امين ثم تموت بسلام .

وقد كان لها رجاء وحيد ، وهو ان كتابها سيصل الى المارشال فرنسوا فينقذ بنته .

ولم يكن لديها شك في أن الكتاب قد وصل اليه ، لا سيما وانها قد سألت اليس دي ليكس ، إذا كان المارشال فرنسوا دي مونمورانسي في باريس فأجابتها بالايجاب .

فسايقنت أن الكتاب وصل اليه ، وانه لم يسرع الى نجدتها لأنه تخلى عنها ولأنه لم يعتقد انها بريئة مما اتهمها به أخوه .

وقد كان خطر لها أن فرنسوا بحث عنها ولم يجدها ، ولكنها كانت تتهم أخاه تهماً ظاهرة جلية ، فلو كان فرنسوا واثقاً من براءتها ويريد انقاذها لشكا أخاه الى الملك فأرغمه على رد الأسيرتين .

وأما لويزا فانها حين علمت أن والد الشفالييه باردالبان قد اختطفها وهي صغيرة جعلت تحاول نسيان ذلك الشفالييه الذي أحبته .

ولبثتا على ذلك الى ان جاءتهما اليس يوماً فوقفت امام جنة وقالت لها بلهجة حزن تدعو إلى الاشفاق .

لم يكن لي بد يا سيدتي في اسركما ، ولا بد ان تعترفا بأني لم اسيء معاملتكما مدة اقامتكما عندي .

فأجابتها جنة قائلة اني لا انكر ذلك ، وما شكوت من معاملتك قبل الآن .

— وقد اتفق لي يا سيدتي حادثة سيئة في حياتي اكرهتني على الرضى بأن أكون سجانة ، ولذلك ارجو حين يطلق سراحكما ان لا تحقدا علي وان لا تلعناني .

فهزت جنة رأسها وقالت بلهجة اليأس : كيف يطلق سراحنا ومن لنا بالخلاص من هذا الأسر .

— لقد اطلق سراحكما يا سيدتي .

فارتعشت جنة سروراً واصفر وجه لويزا .

ومضت اليس في حديثها فقالت :

نعم لقد اطلق سراحكما يا سيدتي ، فان تلك الحادثة التي كانت تكرهني على قبول سجنكما عندي قد ذهبت اسبابها ، فاذهبا يا سيدتي فإن الأبواب مفتوحة ولا يعترضكما أحد ، واذا خطرت في بالكما فلا تحقدا علي ، بل اذكراني بالاشفاق .

ثم تركتهما وانصرفت فلبثت جنة ولبتها عنيهة واجمتين ، ثم تعانقتا وهما تبكيان سروراً .

وعند ذلك خطر لجنة ان لا مال لديها ، وانها لا تستطيع العودة إلى منزلها حذراً من ان تقع أيضاً في قبضة هنري .

وقد شعرت تلك المنكودة انها لم تبق لها قوتها السابقة على العمل ، فان الحزن والأسر قد انهكا قواها ، فرأت انها قد التجأت من يأس الى يأس ، وخرجت من هوة الى هوة ، ولم تنتفع من جميع ذلك إلا انها نجت من قبضة هنري دي مونفورانسي فقالت رباه ماذا نصنع .

وكأنما لويزا كانت تقرأ افكارها فأجابتها قائلة .

انك كنت تشتغلين لاعالي واعالتك في أيام حداثتي ، وقد جاء الآن دوري فلا تقنطي يا اماه ، ولا تخشي النفقات الأولى ، إذ لا تزال لدينا تلك الماسة الجميلة التي اريتني اياها مراراً .

— إذاً اسمعي حديث هذه الماسة يا ابنتي ، فان لها قصة وهي انهم حين خطفوك مني جعلت ابكي واعدو كالمجانين ، وانا أحسب انهم انتزعوا قلبي من صدري .

الى ان جاءني ذلك الرجل وردك الي ، فكان يبكي حنواً ولا انسى نظرات حنوه .

ثم تركني وتواري عن الانظار ، ولكن هيئته لا تزال راسخة في ذهني ، وقد بركته كما لعنت باردالبان الذي خطفك .

وعند ذلك حملتك بين ذراعي وسرت بك في الغابات الى باريس .

وفيما أنا سائرة بك وليس لدي درهم كما أنا الان ، أدركني فارس في تلك الغابة وعلم اني مسافرة من غير مال ، فوضع على صدرك هذه الماسة ، وكان هذا الفارس يا لويزا نفس الرجل الذي ردك إلي .

— نعم نعم لقد قلت لي ذلك يا أماه .

— وقد مرت بي أيام عسر شديدة ، فلم ابع تلك الماسة ، وكنت احفظها تذكاراً لمروءة هـذا الرجل الذي لم أعرف اسمه ، ولذلك لا أجد بداً من الاحتفاظ بها يا ابنتي فانها أجل تذكار عندي .

— لقد أصبت يا أماه .

— ثم إني أحب أن أحتفظ بهذا التذكار الجميل ، إذ قد يكون السبب يوماً في معرفتك صاحبه ، إذا لم أكن باقية في قيد الحياة

لا تضطربي يا ابنتي فاني أرجو أن أعيش بقربك عمراً طويلاً ، ولكن اذا اتفق لي أن أموت قبل الأوان ، فان هذه الماسة تنفعك ، فأما تعرفين بها هذا الرجل الكريم الأخلاق ، فيكون لك خير عون ، وأما تبيعينها إذا احتجت الى ثمنها .. إذن لنحفظها وهلم بنا يا لويزا نذهب من هذا البيت .

وعند ذلك عادت اليهما اليس دي ليكس فقالت :

اسألك العفو يا سيدتي فقد سمعت كل حديثكما لأني تعودت لنكد طالعي ، ان اسمع الأحاديث من وراء الأبواب .

وقد سالت دمعة من عين اليس ، ولكن حنة نظرت اليها نظرة رعب بعد قولها انها تعودت السماع من وراء الأبواب ، فلا يتعود هذه العادة الذميمة غير الجواسيس .

أما اليس فقد مضت في حديثها فقالت :

ومهما يكن من الأمر يا سيدتي ، فقد سمعت الحديث وعلمت انك لا مال لك وانا غنية بل اني عظيمة الثروة ، ولي منازل كثيرة في باريس فهل تقبلين ان تقيمي في احداها .

فظهرت علائم التردد على حنة ، فاختلجت اليس وقالت : ويح لي ما أشد شقائي اتحسبين يا سيدتي اني أكيد لك وانقلك من سجن الى سجن .

فأجابتها حنة : كلا يا سيدتي ومعاذ الله ان يكون خطر لي هذا

الخاطر ، فقد وثقت انك ضحيت تضحيات كثيرة في سبيل انقاذنا وبت تلقي بك تهمة .

قالت : إذا كان ذلك واردت ان أكون مدينة لك بجميل ، فأذني لي ان اصنع صنعاً جميلاً ، وقد أبيت أن تقبلي الاقامة في أحد منازلي فاقبلي مني هذا على الأقل .

وعند ذلك وضعت على المائدة كيساً يحتوي على نحو مائة دينار .

فاحمر وجه حنة وأدارت لويزا وجهها كي لا ترى .

وركعت اليس فقالت بصوت خافت : أرجو ان تقبلي يا سيدتي هذه الدريهمات من امرأة مشرفة على الموت .

اني قد اسأت اليكما يا سيدتي اساءة عظيمة بقبولي أن اتولى سجنكما ، فإذا لم تقبلي مني هذه المساعدة البسيطة ايقنت انك لم تصفحي عن ذنبي .

فقبلت حنة مساعدتها وخرجت من ذلك المنزل وهي مشفقة غاية الاشفاق على اليس .

وجعلتا تبحثان عن منزل حتى وجدتا منزلاً في شارع مونمارتر فاستأجرتاه وأقامتا فيه .

وبينما كانتا جالستين ذات يوم تتحدثان سمعتا ضجيجاً في الخارج ، ففتحت حنة النافذة واطلت منها ، فعلمت أن الشعب يحتفل بقدوم الملك .

فاسرعت الى اقفال النوافذ كلها كي لا يراها أحد .

ومر على ذلك عدة ساعات والأم جالسة بقرب بنتها الى أن سمعتا قرع باب المنزل ، فارتعشت حنة وقالت : من عسى أن يكون هذا الطارق .

فأجابتها بنتها قائلة : ان اليد التي قرعت الباب كانت ترتجف ، ولا ريب ان الطارق يطلب النجدة .

ويذكر القراء أن باردالبان الأكبر حين كان مستنداً الى الباب وممسكاً

بيده مطرقته ، اقفلت المطرقة فقرع الباب دون ان يريد .

أما حنة فانها فتحت النافذة كي ترى ماذا حدث ، فوقفت جامدة حائرة اذ سمعت الناس يذكرون اسم باردالیان بالشتم والتقبيح والوعيد .

فاسرعت لويزا الى النافذة حين سمعت اسم باردالیان ، ووقفت فيها بشكل ترى الناس ولا يرونها .

أما أمها فانها حين سمعت اسم باردالیان قالت : هوذا الذي خطف ابنتي ورماني بهذه النكبة ، وهوذا الجنود مطبقون عليه العل الله يريد عقابه بما اجترم .

ثم نظرت من النافذة فكان أول من رأته هنري دي مونمورانسي فقالت : هذا هو .

وقالت لويزا هوذا الشقاليبه دي باردالیان .

فقالت أمها . أخاف يا ابنتي ان يكون هذا الشقي باردالیان قد عرف اننا في هذا المنزل ، فأخبر مولاه هنري . ولكن ما بالك يا لويز ولماذا تبكين ؟

قالت أماه يجب ان ننقذه .. انهم إذا قتلوه أموت .

— من الذي تريدين انقاذه يا ابنتي . عودي إلى هداك ، أينقذ الانسان اعداءه .

— إني واثقة يا أماه انه ليس من اعدائنا ، وانه من خير المخلصين .

— ولكن عمن تتكلمين ؟

— تعالي يا أماه وانظري . انظري إلى الجهة اليسرى عند الباب .

فأطلت حنة من النافذة غير خائفة ان يراها هنري ، فرأت الشقاليبه باردالیان وعلمت ما يجول في قلب بنتها وسبب بكائها

ولكن نظرها لم يستقر غير لحظة على باردالیان الأصغر .

ثم نظرت إلى أبيه بجانبه ، فعرفت انه ذلك الرجل الذي رد اليها بنتها

وأعطاها المساعة ، ذلك الرجل الذي كانت مدينة له بجميل ابدي وهي لا تعرفه .

فارتدت عند ذلك من النافذة ووازنت بسرعة النصور بين جميل هذا الرجل عليها ، وبين ذعرها من هنري ، فعزمت لفورها على انقاذ هذا الرجل الذي يحاولون قتله وهو المحسن اليها ، فأخذت بيد ابنتها وقالت لها اتبعيني .

ونزلت معها ففتحت الباب ومشت إلى هنري دي مونمورانسي ، فكلمته وقد عرف القراء ما حدث .

فلما دخلت حنة وبنتها بباردالیان وابنه أحكمت حنة اقفال الباب ، وكان أول اهتمامها بضمد جراح البطلين .

ولم يكن واحد منهما قد اصيب بجرح خطر ، ولكن الضعف الذي تولاهما لقاء كان لشدة ما نزف من دمائهما .

فكان الأب ينظر إلى لويزا نظرات حنو ويقول في نفسه : والله لقد أصاب ولدي في هذا الغرام ، وإني أود ان اجرح كل يوم على أن تضمد جراحي هذه الحسناء كما تضمد جراح ولدي .

وكان ولده يناجي نفسه حين كانت لويزا تضمد جراحه فيقول : لا ريب إني قد انتقلت إلى الفردوس .

وكانت الأم تضمد جراح الأب والبنت تضمد جراح الولد .

فلما تم ضمد الجراح وقف باردالیان الأكبر فانحنى أمام حنة وقال :

اتشرف يا سيدتي ان اقدم لك ولدي الشقاليبه دي باردالیان ، وان اقدم لك نفسي وأنا هنري دي باردالیان من تلك الأسرة التي عرفت بفقرها وعظم اعمالها .

نعم يا سيدتي اننا من الفقراء ، ولكن لنا قلوباً إذا دخلها الامتنان لا يخرج منها إلا بها ، فنحن نضع في خدمتك هذين القلبين فانك انقذتنا من موت محتم

فأجابته حنة قائلة :

بل أنا مدينة لك يا سيدي بالجميل .

ـ لم أفهم يا سيدتي ما تقولين .

ـ كيف ذلك ألم تعرفني ؟ واذا كنت لم تعرفني ألم تعرف تلك الماسة التي وضعتها فوق صدر بنتي في تلك الليلة الهائلة التي لقيتني فيها تائهة في الغابات قرب مونمورانسي .

ـ إني عرفتك يا سيدتي حق العرفان ، ولكني لم أفهم كيف تكونين مدينة لي بالجميل ، في حين انه كان يجب ان تكرهيني أشد الكره

ـ كيف يكون ذلك يا سيدتي ، وأنت التي رددت إلي ابنتي وفيدتي بجميل لا انساه ما حييت .. وقد ذهلت الآن لما تقول بعد ان عرفت اسمك فانك حين رددت إلي ابنتي وسألتك عن اسم الذي اختطفها قلت لي انه يدعى باردالبان .

ـ هو ذاك واني موضح لك الحقيقة يا سيدتي ، على ما اخشاه من انك ستعودين إلى لعني كما لعنتني أول مرة .

فاعلمي يا سيدتي اني انا هو الذي اختطف الطفلة امتثالاً لأمر مدري دي مونمورانسي ، وان الرجل الذي رد اليك طفلتك والرجل الذي اختطفها واحد أي أنا .

نعم يا سيدتي أنا هو الذي ارتكب ذلك الاثم المنكر ، وهو الذنب الوحيد الذي ارتكبته في حياتي .

وما زال ضميري يقرعني حتى رددت اليك بنتك ، بالرغم عن مدري فارتحت بعض الارتياح .

ومع ذلك فاني لا أزال أعتقد اني استحق منك كل كره ، فالعني يا سيدتي كما لعنتني من قبل ، فان احساني برد بنتك لا يوازي اساءتي باختطافها .

فالتفتت حنة إلى بنتها وقالت لها :

لويزا .. هذا هو الرجل الكريم الذي لم يكترث لغضب هنري الهائل في سبيل رده إلى أمك واني أبارك تلك الساعة التي تمكنت فيها من شكره .

فاسرعت لويزا اليه وصافحته وشكرته وقدمت له جبينها .

فلثم باردالبان الأكبر ذلك الجبين النقي وتأثر تأثراً لم يشعر بمثله في حياته .

وقال لها

اني أدعو لك الله يا ابنتي ، ولو كانت حياتي تضمن لك السعادة لضحيتها لهنري في سبيل سعادتك .

فاخذت حنة عند ذلك خاتم الماس فوضعته في اصبع بنتها وقالت :

لقد أقسمت أن لا يفارقني هذا الخاتم وستبر ابنتي بهذا اليمين .

فنظرت لويزا عند ذلك إلى الشفاليه باردالبان واصفر وجهها كأنما كان هذا الخاتم خاتم عقد الخطبة بينهما .

* * *

وبعد ان فرغوا من هذه الأحاديث سألت حنة باردالبان الأصغر ، إذا كان قد أوصل كتابها إلى المارشال فرنسوا دي مونمورانسي .

فأخبرها الشفاليه عند ذلك ، كيف انهم قبضوا عليه وكيف كان خروجه من الباستيل .

فكانت لويزا مصغية اليه تسمع قصته وهي تخال انها تسمع قصة بطل من أبطال شارلمان .

ومضى باردالبان في حديثه إلى ان اخبرهما كيف انه أعطى رسالتها إلى المارشال فرنسوا .

فقالت له حنة بلهجة قنوط : إذن هو يعتقد اني اثيمة بدليل انه لم يعبر لانقاذي .

وحده فاضيه منتدى البلاس

فابتسم باردالیان وقال لها : اني أسألك يا سيدتي مهلة ثلاثة أيام لأروي لك نهاية قصتي .

فسأقضي من هذه المهلة يومين في معالجة الخدوش التي اصابتني ، ويوما لقضاء مهمة تعلمين بعدها كيف ان المارشال تلقى كتابك .

فاني أظن انه لا يجب علي ان اخبرك كيف كان استقباله لهذا الكتاب

ومهما يكن من ابهام كلام باردالیان فان حنة تلقت كلامه بالرجاء والارتياح فاحمر وجهها وقالت بصوت منخفض لم يسمعه أحد .

« فرنسوا ، ان دقيقة من فرح لقياك تنسيني ما لقيته في عشرين عاماً من مرارة العيش » .

وبعد ذلك أخذت الفتاة وأمها تهتمان باعداد فراشين للجريحين .

وفي الليل نام الجميع ما عدا باردالیان الأكبر ، فقد كان من عادته انه لا يدخل منزلاً ويبيت فيه الا بعد ان يفحصه ويعلم مداخله ومخارجه .

وقد بدأ فحصه بفتح نافذة الغرفة المقيم فيها ، وأطل منها فرأى عشرين جندياً بقيادة ضابط محدقين بالمنزل .

وقد اشعلوا المشاعل وثم معظمهم متشحين بأرديتهم ، ما خلا أربعة منهم كانوا واقفين عند الباب متكئين على بنادقهم ، واثنين كانا يسيران جيئة وذهاباً .

فأقفل النافذة وقد أيقن انه مع ولده من الهالكين ، فانهما كانا أسيرين بضيافة حنة دي بيانس ، فلا سبيل الى الهرب ولو فتحت لهم أبواب النجاة .

خلافاً لولده الشقاليبه ، فقد كان نسي انه أسير لا نجاة له وثم ملء جفنيه .

فنظر أبوه اليه نظرة اشفاق وقال :

ـ حيف على الشباب الغض ان تفنيه السجون ، ويا ليتنا قتلنا في تلك

المعركة فاني أخشى ان يكون النجاة الى هذا المنزل بدء شقائنا . اواه يا ولدي العزيز كم نصحتك ان تحذر النساء وتخشى الحب ، ولكنك خلقت لا تعرف الحذر والخوف .

ولقد صدق باردالیان فان موقفهما الآن بات أشد حرجاً من موقفهما السابق فانهما سيقيان سجينين في المنزل ، الى أن يروق لقائد الحرس فيسوقهما الى سجن الباستيل دون ان يجسرا على الدفاع أو الفرار حذراً من اهانة حنة لأنهما تعهدت بهما وضمنتهما

ثم رجع الى النافذة فرأى الجنود وقال

ـ هب ان المنزل غير مطوق بالجنود ، فلا سبيل إلى الفرار بعد تلك الضجة .

ووالله اني لا اشفق على نفسي بل على ولدي وهو زين الشباب فانهم يشحذون السيف لقتله ، او يسجنون الحبل لشنقه او يحفرون الهاوية لسجنه ، ثم يأتون فيختطفونه من أيدي من يحب ، ولا يستطيع الدفاع ، حرصاً على كرامة من يحب . فيا ليتني مت قبل أن أبرح تلك الحارة ، واحضر للتفرج على موكب الملك

وحده قاضياه

- ١٦ -

خاتمة الشقاء

ثم نام باردالیان کولده وقد سلم أمره إلى الله .

وفي صباح اليوم التالي صحا من نومه وقد نفذت الشمس إلى غرفته فرأى ولده جالساً في سريره وقد حمل رأسه بين يديه وهو ممعن في التفكير .

وكانت علائم الكآبة الشديدة ظاهرة على وجهه .

فسأله : ما بالك يا بني فاني أراقبك منذ حين وبماذا تفتكر .

– بهؤلاء الجنود الذين يحرسون الباب .

– أرأيتهم ؟

– نعم ، ولا بد لي من الذهاب إلى المارشال فرنسوا مونمورانسي والاتيان به إلى هنا .

– ولكن ذلك محال .

– كلا ، بل لا بد لي من الفوز ولو كان الشارع غاصاً بالجند ، لقد وعدت والدة لويزا وعداً لا بد من تحقيقه ، وانا واثق من الفوز به .

– كيف ذلك ؟

– إني أحضر المارشال إلى هنا ، وبعد ذلك ...

– ماذا ؟

– تنتهي مهمتي ، فإن المارشال يسير بامرأته وابنته ولا يبقى لي بعد كل

ذلك الا أن أحضر زواج السيدة مونمورانسي بأحد كبار النبلاء ، ثم نصبح حرين طليقين فنطوف الأرض كما نريد .

– ولكن طوافنا يبدأ من الباستيل .

– كيف ذلك ؟

– الملك نسيت أننا سجينان .

– صدقت يا أبي ، فلقد نسيت ان السيدة حنة قد خلصتنا ، ولا تستطيع ..

– ليست الضيافة وحدها التي تحول دون خروجنا من هذا السجن ، بل هؤلاء الجنود الذين يطوقونه .

فأطرق باردالیان مفكراً ، وبعد الامعان خطر له أن يدفع الجند بالحيلة إلى الاعتداء عليه ، فإذا فعلوا ذهب تأثير الضيافة ولم تعد حنة مسؤولة عن الأسيرين ..

وعند ذلك اتقدت عيناه ببارق من الرجاء .

وكأنما أباه كان يشاركه في تصوراته فقال له : وفي كل حال انك طلبت إلى السيدة حنة أن تمهلك ثلاثة أيام .

فهز الشفاليه رأسه ..

ثم قال : اني سألت هذه المهلة لأني كنت أعتقد أن جراحي لا تشفى قبل انقضائها ، ولكني أرى نفسي شديداً ، فإن هؤلاء الجبناء لا يعرفون كيف يجرحون .

– ولكن ... كيف تريد أن تخرج من هذا المنزل ، فاني فكرت في الطريقة ، فلم أجدها ... وفي كل حال ، فلا بد من الصبر إلى أن ينجم الظلام ...

– كلا ، فلا بد ان يكون المارشال هنا اليوم ، فقد وجدت الطريقة .

– ما هي ؟

فأراه باردالیان نافذة في سقف الغرفة .

فقال له أبوه : أعزمت على الخروج من السطوح .

– ما حيلتي اذا كنت لا أجد غير هذا الطريق

– لقد نصحتك يا بني مراراً فلم تنتصح ، وما زلت تخالف وصايا حتى بلغ بنا تهورك إلى هذا الموقف الحرج .

والآن فاني قد نسيت الماضي ، فحب على قدر ما تشاء ، ما زال الحنون يدفعك اليه .

ولكني لا أحب أن تلقي بنفسك من فوق السطوح .

وبعد فماذا يعنيك أمر هذا المارشال ؟ اني أريد أن تفعل الخير وتصنع الجميل اذا أمنت العاقبة ، وأما إذا كنت تخاطر بحياتك من أجل نعيم سواك فأية مروءة هذه ، وماذا يعنيك أمر هذا المارشال ؟

– إنك مخطىء يا أبي فان امره يعنيني .

– أتريد مرة أخرى عصيان أبيك الذي حنكته الأيام .

– لا بد لي من إحضار المارشال يا أبي .

– اذاً لا تريد ان تنثني عن عزمك ، ولا يطيب لك الا الاخلاص للناس والانتصار للضعيف ، والدفاع عن المظلوم ، ومحاربة الأقوياء الذي يجب علينا احترامهم .

فاذا كان لا يثنيك شيئاً عن هذا العزم فاني اتبعك يا بني في هذه الطريق التي سرت فيها كل حياتي ..

ولم يكن يقول هذا القول على سبيل التهكم ، بل اعتقاد صحيح .

فضمه باردالیان الى صدره ثم قال له : ساعدني اذاً يا ابي على الصعود الى النافذة .

– اصعد على كتفي وأنا أمسك رجليك بيدي كي لا تقع فتبلغ النافذة .

فوثب باردالیان الى ظهر أبيه ووقف على كتفيه وتعلق بالنافذة فصعد اليها

وخرج منها الى سطح المنزل .

وهناك رأى انه يستطيع النزول من السطح الى الحديقة ولكن الحراس يرونه بلا ريب .

ثم رأى أنه يستطيع النزول أيضاً من جهة أخرى ، ولكن النزول شديد الخطر .

وفوق ذلك فانه اذا رجع معه المارشال فرنسوا لا يستطيع الصعود من حيث نزل ولا يمكنه الدخول من الباب العام الذي يحرسه الحراس .

وفيما هو واقف يفكر سمع صوتاً ينادیه باسم غير اسمه .

فالتفت فرأى رجلاً أبيض اللحية جليلاً تدل هيأته على سلامة النية وحسن الطوية .

وذكر باردالیان انه رأى هذا الرجل مرة ولكنه لم يذكر اين رآه ، أما الشيخ فقد كان واقفاً فوق السطح المجاور لسطح منزل حنة .

ولم يكن يفصل بين السطحين غير زقاق ضيق لا يزيد عرضه عن مترين ، فابتسم له الشيخ وقال : أظنك تحاول الفرار يا سيدي .

– هو ذاك ..

– ولكن هذه الطريق التي تريد ان تسلكها شديدة الخطر ولا يمكن أن تبلغ بها الأرض سالماً فاصبر في مكانك الى ان أعود اليك .

ففرح باردالیان فرحاً لا يوصف وحاول ان يشكر هذا الرجل ، ولكنه توارى عن أنظاره .

ورجع باردالیان الى النافذة ونادى أباه وقال له : اصعد يا ابي وشاركني برأيك ..

– ماذا حدث ..

– اصعد فأخبرك . ثم جلس على حافة النافذة ومد رجله فتعلق بها أبوه وصعد الى السطح ، فأخبره بما اتفق له مع الشيخ .

وبعد هنيهة رجع الشيخ الى السطح يحمل سلماً فوضعه على حافتي السطحين ومشى على ذلك السلم الى السطح الواقف عليه باردالليان وأبوه فحياهما وقال :

أهلاً بك يا مسيو بريسار ويا مسيو دي روشيت .

فنظر اليه الأب والابن مندهشين ..

وقال لهما : كيف ذاك ألم تعرفاني ؟ انسيتما الرجل الذي انقذتماه مع تلك الصبية في شارع سانت انطوان عند تمثال ايبوقراط .

فضرب باردالليان الأكبر جبينه بيده وقال : نعم ، نعم لقد ذكرتك يا سيدي ولكني نسيت اسمك .

– اني أدعى رامبس .

– هو ذاك ، ولكن لا بد لي الآن من أن أقول لك اني لا أدعى بريسار ولا يدعى ولدي روشيت .

فابتسم الشيخ وقال : إذاً ماذا تدعيان .

– لقد كنا مضطرين في ذاك الحين الى اخفاء اسمينا ، أما أنا فاني ادعى هنري دي باردالليان ، ويدعى ولدي جان دي باردالليان .

فانحنى الشيخ وقال :

– لقد حضرت يا سيدي ، معركة أمس الهائلة ، وسأوضح لكما كيف وجدت هنا ، ولكن اتبعاني قبل كل شيء ، فاني أخشى ان يرانا الجنود فيقتضح امركما .

فامتثلا له ومشيا على ذاك السلم الى سطح المنزل الآخر فنزلا من باب فيه الى سلم يؤدي الى المنزل ، وذهبوا جميعهم الى قاعة متسعة .

وهناك قال لهما رامبس :

– اني اتيت أمس للتفرج على الموكب الملكي ، وحضرت تلك المعركة كما تقدم فعرفتكما .

ولبثت واقفاً حتى رأيتكما دخلتما الى هذا المنزل .

فعلمت ان خطراً عظيماً يتدركما ، وانكما لا بد أن تحاولا الفرار . وقد أنقذتما حياتي ، فرأيت انه يجب علي إنقاذ حياتكما ، وتذرعت إلى ذلك بحيلة بسيطة جداً ، وهي إني أتيت الى هذا المنزل الذي أنتم فيه الآن .. وقد فحصته فرأيت سطحه محاذياً لسطح المنزل الذي لجأتما اليه .

ثم رأيت ان باب هذا المنزل يشرف على زقاق وراء الشارع الكبير نفسه حيث تستطيعان الخروج منه دون أن يراكما أحد .

فذهبت إلى صاحبه واستأجرت منزله إلى أسبوع بما فيه الأثاث بحجة إني قادم إلي ضيوف جاؤوا مع الملك من بلوا .

فوافقني على تأجيره ، وخرج منه لفوره ، بحيث لا يوجد فيه الآن سواي .

فأسرعا يا سيدي بالفرار قبل ان يحدث ما هو فوق الحسبان .

فشكره الشفاليه باردالليان وقال له : يوجد أسباب تقضي علي أبي بالبقاء أسيراً في ذلك المنزل وسيخبرك بها ، أما أنا فأرجوك ان تدلني على الباب إذ لا مانع من ذهابي .

– تعال معي أيها الشاب .

ثم سار أمامه حتى أوصله إلى باب الزقاق .

فخرج منه باردالليان وسار مسرعاً في شارع غير شارع مونمارتر حتى وصل إلى قصر المارشال فرنسوا .

واستقبله البواب بلهف ، وقال له : إن سيدي المارشال ينتظرك بفارغ الصبر .

وأسرع باردالليان إلى المارشال .

ولما رآه فرنسوا قال له : أين كنت أيها الصديق ، فاني كنت أنتظرك للسفر ولم يعفني عنه إلاك .

– كيف ذلك يا سيدي أتسافر وتترك باريس .

– نعم ، فلم يبق فائدة من البحث في باريس ، لا سيما بعد ان أخبرني من عينتهم من الرقباء انهم رأوا مركبة مقفلة تسير في طريق جيان .

وهذه القرية كائنة في أملاك أخي ، فهو قد أرسلها اليها ، دون ريب ، فلنسرع علنا ندرك هذه المركبة في الطريق ، لأني أعددت عشرين فارساً لصحبتنا .

فأجابه باردالبان بملء السكينة : أتجاسر وأرجو مولاي ان يؤجل مبارحة باريس إلى المساء .

– لماذا يا باردالبان ؟.. لماذا ؟.. هلم نسافر ، لأن الدقائق تعد بالساعات .

– مولاي إني أعيد التماسي .

– ماذا ؟ العلك متردد في السفر ؟

– كلا ولكنك تبقى وأبقى معك ، وإذا شئت السفر نسافر في المساء ، أما الآن فإني أرجوك ان تسير معي .

– إلى أين ؟.. إلى أين ؟.. باردالبان إني أرى من فجتك ان الأمر خطير ...

– تعال معي يا مولاي وسترى .

فتصير المارشال هنيهة ثم قال :

– إن ثقتي بك قد تجاوزت كل حد يا شفالبيه ، وسأسير معك ... ولكن لا تنس ان الوقت ثمين وإذا تأخرنا ساعة يفوت الأوان .

– ماذا كنت تصنع يا سيدي لو لم أحضر إلا بعد ساعة ؟

– كنت أسافر وحدي .

ولم يظهر على باردالبان شيء من علائم التأثير ، ولكن قلبه كاد ينفجر ...

وبعد هنيهة كان الاثنان في الطريق ، حتى إذا وصلا إلى المنزل قرع باردالبان بابه ففتح له راميس وأدخل الاثنين إلى القاعة .

فقال له باردالبان : أتأذن انا يا سيدي أن نختلي في هذه القاعة ، لتزيدني منة على منة .

– إن هذا المنزل يا ابني لك ما زال لي .

ثم تركهما في القاعة وانصرف إلى غرفة بعيدة عنها .

فقال المارشال لباردالبان ، أين نحن الآن أيها الصديق ؟

فلم يجبه باردالبان على سؤاله وقال : أسأل مولاي ان ينتظرني في هذه القاعة بضع دقائق .

وذهب باردالبان فصعد إلى السطح وانتقل منه إلى السطح الآخر فذهب إلى النافذة ونادى أباه منها .

فقال له أبوه : إنهما تنتظرانك وقد قلقنا عليك .

– إذاً أبلغ يا أبي السيدة حنة دي بيانس والمدموازيل مونمورانسي ، ان المارشال فرنسوا ينتظرهما في قاعة المنزل الذي تعرفه ، وضع لهما سلماً على النافذة كي يخرجا منها إلى السطح وأوصلهما إلى القاعة .

ثم تركه وانزوى في زاوية من السطح وناء في مهامه التفكير .

* * *

ولبث المارشال فرنسوا جالساً في تلك القاعة ، ينظر نظرات مضطربة إلى ذلك الباب الذي خرج منه باردالبان ، وقلبه يخفق خفوقاً شديداً .

وقد خطر له ، على كرم أخلاقه وطيب عنصره ، خاطر أثار الشك في قلبه الكريم ، وحسب انه وقع في كمين ، وانهم جاءوا به إلى هذا

منتدى ليلاس

المنزل بكيدة .

فقد داخله هذا الريب ، بالرغم من ثقته بباردالیان . حتى انه وضع يده على خنجره وهو يقول : من يعلم فاذا كان أخي قد خانني ، فلا عجب إذا خانني الغريب .

وعند ذلك فتح باب تلك القاعة ببطء ، ودخلت منه حنة دي بيانس .

وكانت لا تزال مرتدية ملابسها السوداء التي كانت تزيد جمالها بهاء ، فرأت فرنسوا ووقفت واجمة جامدة وقد مدت يديها وحدقت بعينيها كأنها لا تصدق ما ترى .

ومع ان باردالیان الأكبر ، كان قد أخبرها بأن المارشال ينتظرها ، ولكن اندهاشها كان عظيماً ، حين رأته ، حتى انها وقفت وقوف التماثيل .

أما فرنسوا فانه حين رآها اهتز اهتزاز الأجسام تطلق عليها الكهرباء وحاول ان يلفظ اسم حنة فعقد لسانه ، وبدت علائم الذهول في عينيه كأنه كان يرى خيالاً .

ثم جعلت الدموع تتساقط ببطء وانتظام من عينيه وهو واقف وقوف الأصنام ينظر الى حنة كأنه في حلم نظرات تكشف عن معان تختلف بين الرعب والحزن والحب والاشفاق .

ثم مشى اليها ، وقد ضم يديه مثلها مشي المتثاقل دون ان يخرج من صدره وفمه أنة أو كلمة .

حتى إذا وصل اليها ركع أمامها ، وأحنى جبهته حتى كادت تلمس قدميها .

وعندها شهق بالبكاء ، فلم يسمع في تلك القاعة غير تلك الألحان الشجية المقدسة ..

ألحان البكاء ، بكاء الحب والاخلاص ولم يعترض هذه الألحان القدسية ، غير ثلاث كلمات خرجت من فمه متقطعة متلجلجة وقد تجسم فيها مثال الحب والحنو وهي :

ـ العفو ... العفو .. العفو ...

وقد كرر هذه الكلمات ، الى ان علا شهيقه ، فضاعت بين التنهد والبكاء .

ثم سكن ثائره تباعاً ، وأخذ بين يديه يد حنة ، ونهض فضمها الى صدره .

وقد حاول ان يتكلم فيظهر لها كل ما لقيه من العذاب وما يستحقه من اللعن لريبه بملاك الطهر والعفاف .

ولكن حنة حالت دون قصده فطوقت عنقه بذراعيها وابتسمت له ابتساماً نقياً طاهراً وأسندت رأسها الى كتفه .

فارتعش فرنسوا وذعر ذعراً غريباً ، ذلك انه ذكر هذا الابتسام وهذا التطويق واحتناء الرأس على الكتف وانها كما كانت في تلك الليلة التي عقد فيها زواجها بابتسامها ودلالها وإخلاصها .

فقال لها حنة .. حنة ...

ثم اضطرب اضطراباً شديداً وجعل يرتجف حين سمع صوتها ، ذلك الصوت الحنون الذي سمعه في تلك الليلة الهائلة التي اضطر فيها الى فراقها أثر زواجه ، فخاف وفرح في آن واحد .

أما حنة فإنها لبثت مطوقة عنقه بيديها ورأسها على كتفه وقالت له :

ـ أيها الحبيب .. إنك ستعرف أخيراً ذلك السر العزيز الذي لم أجسر على الإباحة لك به منذ ثلاثة أشهر ..

نعم يجب ان تعرفه الآن وسنقوله معاً لأبي ...

فذعر فرنسوا لهجتها وقال : حنة .. حنة .

– إصغ إلي يا فرنسوا . إني أصبحت امرأتك أيها الحبيب وقد بارك الله زواجنا .

– حنة .. حنة .

– إصغ يا فرنسوا .. إصغ الى سيرة الجميل الذي تقدس الآن بعد الزواج فرنسوا . . إنك ستغدو أباً .

ثم نظرت اليه تلك النظرات النقية التي كانت تنظرها وهي بنت وقالت :

فرنسوا .. وأنا سأغدو أماً .

فصاح فرنسوا صيحة منكرة تجسم فيها اليأس وقال :

– رباه . . إنها قد جُنّت .

ثم سقط على الأرض مغمياً عليه لا يعي .

- ١٧ -

كيف ان دقيقة فرح أثرت أكثر من اعوام شقاء

وجد المارشال فرنسوا مونمورانسي بعد سبعة عشر عاماً امرأته حنة دي بيانس التي فصلتها عنه جريمة أخيه .

فكانت تتمثل له تلك الأحداث الماضية شبه حلم وقد ابتعد عن بلاط الملك لذهاب أخيه اليه .

ثم تعاقبت الأيام وكرت السنون ، الى ان جاءه ذلك البطل باردالبان بكتاب من تلك المرأة التي كان يتوهم إنها مذنبة وان اسمها قد اختفى من مخيلته .

فظهرت له الحقيقة الناصعة من ذلك الكتاب ، وأيقن ان امرأته طاهرة وإنها ذهبت ضحية نذالة أخيه .

وقد دعته بذلك الكتاب زوجها وسألته النجدة لانقاذ ابنته لويزا ، فوسط الملك في أمر إنقاذ امرأته وابنته وحاول مبارزة أخيه وفتش كل مكان في باريس فذهبت كل مساعيه أدراج الرياح .

وبينما اليأس يهم بالرجوع الى قلبه جاءه ذلك البطل باردالبان وسار به الى تلك التي لم يحب سواها في الوجود .. تلك التي عاشت سبعة عشر عاماً عيش شقاء ، وأمضت على صك الطلاق كي تحميه من غضب أبيه ، ولقيها ولكنه وجدها مجنونة .

وقد كانت حنة شعرت في الأيام الأخيرة ان ساعاتها باتت معدودة في الحياة ولكنها كانت تقاوم الموت بشهامة اليأس كي تضمن مستقبل ابنتها ، ولا تضمن لها هذا المستقبل إلا حين تسلمها لأبيها .

وكان أقصى أمانيها ان تجد فرنسوا ولو كان يعتقد انها مذنبة فتسلمه ابنته وتموت بسلام .

ولما أخبرها باردالبان الأكبر بقدوم المارشال فرنسوا لم يظهر عليها شيء من علائم الاضطراب ولكنها تمتمت قائلة :

– دنت الساعة التي يجب ان أموت فيها .

ولم تكن تفتكر إلا بالموت ، ولكنها لم تكن تريده وتخشاه ، فكانت تشبه ذلك العامل يشتغل في المزارع منذ الفجر ثم إذا أقبل الليل لا يفتكر إلا بالنوم كي يرتاح من عناء النهار .

وعندها نادت ابنتها وعانقتها عناقاً طويلاً ، وهمست في أذنها كلمات صعقتها

فإنها حاولت ان تجيب أمها فلم تستطع وأرادت ان تتبعها فلم تتمكن وبقيت واقفة في مكانها أمام باردالیان الأكبر .

وأما حنة فلم يكن يشغلها في تلك الدقيقة غير لقاء زوجها ، فسارت اليه دون ان ترى ابنتها التي أغمي عليها .

وصعدت الى السطح وهي تقول :

— فرنسوا . لويزا . إني سأراكما أخيراً مجتمعين فأموت بسلام . نعم سأموت لأني أشعر ان كل شيء قد وهى بي حتى عقلي

وفتحت باب القاعة الموجود فيها فرنسوا ورأته فخيل لها أنها وثبت اليه تعانقه وانها صاحت صيحة فرح لا يوصف .

ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك لقد كانت شبه ميتة .

وكان أول ما مات بها عقلها فان هذه التعيسة التي لقيت من أصناف العذاب ما لم يلقه إنسان وتوالت عليها الارزاء تباعاً فتلقتها بصدر رحب ولقيت كل الصعاب في سبيل ابنتها .

إن هذه المرأة حين رأت زوجها ووثقت من سعادة ابنتها وأمنت عليها لم تعد تستطيع الدفاع فأسرع اليها ذلك الجنون الذي يترقبها منذ أعوام وانقض عليها مغتنما فرصة ذلك الضعف .

إن شقاء سبعة عشر عاماً لم يستطع قتل عقلها ، ولكن هناء لحظة قتله ، فأصبحت تلك المنكودة مجنونة لا عقل لها بعد ان لمست السعادة بيديها

غير ان العزاء كان ممكناً في جنونها ، إذا صح ان يكون في الجنون عزاء ، لأنه كان لطيفاً هادئاً ، رجع بها الى أيام صباها ، ومثل لها مارجنسي وحقولها ورياضها الغناء وحبها القديم حين كانت تجني أزهار الحدائق وتناجي من تحب

أيتها الزهرة النقية التي قضت على نضارتها يد الجريمة والظلم ، إن تاريخ

الظلم الانساني لا يخط لك في صفحاته غير جملة واحدة ، وهي : « زهرة سقطت » .

ولكن للمفكرين ، وأصحاب الشعور الدقيق ، والنفوس الطاهرة ، ينظرون إلى تاريخك المجيد ، ويتخذون نفسك النبيلة مثالاً للشقاء الانساني ، ونحن الذين نكتب تاريخ شقائك نحييك تحية الوداع ، وتناجيك بملء الاحترام فنقول :

أنت يا فتنة العيون ويا ... أبدع موصوفة على الاطلاق
أنت يا آية الطهارة يا من ... حكمت لحظها على العشاق
أنت يا من قتلت نفسك بالذل ... ليحيى مكارم الأخلاق
كل شيء على البسيطة فانٍ ... قد مضى عهدك القديم ولكن
ذكر أعمالك الشريفة باقي

وحدة القاضية

عندما صحا المارشال فرنسوا من إغمائه وقف ونظر إلى ما حوله نظرة من يستفيق من رقاده أو حلم .

ورأى حنة جالسة على كرسي ، وهي باسمة الوجه باسمة ، ولكن عينيها والأسفاه تدلان على الجنون .

ورأى صبية راكعة بقربها ، وقد وضعت رأسها على ركبتيها ، وهي تبكي .

فدنا فرنسوا من تلك الصبية ولمس كتفها

فرفعت لويزا رأسها ونظرت اليه .

فأخذ فرنسوا يدها وأنهضها دون ان تعترضه أمها ، وجعل ينظر اليها فعرف لأول وهلة إنها ابنته ، لأنها كانت تشبه وتشبه أمها شبهاً عجيباً

حين كان لها عمرها .

فضمها إلى صدره وهو يناديها باعذب الألفاظ .

ثم جلس بجانب حنة ، وأجلس ابنته على ركبتيه ، كأنها لا تزال في عهد الحداثة وقال لها : واأسفاه يا ابنتي ، إنك فقدت أمك ولكنك فقدتها حين وجدت أباك .

وجعل الاثنان يبكيان بكاء شديداً وحنة تنظر اليهما دون تأثر .

حتى إذا سكن ثائر اضطرابهما طلب الأب الى ابنته ان تروي له كل ما تعلمه عن أمها .

فروت له حكايتها بالتفصيل .

ثم روى لها أبوها جميع ما اتفق له منذ ذلك الفراق إلى الآن .

ولما أتم كل منهما حكايته للآخر حسب فرنسوا انه لم يقم غير ساعة في تلك القاعة .

ولكنه جاء اليها في الساعة التاسعة من الصباح ، وحين قبل مع إبنته جبين إمرأته المصفر ، كانت الساعة قد بلغت الأولى بعد انتصاف الليل .

- ١٨ -

كيف ان جيل قد وفى بوعد

باردالیان الأكبر

بعد أن حضر هنري دي مونمورانسي حادثة شارع مونمارتر ، وبعد ان استوثق من انه يستحيل على الأسيرتين ان تخرجا من ذلك المنزل الذي تطوقه الجنود ذهب إلى قصر مسح .

وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً انه قبض على باردالیان وابنه ، وانه لا بد من قتلهما هذه المرة .

وكان في البدء يكتفي بقتل واحد منهما ، ولكنه بات واثقاً الآن ان الاثنين عالمان بسر مؤامرته مع الدوق دي كيز وانهما لا بد لهما من الاباحة بسر هذه المؤامرة .

وكان عندما وثق ان باردالیان الأكبر تبع المركبة ، وعرف مكان الأسيرتين عزم عزماً أكيداً على قتله وهو واثق انه سيخسر بقتله عضداً قوياً ولكنه لم يجد بداً من التخلص منه كي يأمن على أسيرتيه .

ولم يكن انشغال هنري قاصراً على الاهتمام بحنة وابنتها بل كان مهتماً بأمرين مختلفين لا بأس من إيضاحهما للقراء .

وذلك انه كان قد اشترك بالمؤامرة مع الدوق دي كيز على خلع

ملك فرنسا .

وإنما فعل ذلك لشدة كرهه لأخيه ، ولأن الدوق دي كيز قد وعده وتعهد له بقتل أخيه فرنسوا فيصبح هنري رئيس اسرة مونمورانسي فيرث تلك الأموال التي لا تحصى ويعين أمير الجيوش كما كان أبوه بحيث يغدو أعظم عظيم في فرنسا بعد الملك .

ثم انه كان يعمل سراً على إبادة الهوكينوت وجر المملكة إلى حادثة خطيرة قد يتكلل بعدها بإكليل من المجد

ومن يعلم بعد ذلك . فإذا كان الدوق دي كيز قد تمكن من خلع الملك فلماذا لا يتمكن هو من خلع الدوق دي كيز

ولم تكن تخطر له هذه الخواطر كلها إلا لما كان يطمع به من الاستيلاء على جنة .

لقد كان يرجو حين يرقى إلى هذه المنزلة الرفيعة ان يتمكن من إرضائها لا سيما حين تعلم ان فرنسوا أصبح من الهالكين .

ولذا كان يبالغ في إخفاء جنة عن الأنظار حذراً من ان تجتمع بأخيه . وكان يخاف باردالبان لوقوفه على سر مؤامرته ولكنه حين أخبره الفيكونت اسبرمونت وأقنعه أن باردالبان قد تتبع المركبة وعرف مكان الأسيرتين عزم على قتله ثم يحتال بعد ذلك على قتل ولده

فلما سافر إلى بلوا كان يعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ان باردالبان الأكبر قد مات فأوصى وكيله جيل ان يطرح جثته في نهر السين وان يراقب المنزل المسجونة فيه الأسيرتان وهو منزل اليس .

ولكنه حين رجع من بلوا ورأى بعينه باردالبان وبجانبه ابنه كان دهشه وياسه لا يوصفان .

ولا سيما حين رأى جنة أيضاً ، وعلم أن جميع مساعيه ذهبت أدراج الرياح .

وأيقن أن باردالبان وابنه سيبوحان بسر المؤامرة ، وان أخاه فرنسوا سيأخذ جنة وابنتها .

ورجع إلى قصره وهو مصمم على ان يستحصل على أمر من الملك ويعود الى محاصرة المنزل ويرى بعينه قتل باردالبان وابنه .

ولكنه أراد قبل ذلك ان يعلم كيف ان باردالبان نجا من ذلك القبو وكيف أن وكيله جيل ترك جنة تخرج من منزل اليس .

وقد وصل إلى قصره وهو يزبد من الغيظ وينوي شر نية لوكيله . فطاف في القصر فلم يجد فيه أحداً .

فذكر انه أرسل جميع رجاله إلى قصره الآخر .

وذهب إلى ذلك القبو ، الذي سجن فيه باردالبان ، كي يعلم كيف كان خروجه منه .

فلما وصل اليه وجد بابه مفتوحاً ، فدخل فرأى نوراً ضعيفاً ، فقال في نفسه : انه إذا كان جيل في القبو جعلته قبراً له كما كان يجب ان يكون قبراً لباردالبان .

ثم نزل درجات السلم ، حتى وصل إلى آخرها ، ووقف منذهلاً . إذ رأى منظراً غريباً ، فانسل إلى زاوية مظلمة في القبو ، ووقف ينظر كي لا يفوته شيء .

ذلك انه رأى جيلوت مكتوف اليدين والرجلين ، ومشدود إلى عمود ورأى وكيله جيل جالساً أمامه على برميل ، وهو مشتغل بشحذ سكين رقيق الشفرة

ولنذكر الآن كيف ان جيلوت وجد في هذا القبو مع خاله ، في حين انه كان يجب عليه ان يهرب منه حذراً من غضبه بعد ان أرشد باردالبان إلى مكان الأسيرتين فنقول :

إن جيلوت هذا كان من الذين تجمعت فيهم جميع العيوب ، فهو خبيث

مخادع منافق كاذب طباع كسول شرير جبان .

وفوق ذلك فقد كان مكلا بالبخل وقد أخذ هذا العيب عن خاله .

وقد عرف القراء كيف أن جيل رضي ان يموت كي لا يخون سيده ويخبر باردالليان عن مكان الأسيرتين خلافاً لجيلوت فانه خاف على أذنيه من القطع فلم يتأخر لحظة في إرشاده إلى المكان .

وقد اغتنم فرصة اضطراب خاله واشتغاله بمحادثة باردالليان فخرج من القبو لأن باردالليان إذا كان قد عفا عن أذنيه فان خاله لا يعفو عنه ويشكوه للدوق، ذلك الرجل الهائل الذي لا يشفق على أحد، ولا يكون حظه منه بعد ذلك غير القتل الذريع .

وقد قال في نفسه ، حين خرج من القبو : لا بد لي من الهرب من باريس نفسها ، فإني إذا سلمت من الموت بالشنق أو الصلب فلا أسلم من الموت خوفاً وهماً وجزعاً ، فخير لي أن أبرح باريس إلى أية جهة كانت بشرط أن أكون بعيداً عنها .

ثم هم بالخروج من القصر ولكنه توقف فجأة وقال : إن مثل هذا السفر يقتضي له الكثير من النفقات .

فبحث في جيبه فلم يجد غير بضع قطع نحاسية ، فخطر له خاطر سريع برقت له عيناه وهو انه إذا كان فقيراً كان خاله من الأغنياء .

وكان يعرف ان خاله يضع ماله في ذلك الصندوق .

فخطر له ان يأخذ فأساً فيكسر به الصندوق ويملأ جيوبه ذهباً ثم يفر هارباً الى الريف .

وعندها أخذ فأساً من الحديقة ، وصعد مسرعا إلى غرفة خاله ، وجعل يفحص ذلك الصندوق كي يعلم اين يجب ان يضرب ، فرأى انه مفتوح ولا حاجة إلى كسره .

ويذكر القراء ان باردالليان الأكبر كان قد تشرف قبله بزيارة هذا

الصندوق وأخذ منه غرامته الحربية .

ففتح جيلوت الصندوق ورأى اكداس الذهب فيه فطار فؤاده سروراً وركع عنده وجعل يأخذ منه ويضع في جيوبه .

وقد نسي الأرض والسماء في تلك الساعة ، ونسي باردالليان وخاله وماتت عواطفه كلها فلم يبق فيه حياً غير الطمع .

وبعد أن ملأ جيوبه وقف ينظر إلى الذهب المكدس في الصندوق ويأسف لأنه لا يستطيع أن يحمل كل ما فيه .

ولكنه لم يقنع بما أخذه فأخذ قبضة من الذهب وادخلها في حذائه ثم أقفل الصندوق مغضباً لأنه لم يستطع ان ينهب كل ما فيه .

وأقفل راجعاً يريد الفرار فلم يكد يلتفت إلى الباب حتى جمد الدم في عروقه وجحظت عيناه واندلع لسانه .

ذلك انه رأى خاله واقفاً في الباب وهو ينظر اليه بملأ جيوبه ويبتسم ابتسام الانتقام .

فركع جيلوت امامه وتلعثم لسانه فلم يستطع ان يفوه بحرف .

فقال له خاله : ماذا تصنع هنا ؟

– كما رأيتني .. كنت .. ارتب صندوقك .

– إذاً عد إلى ترتيبه ، فقد كان فيه ما تبلغ قيمته ثمانين الف ريال وهو كل ما اقتصدته في حياتي .

فعاد جيلوت إلى الصندوق وأخرج كل ما سرقه وأعاده اليه بالترتيب وخاله يراقبه .

وكان كلما اخرج شيئاً واعاده إلى مكانه تنهد .

وكان خاله يحسب ذلك المال فيقول : لا يزال ينقص خمسة عشر الفاً ... اثنا عشر الفاً .. عشرة الآف .

حتى اذا أخرج جيلوت اخر دينار حسب ماله الموجود في الصندوق وقال

فانتهره خاله قائلاً : كفى صياحاً أو أقتلك .

وقال جيلوت في نفسه : إنه لا يريد أن يقتلني كما يظهر .. ولكن ما عساه يريد .

ولما فرغ جيل من شحذ السكين نظر إلى ابن اخته وقال :

– إني سأحكم عليك حكماً عادلاً يرتاح اليه ضميري ، ولا أنسى في حكمي انك ابن أختي ، أي اني سأتساهل بقدر ما تسمح ذنوبك فأجبني عما أسالك بصدق وجلاء .

فبدأ جيلوت يطمئن وقال له : سلني يا خالي ما تشاء أجبك .

– إذاً أنت تبعت المركبة التي وضع فيها مولاي الدوق أسيرتيه .

– نعم وقد تبعتها إلى شارع لاهاش .

– ارآك أحد .. إحذر أن تكذب ، لأن حياتك موقوفة على صدقك ..

– أظن أن الفيكونت اسبرمونت رآني ولكني لا أظن انه عرفني .

– ما كانت غايتك من اقتفاء أثر المركبة .

– لم يكن لي غاية ولم يدفعني إلى ذلك غير الفضول .

– لقد رأيت ما لا يجب أن تراه يا بني .

– إني ندمت الندم الشديد ، وأقسم لك اني لا أرجع بعد الان إلى هذا الفضول ..

– والان ، أيها اللص الشقي الخائن ، قل لي مـــا دفعك إلى أن ترشد باردالیان وابنه إلى مكان الأسيرتين .

– ألم تسمع ما أنذرني به ذلك الشيطان ؟ إني أردت إنقـاذ أذني من القطع ..

– أيها الخائن الجبان ، الم تر أيضاً انه انذرني بالقتـل فكشفت له عن صدري لخنجره كي لا أبوح بالسر ، ألم تراني عرضت عليه كل ثروتي وهي أعز

من حياتي . ثم فضلت أن أموت حريصاً على سر مولاي .. أتعلم أيها السافل ما فعلت خيانتك بمولاي ؟

– أسالك العفو يا خالي ، فقد خفت خوفاً شديداً على أذني .

– رأة ، ماذا يحل بي أيها الخائن ، ومـا يكون جزائي من هـذا السيد القادر العظيم .

وكيف أجسر على مقابلته بعد هذه الخيـانة ، اليس الأولى بي أن أنتحر قبل أن يحضر .

– كلا يا خالي ، لا تقل ذلك فـاني أموت أسفاً عليك ، ومولاك الدوق كثير الرحمة .

وكان جيل صادقاً في قوله فوضع رأسه بين يديه وجعل يمهد لنفسه سبيل الانتحار حذراً من غضب الدوق .

ومع ذلك فقد كان لديه شاهدان على براءته ، وحسن دفاعه ، أحدهمـا ابن أخته جيلوت ، والثاني باردالیان نفسه ، فقد وعده أن يكتب لمولاه مـا يثبت حسن وفائه .

وعلى ذلك لم يجد بداً من استبقاء جيلوت ، ولكنه لا بد من معاقبته عقاباً صارماً يجعله عبرة لنفسه ولسواه من الخائنين .

فنظر إلى ابن أخته وقال :

– إني لا أحكم عليك بالموت ، فإن سيدي الدوق يحكم عليك بما يشاء ، فالأمر اليه ..

ولكن ... لا بد لي من معـــاقبتك والانتقام منك عن إساءتك الي إساءة تدنس شرفي ... ذلك عـــدا عن الثلاثة آلاف هبتار التي فرت من صندوقي ..

– ولكني لست انا الذي سرقها .

– وأنا غفرت لك جريمة السرقة ، وربما غفر لك مولاي الدوق جريمة الخيانة ، بشرط أن تخبره بالأمر كما اتفق دون أن تنقص أو تزيد ، اقسم على ذلك .

– أقسم بالله اني أخبره بكل شيء .

– إذا كان ذاك فاني اكتفي بعقابك عمـــا اسأت به إلي فانك عرضتني للطرد من خدمة مولاي على الأقل .

– كيف هذا ، وكيف تريد عقابي .

– نعم انك خنت خالك وخنت مولاك كي تصون أذنيك وساعاقبك بقطع أذنيك .

فذعر جيلوت ذعراً شديداً وقال : رباه ماذا أسمع .

ثم رأى خاله قد دنا منه ، وأمسك أذنه والسكين في يده فأطبق عينيه وقال :

– إكتف بقطع اذن واحدة على الأقل .

ولم يكد يقول هذا القول وهو بين مصدق ومكذب لما يراه حتى صاح صيحة ألم منكرة .

فان هذا الشيخ الهائل قبض على أذنه اليمنى وقطعها بسكينه المسنون وسقطت تلك الأذن على أرض القبو .

وجعل جيلوت يصيح مستنجداً مستغيثاً متوسلاً إلى خـــاله أن يبقي له أذنه الثانية .

ولكن خاله أجابه بقطع الثانية كما قطع الأولى والقاها على الأرض في جانب أختها .

ولما أتم مهمته الهائلة وقف ينظر اليه ويبتسم ابتسام رجل مجرد قلبه من الرحمة وجيلوت يصيح صياح يقطع القلوب من الاشفاق .

ثم نظر الشيخ إلى الدم يسيل من أذني ذلك المنكود كأفواه القرب فارتعد

وقال في نفسه انه إذا طال نزف دمه مات ، ولا أحب أن يموت قبـل أن يحضر الدوق فانه شاهد لديه .

فأسرع الى المطبخ وجاء بأدوات الضمد .

وكان جيلوت قد أغمي عليه .

فأخذ ضمد جراحه ، ثم نضح وجهه بالماء فاستفاق وأن انيناً مؤلماً وهو يقول كيف أسمع الان بعد أن قطعت أذني .

فأجابه قائلاً : قم أيها الأبله .

وقد كان هذا القول كل ما عزاه في نكبته .

ثم ساعده على النهوض ، وسار بـــه ، يريد الخروج من ذاك القبو والمصباح بيده .

حتى وصلا الى السلم فوقف الاثنان منذعرين ، إذ رأيا هنري مونورانسي واقفاً عند السلم .

فركع جيل وهو يقول مولاي .

وقال جيلوت في نفسه : لقد قضي عـلي الان القضاء المبرم . وسقط مغمياً عليه .

فقال هنري لجيل : ماذا حدث .

– مصاب عظيم يا سيدي ، وأنا بريء ، بل أقسم لك اني بريء ، فقد كنت مراقباً كل المراقبة ، ولكن القضاء وهذا الأبله قد أفسدا الأمر .

فأجابه بجفاء قائلاً : أوضح ما تقول يا جيل .

– ان باردالبان يعلم مكان الأسيرتين وهما الان في قبضته بلا ريب .

– وانت ألم يكن لك يد في هذه الخيانة

– معاذ الله أن أخون مولاي وليتفضل سيدي بسؤال هذا الشقي الذي قطعت اذنيه لتثبت له براءتي .

– لا فائدة من سؤاله فاني أثق بكلامك فانهض .

– مولاي ان تفتكم بي خير جزاء لي عن إخلاصي .
– اذاً لا تزال مخلصاً .

– الى أن أموت .. فمر يا سيدي بما تشاء ، فان حياتي وقف على ارادتك .

– اعزمت على صنع كل شيء ، في سبيل اصلاح ذلك الشقاء الذي نكبتني به .
– اني مستعد لسفك دمي .
– إذاً تعال معي فاني لا أريد سفك دمك ، واجهد قريحتك فان ما سأطلبه اليك أصعب من الموت لأجلي .
– وأنا متأهب يا سيدي ولكن هذا الأبله ماذا أصنع به .
– أي ابله تعني ؟
– ابن اختي هذا أأجهز عليه فانه يستحق الموت .
– كلا ، فانه يستطيع خدمتك في المهمة التي سأنتدبك لها .. تعال .

– ١٩ –

الفلكي

لندع الآن هنري دي مونمورانسي يحرق الأرم من الغيظ ..

ويعن الفكرة في سبيل ايجاد الطريقة المضمونة للقبض على باردالليان واينه ، واسترجاع حنة وحجزها في مكان خفي الى ان يحين ذلك اليوم الذي ينتظره بملء الرجاء .

وهو اليوم الذي تنتصر فيه أسرة لورين ..

أي أسرة الدوق دي كيز وتبقي مملكتها الجديدة على أنقاض مملكة أسرة فالوا .

ذلك اليوم الذي يصاب فيه ، الملك شارل التاسع ، وأخوه الدوق دانجو برصاصتين تخطفان روحيهما ، فيضع الدوق دي كيز على رأسه تاج فرنسا .

ولندع أيضاً فرنسوا دي مونمورانسي وتلك الجنونة المنكودة وابنتها لويزا في منزل العالم راميس .

ولنقص على قرائنا ما يقضي به سياق الحديث فنقول :

بعد هذه الحوادث التي تقدم ذكرها بثلاثة أيام .

وبعد دخول الملك الى باريس دخول المنتصر . كان اثنان يسيران في الساعة العاشرة من الليل سيراً بطيئاً في الظلام الحالك الذي يكتنف حدائق

قصر الملكة الجديد ، الذي بنته الملكة كاترين لرينيه الفلكي ، أبي ولدها ديودات .

وقد كان هذان الخيالان رينيه الفلكي والملكة كاترين ، وهما قادمان من اللوفر الى ذاك القصر الجديد الذى كان يشتغل فيه الفلكي والملكة برصد الكواكب واستقبال تقارير الجواسيس .

ولما وصلا اليه فتح رينيه باب المرصد بمفتاح كان يجيبه ودخل مع الملكة الى تلك الغرفة التي كانت اليس دى ليكس ترمي تقاريرها الى الملكة من نافذتها .

وقد كانت اليس جاسوسة الملكة ..

ولكن لورا العجوز التي كانت تقيم اليس في منزلها كانت أيضاً جاسوسة الملكة على اليس ..

وقد كانت أرسلت اليها في ذلك اليوم هذا التقرير :

« سافزار اليس في الساعة العاشرة من هذه الليلة زيارة خطيرة ، سأفصل نتائجها » .

ولما دخلت الملكة مع الفلكي الى تلك الغرفة ، اقتربت من نافذتها وهي تطل على الشارع .

وسمعت خطوات أقدام فأسرعت الى النافذة وأطلت منها ..

فلم ترى شيئاً ، لشدة الظلام . ولكنها سمعت تلك الخطوات كانت تدنو منها ، وجعلت تصغي ، وقد ضغطت على يد الفلكي وقالت له : اسكت ..

وقد كانت هذه الملكة من أحذق الناس في صناعة التجسس ، فهي التي وضعت نظام البوليس السري واستخدمت جيشاً من الجواسيس بين حذاق الرجال والنساء . فبلغت بهم ما تشاء من أعدائها .

اما الفلكي فانه هز كتفيه وقال لها بصوت مرتفع : لا فائدة من الاصغاء

يا سيدتي فانهم عابروا سبيل بلا ريب .

فقالت له الملكة : اسكت .

وقد قالت له هذه الكلمة بلهجة ظهر فيها الوعيد فاصفر وجه الفلكي وسكت طائعاً مكرهاً .

ولا يمكن ان يخطر لأولئك المارين انه يوجد من يسمع حديثهم .

لأن تلك الغرفة التي كانت الملكة تتجسس منها ، كانت مظلمة لا نور فيها .

وبعد هنيهة سمعت الملكة صوت رجل تتبين الكآبة من نبراته يقول :

— اني انتظر جلالتك هنا فأراقب في هذا الموقف شارعي ترافرسين ولاهاش ، ولا يستطيع احد ان يدخل من ذاك الباب الأخضر الى المنزل دون أن اراه وامنعه عن الدخول اليه بحيث تكون جلالتك آمنة فيه .

فأجابه صوت إمرأة قائلة :

— لا أخاف شيئاً يا كونت فاطمئن .

وكان الفلكي قد سمع صوت الرجل فارتعش وقال ديودات

وقالت الملكة انها ملكة النافار فاسكت يا رينيه ولتسمع .

فقال ديودات : هوذا الباب الأخضر يا سيدتي . انظري إلى النافذة فان النور ينبعث منها ولا شك أن رسولك قد وصل اليها فهي تنتظرك .

فقالت له الملكة : ما بالك مضطرباً يا بني

— لأني لم اتأثر في حياتي مثل هذا التأثير ، واذا علمت يا سيدتي ان حياتي موقوفة على هذه المقابلة ، هان عليك أن تعرفي سبب اضطرابي .

ومهما يكن من الأمر فاني أباركك يا سيدتي واعترف اني مدين لك بهذه الحياة .

— ديودات .. أنت تعلم إني أحبك كما أحب ولدي .

— نعم يا ملكتي ، وقد كان يجب والأسف على سواك أن يجبني هذا

وحده قاضيه

الحب ومن يصدق يا سيدتي ان أمي بعد أن عرفتني في تلك المقابلة ، ورأت اضطرابي وسمعت شكواي وسبرت غور آلامي لم تقل لي كلمة تدل على ذرة من التأثر والاشفاق

– صبراً يا بني وتشجع فاني أرجو بعد ساعة أن أعود اليك بخبر مفرح يفرج همك .

وعند ذلك تركت الملكة ديودات وذهبت إلى ذلك الباب الأخضر ، باب منزل اليس فطرقته

أما ديودات فانه ضم ذراعيه فوق صدره ووقف ينتظر تحت تلك النافذة التي كانت أمه تسمع حديثه منها .

ووقف أولئك الثلاثة الذين لم يكن يفصل بينهم غير الجدار يفكر كل منهم بأمر ، وهم الأب والأم والإبن .

وقد وقف الفلكي عند النافذة بشكل لا تستطيع معه كاترين أن تبدو منها ، فان رأس ولدها كان محاذياً للنافذة .

وذلك أن كاترين كانت تتسلح دائماً بخنجر طويل غمس رأسه بسم هائل ، بحيث إذا خدش الجسم أقل خدش نفذ السم إلى ذلك الجسم وأمات صاحبه شر موت .

وهو الذي أعد لها ذلك السم في ذلك الخنجر ، فكان يخاف أن تبدو ذلك الخنجر من النافذة وتجرح به ديودات .

ولكن الملكة لم تفعل ، وبقي الثلاثة ساعة صامتين واجمين .

وعند انتصاف الليل خرجت ملكة النافار من منزل اليس ، فجاءت إلى ديودات وقالت له :

تعال يا بني إذ يجب أن نتحدث دون تأخير .

ثم تأبطت ذراعه وسارت واياه .

فقالت الملكة كاترين عند ذلك للفلكي ، أنر المصباح الآن ، فلم يبق خوف

من النور .

فامتثل الفلكي ورأت الملكة وجهه مصفراً على نور المصباح ، فهزت كتفيها وقالت له :

أظننت يا ريفيه إني أريد قتله

– نعم .

– أهذا الذي أخافك ؟

– لا أستطيع انكار خوفي .

– ولكني أقل لك إني لا أريد له الموت ، بل انه قد يفيدني . وأنت ترى أن قتله لم يخطر في بالي ، فانه لا يزال حياً بعد ما سمعته من حديثه . . .

أسمعت أنت ما قال ؟ أن كلماته يا ريفيه لا تزال ترن في اذني ، فهو يعلم إني أمه .

وقد كنت من قبل مشككة ، أما الآن فلم يبق سبيل للشك يا ريفيه بعد ان سمعت قوله باذني .

ولو قيل هذا القول لغير ريفيه لما تأثر ، ولكن ريفيه كان يعرف الملكة حق العرفان ، فارتعش ارتعاشاً لم يخف على الملكة

فقالت له :

ولكن اطمئن يا ريفيه ، فاني لا أمس عواطفك الأبوية ، ألم تطمئن ؟

– كلا يا سيدتي ، فاني واثق ان ولدي سيموت ، ولا يوجد قوة في الوجود تنقذه .

فجلست الملكة في كرسيها وقالت له : أوضح ما تقول يا ريفيه .

فدنا ريفيه من كرسيها وقد اصفر وجهه ، واختلج قلبه وتهدج صوته وقال :

انك تريدين ان تعرفي يا سيدتي كيف ان ولدي سيموت ، وكيف انه

لا يوجد قوة في الوجود تنقذه حتى ولو التمست هذه القوة من قلبك الشفوق ، إذن فاعلمي .

انك حين ارسلتني إلى باردليان بتلك المهمة ، ورأيت ديودات في ذلك الفندق عرفت انه ولدي .

ولكني نظرت اليه كما انظر لرجل غريب ، فقد كنت انت كل ما يشغلني في هذه الحياة .

ثم جعل الحنو يتصل بقلبي تباعاً ، وتولدت من هذا الحنو عاطفة اشفاق جعلتني شديد العذاب حتى اني جئتك وقلت لك انه ولدنا فلا تقضي عليه .

ولما علمت انك قضيت عليه القضاء المبرم ، اكتفيت بالبكاء لانك تسلطت علي سلطة عجيبة لا حد لها .

فما أنت بعشيقتي ، وما أنت بملكتي ، بل أنت فوق كل ذلك ، بل أنت قوة جاذبة تجذب قلبي وضميري إلى حيث تشاء .

ولا انكر عليك اني قاومت هذه القوة الجاذبة : وحاولت خلع سلطتك علي ، وقد استشرت النجوم أخيراً ، فلم أجد منها غير جوابات مبهمة ، فعولت على ان اقف حائلاً بينك وبينه ، وأن أمنعك عن قتل ولدنا ، ولكني أعلم انه لا بد له ان يموت .

وقد كانت هذه الملكة على ذكائها وشدة سلطانها على الفلكي تخضع له صاغرة حين يحدثها بالكواكب ، فانها كانت تعتقد اعتقاداً غريباً بالتنجم ورصد الأفلاك .

وعاد الفلكي إلى الحديث فقال ببطء .

انه حين تجيبني النجوم جواباً مبهماً ، وحينما لا أجد حلا للمشكلة التي اعرضها عليها أجد حلا لها من طريق آخر ، واسمعي ما جرى يا كاترين .

انك كنت واقفة عند النافذة ، وانا كنت بجانبك وعيناي محدقتان

بيدك ، فان هذا الخاتم الذي تلبسينه كان يتوهج في الظلام فاراقب من توهجه حركة يدك .

وكنت عازماً على ان اوقف تلك اليد لو خطر لك ان تمديها إلى الخنجر .

وفيما أنا كذلك اضطرب نظري فجأة ، فلم أعد أرى الخاتم واليد ، وفي الوقت نفسه شعرت بهزة في دماغي واتجه رأسي بالرغم عني إلى النافذة .

فايقنت من هذه الدلائل اني اتصلت بالقوة غير المنظورة ، وهي تلك القوة التي ترشدني إلى حل المعميات حين تأبى النجوم حلها .

وقد نفذت نظراتي من خلال النافذة .

ومما يجب ملاحظته إني لم أكن استطيع في موقفي ان أرى ديودات من النافذة ، ومع ذلك فقد رأيته على قيد عشرين خطوة من النافذة في حين انه كان ملتصقاً بها .

ورأيته بين الأرض والسماء يعلو عن الأرض عشرة أقدام ويكتنفه الشعاع من كل جهة فيقشع عنه الظلمات حتى انه هو نفسه كان يضيء ويتألق كأنه تحول إلى كتلة من نور .

وكان واضعاً احدى يديه على ثديه الأيمن ، ثم سقطت يده ببطء ، فرأيت مكانها جرحاً عريضاً يتدفق منه الدم ، ولكنه لم يكن دماً أحمر كالدم المعروف ، بل انه كان يشبه الزجاج المذوب .

وليث ولدي ماثلاً أمامي في الهواء نحو دقيقتين على ما وصفت .

وقد التقت نظراتنا ، فكانت نظراتي تدل على الرعب ، ونظراته تدل على الكآبة .

ثم جعل يضمحل تباعاً حتى استحال إلى دخان رقيق وانطفأ نوره ، ثم لم أعد أرى شيئاً ، وغاب عن عيني كأنه لم يكن .

وقد قال ريفيه كلماته الأخيرة بصوت خافت ، فلما انتهى عاد ينظر إلى الفضاء نظرات حائرة .

فزعت كاترين رعباً شديداً ، ووقفت كأنها تحاول الفرار تخلصاً من هذا الرعب الذي استولى عليها .

ولكنها تغلبت على هذا الضعف بعنف شديد وقالت :

ان زوجي كان يقول بأني شؤم على أسرتي ..

نعم انه كان يقول هذا القول ، ويسرني أن أوصف بهذا الشؤم ، وان لا أرى من حولي غير الأموات والمحتضرين ومن شاء ان يسود فلا بد له من القتل .

فيا أيتها الأرواح والأشباح والملائكة والشياطين ، انى لا أخافكم فامنى منكم ، ويا أيتها القوات الخفية التي أوحت إلي هذا القول ، انى اشكرك شكر المعترف بفضلك .

نعم ان ديودات يجب ان يموت ، فليمت ولدي شارل يجب ان يموت ، فليمت ويا أيتها الملائكة والشياطين انك ستساعدبنتى على ترقية ولدي دانجو إلى عرش فرنسا .

ثم نظرت إلى الفلكي وقالت له :

أرأيت يا رينيه كيف ان السماء نفسها قضت على هذا الرجل :

– ولدة ؟

– نعم فلا نعترض القدر ولندعه ينفذ فيه احكامه . انه عرف انى أمه ولذلك قضي عليه .

نعم يا رينيه انه قضي عليه القضاء المبرم ، كما رأيت في حين انني كنت أعد له أسباب السعادة وامهد له سبيل العرش .

وهذه المرأة يا رينيه وهي ملكة النافار ، قد عرفت سري ايضاً ، فقضيت عليها بالموت ولا بد ان تموت .

وقد قبضت عليها الآن ولم يبق لها مناص مني .

تعال يا رينيه فإني موضحة لك كل أفكاري .

إني أريد أن أطهر مرة واحدة هذه المملكة التي أعدها لولدي ، وأريد أن أؤيد السلطة في رومة لاعزز سلطة ولدي .

وقد امتحنت هنري دي نافار وسبرت غور الأميرال كوليني ودرست أخلاق جميع أولئك الأمراء الذين غص بهم البلاط والمدينة ، فإذا بامورهم فوضى وكلهم طامعون جانحون إلى الاستقلال ، فإذا اصلحت البلاد فانما انقذها من الفوضى .

وسأبدأ برأس أولئك الطامعين ، أي ملكة النافار التي تتولى زعامة البروتستانت .

وهي فوق ذلك تعرف سري ، فإذا قتلتها دفنت معها سري وانقذت الكنيسة والمملكة منها .

تعال معي يا رينيه ، فإنك ستجد تسلية عن قتل ولدك باعداد المعدات لقتل هذه المرأة . وما زالت تنادي ديودات ، فمن العدل أن يجمع بينهما الموت .

ثم جذبت الفلكي كي تخرج به من الغرفة فقال لها : ألا يجب ان نستشير الكواكب .

– لا فائدة اليوم من ذلك ، فقد عرفت ما أريد ان أعرفه .

ثم ذهبت واياه إلى غرفته الخاصة بالسموم ، فجعلت تفحص ما فيها حتى انتهت إلى آنية من الزجاج الشفاف فيها كثير من الأدوات المختلفة ، فوقفت عندها وأخذت تنظر إلى إبرة من الذهب كانت في ذلك الاناء فقالت له : ما هذه الإبرة يا رينيه .

فابتسم الفلكي ابتسام حزن وقال : إنك إذا قطفت ثمرة يا سيدتي وشككتها بهذه الإبرة امتصت ما فيها من السم الزعاف دون أن يعلم أحد ان الثمرة مثقوبة لدقة الإبرة كما تنظرين ، فمن يأكل هذه الثمرة يشعر بعد

وحده قاضيه

ساعتين بدوار خفيف

ثم يشتد الدوار فيموت آكلها بعد ساعات .

– حسناً وما هذا السائل في تلك الزجاجة الصفراء وهو يشبه الزيت .

– انه زيت حقيقة يا سيدتي ، ولكنه إذا وضع منه بضع نقط في المصباح الزيتي ووضع المصباح في غرفة النائم ينام حسب عادته ، ولكنه لا يستفيق إلى الأبد

– انه خير منوم ، وما هذه الزجاجات الصغيرة المختلفة الألوان

– إنها خلاصة روائح أزهار مختلفة كالورد والزنبق والبنفسج ، فإذا كنت تتنزهين مع صديق في حديقة من حدائقك ، وفي هذه الحديقة شجرة ورد فيستحسن الصديق رائحة ذلك الورد وتقطفين له وردة ، فإذا شمها كان من الهالكين .

وذلك انك تشقين في الصباح ساق تلك الشجرة ، وتقطرين في الساق بضع نقط من هذه الزجاجة المتضمنة عصير الورد ، فينفذ سمها إلى الوردة حتى انك تستطيعين الاكتفاء بصب نقطة من هذه الزجاجة على الوردة نفسها ، ولكن الطريقة الأولى أسلم عاقبة وابعد للشبهات .

– كل ذلك سريع القتل ، وما هذا الماء الذي أراه .

– هو ماء قراح لا لون له ولا رائحة ، وطريقة استعماله ان يوضع منه ثلاثون نقطة في كل زجاجة خمر ، وهو أفضل ما اخترعته ليكريس بورجيا .

وقد قلت انه افضل ما اخترعته ، لانه لا يدع أثر أو في جسم شاربه ، فاذا تشرف أحد بالجلوس على مائدتك وشرب منه يعود إلى منزله سليماً معافى .

ولا يبدأ تأثير هذا الشراب فيه إلا بعد شهر ، فيشعر بضعف ثم يفقد شهية الطعام وتتلاشى قواه تباعاً حتى يموت بعد ثلاثة أشهر ولا يعلم أحد كيف مات .

انه صالح كما تقولين ، ولكن مدة تأثيره طويلة

يوجد عندي من كل الاصناف ، فكم تريدين ان تكون المدة؟

– أريد أن تموت ملكة النافار من عشرين إلى ثلاثين يوماً .

ذلك ممكن ، ثم جعل يعرض عليها كل ما كان لديه من طرق الموت حتى أراها صندوقاً من أبدع ما صنع الصانعون ، وهو صندوق معد لوضع الحلي والقفازات وغير ذلك من بهارج النساء .

فاذا وضع القفاز أو العقد فيه ساعة سري السم القتال إلى ذلك القفاز والعقد ، فإذا لبستهما ملكة النافار سري السم إلى جسمها وقتلها قتلا بطيئاً في مدة شهر .

فأخذت الملكة ذلك الصندوق ، وقد فرحت به فرحاً لا يوصف ، ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت :

هكذا يريد الله ، فليكن ما يريد .

ولا نعلم أبلغت منها الجرأة في تلك الساعة أن تعبث بالله أم ان التعصب قد بلغ منها أشد مبلغ ، بحيث باتت تعتقد ان قتل الألوف من الأبرياء في سبيل حماية الكنيسة مما يرضي الله . .

وبعد ذلك أقفل الفلكي معمله الكيماوي وباتت الملكة ليلتها في ذلك القصر وهي تبتسم للمستقبل وتحسب نفسها من أسعد النساء .

منتدى ليلاس

٢٠

امر الملك

كان اليوم التالي لذلك اليوم الذي وجد فيه فرنسوا مونمورانسي بنته وتلك النبيلة التي كانت امرأته يوماً سادت فيه السكينة في المنزل الذي اجتمعوا به في شارع مونمارتر .

وكان المارشال ينظر إلى ابنته فيدهش لجمالها وجلالها ، ويحن عليهـا حنواً غريباً .

ثم ينظر إلى أمها فيزيد اعتقاده رسوخاً ان جنونها عارض وقتي بسبب مـا أصابها من الفرح الفجائي ، وان الراحة والعناية ستعيدان اليهـا عقلها وصحتها معاً .

وذلك انه كان يرى أحياناً من عينيها بعض نظرات تدل على الصواب ، ولكنه لو علم أن الشقاء قد حفر قلبها ، كما تحفر الصخر نقط الماء لحكم غير حكمه الأول .

غير انه كان لا يريد إلا أن يعتقد بامكان شفائها .

وكان ينظر اليها أحياناً نظرات الأسف النادم ، ويقول : كيف اعتذر لها بعد رجوع الصواب اليها عن زواجي بسواها . أما كان يجب ان أبقى وفياً لعهدها أميناً في حبها ، وان كنت معتقداً بخيانتها .

فيضطرب ولا سيما حين يرى إنها لا تزال جميلة كما كانت في عهد الصبى أيام

كانت توافيه إلى غابات مرجنسي .

وكذلك ابنته لويزا فانها كانت حزينة لجنون أمها ، وكانت تعتقد أيضاً نفس اعتقاد أبيها بقرب شفائها .

ولكنها كانت قريرة النفس ، فان تلك الاسرار التي كانت تحيط بولادتها قد انكشفت واصبحت ولها أب أم كسائر الناس ، لا سيما وقد عرفت أن أباها من أعظم رجال فرنسا قوة وجاهاً ونفوذاً .

وعلى الجملة فقد كان ذلك اليوم يوماً سعيداً لدى الأب والبنت ، لا سيما وان جنون حنة كان لطيفاً هادئاً ، وان ظواهرها كانت تدل على الهناء ، فإنهـا كانت تضحك بسرور وارتياح ، كما كانت تضحك حـين كانوا يلقبونها حورية مرجنسي .

وفي ذلك اليوم عرف فرنسوا باردالبان الأكبر ، وتصافحـا وزالت من قلبيهما آثار تلك الهفوة القديمة وهي هفوة اختطافه لويزا .

وأما ابنه الشقاليبه ، فقد لبث على حاله يتظاهر بالسرور والارتياح وهو منقبض حزين .

وعندما اقبل الليل حدث ما لم يتوقعه باردالبان ، وهو ان هـنري دي مونمورانسي جاء يصحبه اربعون حارساً من حراس الملك فأرجع - راس الدرق داجو واقام مكانهم حراس الملك لحراسة المنزل .

وقد بقي هنري طول تلك الليلة يجول في ذلك الشارع حتى إذا أشرق النهار أمر أولئك الحراس أن يقفوا في موقف الهجوم .

وكان أول من رأى هذه التأهبات ، باردالبان الأكبر فنـادى ولده والمارشال فرنسوا وقال لهما :

— إن هؤلاء الجنود يتأهبون لاغتصاب المنزل وأخذنا بالقوة ، فاذا فعلوا وهاجمونا بطلت ضمانة حنة دي بيانس ، وحق لنا الفرار فاننا لم نسجن انفسنا في هذا المنزل إلا لأنها الضامنة لنا

فأجابه المارشال قائلا . اني أرتئي رأيك بشرط ان يهاجموا .

– لا بد لهم من مهاجمتنا فماذا ترتئي يا شفالييه .

فأجابه ولده قائلا : أرى انه يجب على المارشال أن يخرج في الحال من هذا المنزل مع السيدة حنة وابنتها ، وأما نحن فيجب أن نبقى وان ندافع .

فعلم باردالبان الأكبر ما يجول في نفس ولده فخلا به وقال له : ماذا تريد بذلك ، العلك تريد ان تموت .

– نعم يا أبي .

– إذاً لتمت معاً ، ولكن ألا تسمع ملاحظة من أبيك الشيخ .

– أسمع .

– إنك تريد الموت لأنك لا تستطيع أن تعيش بعيداً عن لويزا ، وأنا أريد الموت لأني لا أستطيع أن أحيى بعيداً عنك ، ولكن هل أنت واثق من أن لويزا افلتت منك .

فبرقت عينا باردالبان ببارق رجاء وقال : ماذا تعني يا أبي .

– أعني انك لم تخطب بنت المارشال بعد .

– ما هذا الجنون يا أبي .

– ربما ، ولكن هل خطبتها .

– أنت تعلم يقيناً اني لم أفعل .

– إذاً يجب ان تفعل .

– معاذ الله فاني أؤثر الف موت على أن أعرض نفسي للفشل والخيبة .

– إذاً سأتوب عنك ، وإذا كان هناك خيبة فأنا أتحمل عارها .

– أنت ؟

– نعم أنا ، اليس ذاك من حقي ؟ وفي كل حال فسيحدث أمر من امرين وهما اما أن يرضى بك زوجاً لابنته ويكون قد تشرف بمصاهرتك ، فان

سيفك أمضى من سيفه ، واسمك شريف نقي من كل وصمة ، واما ان يرفض وعندها تتأهب لذاك السفر الطويل الذي لا تعود منه .. فقل الآن أترضى ان تعيش إلى ان يجيبني المارشال بالرفض .

– لكن ما تريد يا أبي

فرجع باردالبان الأكبر عند ذلك الى المارشال وقال له : اني تباحثت مع ولدي يا سيدي المارشال فاتفقنا على أن تذهب انت في الحال مع السيدة حنة وبنتها ، وان نبقى نحن في المنزل إلى أن يهاجموا فنفسد الضيافة ونخرج منه .

فأجابه فرنسوا بلهجة تبين منها صدق العزيمة :

– اني لا أبرح هذا المنزل إلا إذا كنتما معي .

ثم نظر إلى الشفالييه وقال : وانت يا بني فاعلم انك إذا لم توافق على الذهاب معنا ، أكرهتني على البقاء وعرضت هاتين البريئتين عند أول هجوم لموت هائل .

فارتعش باردالبان .

وقال المارشال : إذاً نذهب جميعنا .

فقال باردالبان الأكبر : لم يبق علينا إلا أن ننتظر بدء الهجوم .

ووقف باردالبان في النافذة يراقب ما يكون من الجنود ، فرأى هنري دي مونمورانسي أشار إشارة إلى رجل كان لابساً ملابس سوداء .

فمد الرجل من باب المنزل واخرج ورقة من جيبه وجعل يقرأ بصوت مرتفع ما يأتي :

باسم الملك

« ان باردالیان وابنه المتهمین بالخیانة والعصیان قد کفلتهما السیدة النبیلة حنة دي بیانس فأقاما في منزلها .

وقد فسدت ضیافتها لأن هذه السیدة لم تکن عالمة الذنوب السابقة التي ارتکبها هذان الاثیان .

ونحن نأمر باردالیان وابنه ان یسلما نفسیهما فیسیر بهما الجنود إلى سجن التامبل وهناك یحاکمان على إهانتهما جلالة الملك وإحراقهما احد المنازل ، ومقاومتهما رجال الملك بالقوة المسلحة .

ونأمر جنودنا بالقبض على هذین المتمردین وجرهما الى السجن مکتوفي الأیدي والأرجل .

وإذا لم یتمکنوا من اخذهما حیین فلیأخذوهما میتین ولیشنقا عند باب السجن کي یکونا عبرة لسواهما من المتمردین .

ونأمر أن یتلى هذا الأمر بصوت مرتفع قرب المنزل الملتجئین الیه وان یمهلا ساعة فاذا لم یسلما ینفذ هذا الأمر »

وبعد ان تلا الرجل هذا الأمر اعاده إلى الضابط وذهب فوقف قرب هنري دي مونمورانسي الذي کان ملتفاً بردائه کي لا یرى .

وقد مضى الأجل المضروب للتسلیم وغص الشارع بالمتفرجین لیروا إذا کان الجنود یأخذون الأسیرین حیین او میتین ، وقد کان معظمهم یتمنون ان یأخذوهما میتان لغرضین ، أحدهما انه لا بد عن ذلك من حدوث معرکة فیتفرجون علیها

والثاني إذا قتلوهما شنقوهما فیتفرجون على الشنق . ولا جرم لقد فطر الانسان على الشر .

فلما مضت تلك الساعة اقترب ضابط من الباب فطرقه وقال : إفتحوا باسم الملك .

وعندها فتحت نافذة وظهر منها وجه باردالیان الأکبر .

فصاح الناس قائلین : هوذا أحدهما إنهما سیسلمان .

أما باردالیان فإنه حیى الضابط وقال له :

ـ الملکم تریدون مهاجمتنا ؟

ـ إلا إذا سلمتما .

ـ ألا تعلم أننا مضمونان باذنکم وأنکم تعبثون بهذه الضیافة .

ـ نعم فیجب أن تسلموا بأمر الملك .

ـ إن أمر التسلیم أمر آخر . إنما أردت أن أخبرکم أنکم عبثتم بالضیافه فاذا شئتم مهاجمتنا الآن فافعلوا .

ثم أقفل النافذة بسکینة وبطء بینما کان الضابط بعید طرق الباب ویقول : إفتحوا باسم الملك

وقد کرر هذا القول ثلاث مرات ، فلما لم یجبه أحد أمر الجنود بکسر الباب فکسروه بلحظة .

وأمر الضابط الجند ان یدخلوا إلى ذلك المنزل .

وقد أقاموا نحو ساعتین ، یزیلون المتاریس التي وضعها المحصورون في السلالم .

حتى إذا أزالوها ودخلوا الى المنزل وجدوا جمیع أبوابه مفتوحة ، فقال لهم هنري : إحذروا لأن ذلك یدل على مکیدة .

فدخل الجند وجعلوا یفحصون الغرف بملء الحذر ، فلم یجدوا أحداً في الدور الأول .

ثم صعدوا إلى الدور الثاني ومعهم هنري .

ولم يجدوا أحداً أيضاً ولكن هنري رأى ذلك المنفذ إلى السطح فصاح صيحة غضب ارتج لها المكان وقال : لقد أفلتوا مني .

فدنا منه الضابط وقال : بماذا يأمر مولاي .

— أريد ان تبحثوا البحث الدقيق في هذا المنزل .

فبحثوا ولم يجدوا أحداً .

فخرج هنري مغضباً فامتطى جواده وسار لوآ إلى اللوفر فالتمس الأذن بمقابلة الملك .

* * *

وفي خلال ذلك كان فرنسوا وزوجته وابنته وباردالیان وابنه قد ذهبوا جميعهم إلى قصر فرنسوا .

وهناك عقدوا جلسة فقال المارشال لباردالیان وابنه : إنكما ستكونان هنا بأمن إذ لا يخطر لأحد أنكما لجأتما إلي .

فهز باردالیان الأصغر رأسه وقال :

— إذا أذن لي مولاي نصحته أن يبرح باريس هارباً ولو كان وحده لما نصحته هذه النصيحة .

فأجاب المارشال قائلا : لقد أصبت يا شفاليه ، لأني لا أحب أن أعرض حياة ابنتي وأمها للخطر ، وسأسافر بهما الليلة إلى مونمورانسي ، وأعتمد عليكما بحراستنا . وحين نصل إلى مونمورانسي لا يجسر أحد على البحث عنكما فيها ، حتى الملك نفسه . لأن جيشاً برمته لا يستطيع التغلب على الحصن .

وعلى ذلك اتفقوا أن يسافروا حين هجوم الليل .

وفي النهار تداول باردالیان الأكبر مع المارشال في خلوة ، فذهب ابنه إلى غرفته الخاصة في القصر ، وذهبت لويزا إلى أمها بحيث بقي والد باردالیان مع المارشال .

ولما رأى لويزا خرجت من الغرفة ، إغتنم باردالیان الأكبر هذه الفرصة للدخول في الحديث فقال :

ما أجمل هذه الفتاة وما أسعدك بلقائها .

فأجاب المارشال قائلا : الحق إني لا أستطيع أن أصف سعادتي ، بهذا اللقاء .

— أيمكن لمثل هذا الملاك الطاهر أن تجد زوجاً خليقاً بها .

فأجاب المارشال بملء البساطة قائلا : إن هذا الزوج موجود .

فارتعش باردالیان وقال في نفسه . ويلاه ، أيمكن أن يكون ولدي مصيباً في ظنه ؟

ومضى المارشال في حديثه فقال :

— نعم ... أعرف رجلا أعده مثال الشجاعة والذكاء ، وقد روى لي عنه ، ورأيت بنفسي منه ما دلني أنه من أولئك الأبطال القدماء ، الذين كانوا في عهد شارلمان . وهذا الرجل سيكون زوجاً لبنتي ، فلا أجد أحلق منه بها .

— أرجو مولاي ان يعذرني لجرأتي ... لقد وصفت لي هذا الرجل وصفاً شوقني إلى معرفته .. فهل يمكن ، يا سيدي ، أن أعرف اسم هذا البطل ؟

— دون شك ، إني لا أكتم عنك وعن ولدك شيئاً من أمري وسأرى هذا الزوج ، لأنك ستحضر الزواج دون ريب .

— وما يدعى ؟

— الكونت دي مرجنسي .

وقد ذكر هذا الاسم وحدق به .

أما باردالیان فانه ارتعش ارتعاشاً بيناً وقد صعق لهذا النبأ فتمتم بكلمات لا تفهم وذهب إلى ولده فقال له :

– لقد حدثت المارشال

– وماذا قلت له ؟

– سألته إذا كان وجد زوجاً لابنته .. صبراً يا بني . لقد أجابني انه سيزوجها لرجل يدعى الكونت دي مرجنسي .

– أتعرف هذا الرجل يا أبي ؟ ولكن أية فائدة من معرفته ؟

– إني أعرف كونتية مارجنسي فهي مجاورة لمونمورانسي وقد كانت تجزأت فلم يبق منها غير بقعة صغيرة كانت لوالد جنة دي بيانس إلى أن اغتصبها والد المارشال فرنسوا .

وربما اشترى هذه البقعة واحد من الذين يحبون الجاه والألقاب كي ينال بها لقب الكونتية ولكني لا أعرفه .

وساد السكوت هنيهة كان الأب يسير في خلالها ذهاباً وإياباً وهو مغضب إلى أن استوقفته سكينة ولده فنظر اليه وقال : أيمثل هذه السكينة تستقبل هذا الخبر وأنا أكاد أجن خوفاً عليك ؟

– وماذا تريد أن أصنع يا أبي ؟ وأي حق لي على المارشال ؟ إني خدمته في بعض الشؤون ، فكافأني مكافأة لا تخطر في بالك . أتعلم أين أنام في هذا القصر ؟

إني أنام في هذه الغرفة ، وهي الغرفة التي نام فيها الملك فلم ينم فيها بعده سواي . وأنا الى الآن لا أكاد أجسر على المبيت في هذا الفراش الملكي .

فماذا تريد فوق ذلك من المارشال ؟

– حسناً يا بني إذاً فلنسافر الآن .

– كلا !

– كيف ذلك وما يدعوك إلى البقاء هنا بعد ؟

– إن المارشال معتمد علينا في حراسته إلى مونمورانسي وسنحفره إلى ان يصل إلى حصنه المنيع ثم نعود فنسافر إلى حيث نشاء .

ولماذا لا يعتمد على الكونت مارجنسي في حراسته .

– إننا سنلاقي هذا الكونت في الطريق دون شك . حتى ولو كان هنا فاني لا آذن لأحد ان يوصل لويزا إلى محل أمين سواي ، فهي التي استغاثت بي قبل أن تستغيث بأحد .

وهي التي نادتني من نافذة غرفتها كما تنادي الأخت أخاها وأنا لا أكاد أعرف اسمها فوجب علي حمايتها إلى ان تبلغ الأمان . ولو كره المارشال فإن يدي وقلبي لها ، فمتى أمنت عليها سقط السيف من تلك اليد وانقطع الخفوق من ذلك القلب فقضي الأمر .

– أواه كيف انك لم تصغ لنصائحي يا ابني ولو عملت بنصحي لما لقيت شيئاً من هذا العناء .

– لقد أصبت يا أبي ونحن الآن في غير هـذا الموقف ، ولا بد لي من حراسة المارشال .

غير أني موقن بأن أخاه هنري سيكيد لنا كيداً عظيماً ، ويضع في سبيلنا العقبات ، بحيث نحتاج إلى القوة والحيلة ، وهو قد يرسل في أثرنا فرقة .

ذلك أكيد ، ولكني أعرف كثيراً من الأصحاب الأشداء يكونون لنا خير عون في هذه الشدة . وأرى انه يجب ان أذهب اليهم وأتفق معهم على مرافقتنا في هذه الرحلة الخطرة .

– أسرع يا أبي لأننا سنسافر في أول الليل .

فانصرف أبوه بعد أن نظر اليه وهز رأسه ، وجلس باردالیان على كرسي

في تلك الغرفة التي كانوا يدعونها كرسي الملك ، إذ لم يجلس عليه سواه وقاه في مهامه التفكير .

وقد كان باردالیان صادقاً في كل ما قاله لأبيـــه ، فقد بلغ منه الحب كل مبلغ . ولم يكن يبكي ولا يتنهد ، بل كان غرامه منحصراً في قلبه لا يخرج منه .

وكان هذا البطل يحب الحياة ويرى كل ما فيها جميلاً ويلتمس العذر لكل من يحدد من أهل الشر ، وليس ذلك من قبيل التساهل الفلسفي ، فلم يكن من أهل الفلسفة .

ولكنه كان طيب الفطرة كريم العنصر يعتقد ان المرء مفطور على الخير فاذا أتى شراً فإنما يأتيه مكرهاً مضطراً فلا يعامله بالحقـــد والكره بل بالرحمة والاشفاق ولا يخطر له إلا الخير .

وكان بسيط القلب على شيء من التحيل الشريف .

وهو يحب الثروة ، ولكنه لا يريد ان تكون له إلا لانفـاقها في سبيل الخير ونصرة الضعيف ، ولما لم يستطع نصرته بماله أراد ان ينصره بحسامه وإقدامـه .

والغريب انه على عرفانه قدر نفسه ، واعتبـــاره أنه مساو للملوك ، لم يكن من أهل المطامع ، بل كان كل رجائه أن يعيش سعيداً لاسعاد النـاس .

ولكنه لقي من هذا الغرام ما أحبط أمانيـه ، ومكن من نفسه كره الحياة ، ولما رأى انه لا يستطيع مقاومة هذا الغرام ، عول بسكينة على الموت .

هذا هو الرجل الذي أعجبت به كاترين دي مدسيس ، وهي لا تعجب بأحد ، وتزاحم الأمراء على استخدامه ، وأنذر الدوق دالجو ، وهزأ بملك فرنسا ، وغلب الدوق دامفيل في جميع المعارك ، واستقبله المارشال فرنسوا كا

يستقبل الملوك .

وعلى الجملة لقد كان خاصاً وفياً سموحاً بسيطـاً حنوناً قوياً يفتح بحسامه وصفاته سبل المجد وهو لا يعلم .

فلما أخبره أبوه ان المارشال أعد الكونت مارجنسي زوجاً لابنتـــه ، لم يحقد عليه وقال في نفسه : لقد أصاب المارشال لان فقيراً مثلي لا يحق له ان يطمع بزواج وريثة بيت مونورانسي العظيم .

حتى أنه كان يشفق على لويزا ويقول : أي زوج يستطيع أن يحبها كما أحبها .

وبعد أن تمعن ملياً في حالته قال : لقد كفاني ما أنا فيه ، ولم يبق لي صبر على هذا الشقـاء ، فاذا طال هذا الأمر أسبوعـاً ، أصبحت من غير عقل .

ولكن الأزمة ستنفرج لأننا سنكون الليلة في حصن مونورانسي ، وغداً أعود إلى باريس لمحاسبة أعدائي . ومن هم ؟

هم الدوق دامفيل والفيكونت اسبرمونت عدو أبي وندماء الدوق دالجو الثلاثة ، وهورفر .

فهم ستة كما أرى وسأدعوهم جميعاً للمبارزة عند عودتي الى باريس ، ولا بد لواحد منهم أن يقتلني فأستريح .

وحدة قاضية

وأما باردالیان الأكبر فقد ترك ولده ، وذهب توّاً إلى فندق دفينير ، كي يدفع ما عليه لصاحب الفندق قبـــل السفر ، لأن منطقته كانت لا تزال محشوة بدنانير جيل ، وهو يعتقـد انها دنانير هنري دي مونورانسي .

فاستقبله صاحب الفندق وامرأته استقبالاً حافلاً ، فقال له باردالیان : إني قادم يا لاندري ، لادفع ديني ودين ولدي ، لانني سنخرج باريس ونغيب عنها زمناً طويلاً ، فأعد لي بيان الحساب ، بينما يعد لي الخدم طعام الغداء .

فابتسم لاندري وقال : إن البيان مكتوب يا سيدي ، لقد كنت أمرتني بكتابته ، ولم يكن يمنعك عن دفعه غير تلك الحوادث المزعجة .

فضحك باردالیان وقال : إن هذه الحوادث كانت تزعجك يا لاندري لانها كانت تؤخر دفع حسابك .

— كلا يا سيدي ، فانها لم تكن تزعجني إلا لاني كنت أخاف عليك عواقبها . لقد تبارزت أول مرة تلك المبارزة الهائلة مع أورتيس ، وفي المرة الثانية مددت يدك الى منطقتك ، ثم اندفعت فجأة اندفاع السهم إلى الطريق .

— ذلك إني رأيت صديقاً قديماً أحببت ان أضمه بين ذراعي ، فأسرع يا لاندري بتقديم الحساب قبل ان يمر صديق آخر .

فدخل لاندري مهرولاً إلى غرفة حساباته ، وبقي باردالیان مع امرأته فقال لها : أنت أيضاً يا سيدتي لك حساب على ولدي الشفالييه أتيت لتسديده لانه لا يستطيع الحضور بنفسه .

فاحمر وجهها وقالت : ليس لي حساب لدى الشفالييه ، وما هو مدين لي بشيء .

— بل انه مدين لك أيتها الحسناء بالامتنان ، وأنا أنقل اليك كلامه بالحرف الواحد .

لقد قال لي عنك أنه غير مدين لك بمال ، بل بقبلتين تدلان على خالص امتنانه ، وقد عهد إلي أن أقول لك إنه لن ينساك ما بقي في

قيد الحياة .

فزاد احمرار وجهها وقالت : أهو قال هذا القول ؟

— نعم ، نعم ... بل قال أكثر من ذلك ، فهو ممتن لحسن عنايتك به كل الامتنان .

— اذا كان هو قال هذا القول ، فأنا مدينة له أيضاً ، وسأبرهن عن امتناني باقرار .

— قولي لاني سأنقل اليه كلامك .

فتنهدت وقالت قل له إذاً إنها تحبه .

فذهل باردالیان وقال : من هي ؟

— لويزا التي يحبها .

فوقف باردالیان وقال : هي تحبه ؟

— نعم ، واني واثقة من حبها إياه ، فقل له ذلك تفرج همه ، لقد رأيته شديد الشقاء .

قل له ذلك يا سيدي ، وحين يصبح زوجاً لها ، فليذكر اني أنا أول من بشره بهذه السعادة .

— تعالي أعانقك لقد فرجت همي قبل تفريج همه .

ثم جعل يقبل وجنتيها بملء السرور ويقول هذه القبلة مني ، وهذه من ولدي ...

إلى ان انتهت هذه القبلات بدخول الزوج ، وقد جاء بقائمة حساب تقع في عدة صفحات .

فأخذها باردالیان ونظر الى مجموعها فاذا به يبلغ كل ما كان يملكه .

فاصفر وجهه ، ولكنه لم يفه بكلمة ، بل مد يده الى منطقته ليدفع الحساب .

وعندها سمع صوت يقول : هذا هو ، لقد ظفرنا به أخيراً .

ثم دخل ثلاثة الى القاعة مشهرين السيوف وانقضوا على باردالیان .

فكان أول ما فعله انه رفس المائدة فقلبها وجرد حسامه فجعل يتلقى صدمات أولئك المهاجمين بقلب قد من الصخر .

وكان هؤلاء الثلاثة كاليس ومونتجرون ومورفر

فكان كاليس يقول : ليس من يضمنك هذه المرة لان امرأة صاحب الفندق ليست من النبلاء .

وكان مونتجرون يقول . لا زيت عمي يحميك من سيوفنا الآن .

وأما مورفر فلم يكن يقول شيئاً ولكنه كان يطعنه الطعنة في أثر الطعنة وهو ساكت لا يتكلم .

وكان باردالیان قد أضعفته تلك الجراح التي أصيب بها في معركة مونارز فاقتصر على الدفاع دون الهجوم وهو يفتكر بطريقة يتمكن بها من الخلاص ، وقد أصيب بثلاث طعنات بصدره .

وكان كلما أصيب بطعنة يرجع خطوة الى الوراء ، فيدنو من باب قاعة كان مفتوحاً .

حتى إذا وصل إلى ذلك الباب رفس مائدة برجله فباتت حائلا بينه وبين مهاجميه وأسرع بالدخول الى القاعة وأحكم إقفال بابها .

وعند ذلك ، خرجت إمرأة صاحب الفندق راكضة ، وتوارت عن الأنظار .

وصاح الثلاثة صياح الاستبشار قائلين : لقد ظفرنا به فلم يبق له مفر .

وكان لهذه القاعة التي دخل اليها باردالیان بابان أحدهما المشرف على قاعة الطعام وهو الذي دخل منه .

والثاني باب يشرف على الطريق .

وكان باردالیان عارفاً بذلك المنفذ فشغل مهاجميه بقلب المائدة كي يتمكن من الخروج من ذلك الباب .

ولكنه حين أقفل الباب الذي دخل منه وأسرع الى الباب الخارجي ، وجده محكم الاقفال وهو شديد لا يمكن كسره خلافاً للباب الذي دخل منه فان كسره سهل ميسور .

وكان الثلاثة ، بعد أن أزاحوا المائدة المنقلبة ، يضربون الباب بأيديهم وأرجلهم .

فأسرع باردالیان ووضع وراءه كل ما كان في تلك الغرفة من الموائد ، وهو يعلم ان كل ذلك لا يفيد ولكنه يطيل زمن دخولهم اليه .

وفيما هو على ذلك يتأهب للموت سمع صرير مفتاح في قبل الباب الخارجي فبرقت عيناه بأشعة الرجاء .

ثم فتح الباب وظهرت منه امرأة صاحب الفندق فنادته بالاشارة وقالت له : أسرع بالفرار قبل ان يدركوك

فأسرع بالفرار وهو يشكرها .

وأقفلت هي الباب وعادت مسرعة إلى قاعة الطعام . فوجدت الثلاثة قد كسروا الباب الذي دخل منه باردالیان ، وجعلوا يحاولون كسر الباب الذي خرج منه .

فقالت لهم لا حاجة إلى كسره ، فاصبروا هنيهة إلى أن أجيئكم بالمفتاح .

ولما أتتهم بالمفتاح ورأوا ان الباب يطل على الشارع أيقنوا انه قد نجا ولا سبيل إلى إدراكه .

وأما باردالیان فانه أسرع إلى خمارة كاتي فاجتمع فيها ببعض رجال السيف من أصحابه واتفق معهم على السفر الليلة .

* * *

كان باردالیان الأكبر قبل خروجه من قصر مونمورانسي وقبل ان جرى بينه

وبين ابنه ذلك الحديث الذي تقدم ذكره التقى في ذلك القصر بلويزا وأخبرها انه مسافر مع ابنه .

ثم تركها وذهب إلى غرفة ولده فتبعته لويزا وقد ضعضع هذا الخبر حواسها فسمعت من وراء الباب بعض الحديث .

وبعد أن خرج أبوه من الغرفة وأيقنت أنه بات وحده فيها دخلت اليه وهي ترتعش ارتعاش العصفور كهربته نظرات البازي ، فنظرت اليه نظرة تدل على السلامة والاضطراب وقالت :

ـ أحق إنك مسافر ، ولماذا ؟

فارتعش باردالبان وقال : كيف علمت يا سيدتي إني مسافر .

ـ لقد أخبرني أبوك .. ثم إني سمعت شيئاً من حديثكما ، فعلمت أنك مسافر سفراً لا عودة منه ... فما هي تلك المدينة التي لا يعود منها المسافرون ؟

ـ سيدتي !

ـ ولماذا تريد السفر ؟ العلك ضجرت من عشرتنا ومللت الاقامة في هذا القصر مع أبي وأمي ... ومعي ؟

فأطبق باردالبان عينيه وضم يديه وقال :

ـ كيف أمل الاقامة في هذا القصر ... وهو الفردوس الذي يطمع به المؤمنون .

ـ إنك لا تريد أن تسافر ... بل تريد ان تموت .

ـ هي الحقيقة أيها الملاك .

ـ ولماذا تريد الموت ؟

ـ لأني أحبك .

ـ إذاً تريد ان أموت أنا أيضاً .

وقد تكلما هذه الكلمات الوجيزة ، ولكن روحها كانت تتجسم

في عيونها . فتنطق بأفصح لسان ، معربة عما يجول في قلبيها من الغرام الصادق ، الذي تعجز الكلمات عن بيانه ، فتنوب عنها في تبيانه النظرات .

ولم يجد باردالبان أعظم بياناً لحبها من قولها : (إذاً تريد أن أموت) ، فحسب نفسه حالماً ولم يصدق ما سمع ، حتى أعادت لويزا تلك العبارة قائلة :

ـ إذا أردت ان تموت أموت أنا أيضاً لاني أحبك .

فركع باردالبان أمامها وقال :

ـ لويزا ، إني سأحبى لقد بت أحب الحياة ولا أدري إذا كنت سعيداً أو شاياً بهذا الحب ، وإذا كانت قد فتحت لي فيه أبواب النعيم أو أبواب العذاب ، واذا كنت في يقظة أم في حلم .

ـ أحبك .

ـ نعم تحبينني ، وكل ما في هذا الكون يسدلني اني ما خلقت إلا من أجلك .

نعم إنك تحبينني ولا يسمعك إلا مبادلتي هذا الحب لاني أشعر ان قلبي منجذب اليك بجاذب لا ترده قوة ولا يدفعه سلطان .

ثم حاول ان يتكلم فارتج عليه القول ، وحاولت هي ان تتكلم ، فتلعثم لسانها وأطرق كل منهما ببصره ، فلم يجسر ان ينظر إلى الآخر . فتراجعت لويزا مضطربة وجلة وقد هالها هذا الموقف فالتجأت الى الفرار .

حتى إذا خرجت من الغرفة ، وتجاسرت على أن ترفع بصرها ، وقفت تضطرب ، وقد نفذ الغرام الى قلبها ، وقفة الحمامة أدركها سهم الصياد .

وأما باردالبان فإنه وقف في تلك الغرفة وقفة المجانين ، فجرد حسامه ورنا من النافذة المشرفة على اللوفر وقصور باريس ، فنظر اليها وجعل يهز

حسامه ويقول :

– يا ملك فرنسا ، ويا سيد مونمورانسي ، ويا دوق دامفيل ، ويا كل قوة في الوجود ، إني أصبحت أعظم منكم ، فأنا الآن سيد الوجود . لتدن مني الجيوش ، ولتهجم علي الأبطال ، فإني أمزقهم شر ممزق ، لأن سلاحي الحب .

لويزا ... لويزا .. إنك ملكت قلبي ، فبت بهذا الاستعباد سيد الملوك .

* * *

وفي الساعة السادسة عاد باردالبان الأكبر فوجد ابنه بملابس الحرب مع المارشال ووجد في ردهة القصر مركبة عظيمة مقفلة .

فنظر الى ابنه نظرة الفاحص ، فوجده متلبساً بسكينته العادية ، فخلا به وقال له انه جاء بعشرين رجلاً من أصحابه لحراسة المارشال دون أن يعلم .

وبعد هنيهة دخلت لويزا وأمها الى المركبة ، فأحكموا إقفالها وصدر الأمر بالرحيل .

وقد قرروا أن يخرجوا من باب سانت أنطوان كي لا يستلفتوا الأنظار ، ثم يعطفون في طريق مونمورانسي .

فسار المارشال وهو ممتط جواده بجانب باب المركبة الأيمن وسار باردالبان الأصغر بجانب الباب الأيسر وسار أبوه في مقدمة المركبة وفي المؤخرة الثاعشر فارساً من حرس المارشال .

فاجتاز هذا الموكب باريس الى باب سانت أنطوان ، فوصل في الساعة السابعة ، دون أن يستلفت الأنظار ، لتعود الناس مشاهدة مثل

هؤلاء الفرسان في حراسة النبلاء ، فقال باردالبان في نفسه : لقد سلمنا بحمد الله .

ولكنه حين بلغ الى الباب وأراد الخروج منه في طليعة الموكب خرج ضابط فأوقفه عن التقدم قائلاً : المرور ممنوع !

فاصفر وجه المارشال وقال : ما هذا ؟

فدنا الضابط منه وقد عرفه فقال له بملء الاحترام : يسوءني يا مولاي أن أكون مضطراً الى منعكم عن المرور .

– ولكن الباب لا يزال مفتوحاً في هذه الساعة .

– كلا ، يا مولاي ، لقد أقفلناه منذ ساعة . أنظر الى الجسر لقد رفعناه .

فنظر المارشال فرأى ان الجسر مرفوع حقيقة بحيث يتعذر المرور الا اذا أزاله الضابط فقال له : اذا كان هذا الباب قد أقفل قبل الأوان لا بد ان تكون الأبواب الأخرى مفتوحة .

– كلا يا مولاي لقد أقفلت كلها .

– في أية ساعة تفتح غداً ؟

– لا تفتح غداً ولا بعده .

فقال المارشال وقد تهدج صوته من الغضب : ما هذا الظلم ؟

– انه أمر الملك يا مولاي .

– ما هذا الأمر ؟ .. ألا يمكن الخروج من باريس بعد الآن ، ولا الدخول اليها ؟

– إن الدخول مباح لمن يشاء .. وأما الخروج ، فلا يمكن إلا بإذن خاص .

– لا حاجة الى ذلك .

ثم أصدر أمره بالرجوع وهو يقول . ترى من يقصدون بهذا الأمر ؟ العلهم

يريدون به هنري دي نافار وأمه وأتباعها .

ورجع وهو يعتقد هذا الاعتقاد .

وعندما صدر الامر الى المركبة بالرجوع رأى باردالیان الاكبر جندياً خرج من موقف الجند وفي جيبه رسالة ظاهر طرفها

فقال في نفسه : لاتبعن هذا الجندي عساي أقف على مضمون هذه الرسالة، لقد رابني أمرها .

وعندها ترجل عن جواده فدفع زمامه الى أحد الفرسان وسار في أثر الجندي حتى أدركه في شارع سانت أنطوان .

فسار بجانبه وقال له : ان الحر شديد يتعذر فيه العمل .

فأجاب الجندي : لقد أصبت بل يتعذر المسير .

– ما تقول في قنينة خمر باردة .

– ان شربها خير ما يعمل في هذا الحر فهي خير ما يقتل الظمأ .

– هلم نشربها على صحة الملك .

– هذا أقصى ما أتمناه .

– اذاً لندخل الى الحانة .

– ليس الآن يا سيدي .

– كيف ذلك أتشرب غداً اذا ظمئت الآن ؟

فتلجلج لسان الجندي لهذا الجواب المفحم ثم قال : ولكني ذاهب في مهمة لا بد من قضائها الآن .

– الى أين ؟

فنظر الجندي الى باردالیان نظرة ارتياب وقال : أيهمك يا سيدي أن تعلم الى أين ذاهب ؟

– كلا غير اني كنت جندياً مثلك فأشفقت عليك وخشيت ان تكون ذاهباً الى محل بعيد .

– لقد أصبت يا سيدي فإني ذاهب إلى التامبل .

– الى السجن ؟

– كلا بل إلى ضواحيه .

فارتعش باردالیان وواصل السير معه وهو يفتكر ثم قال له فجأة : أتريد أن أقول لك إلى أين أنت ذاهب ؟

– قل ..

– إنك ذاهب إلى قصر مسيو .

فذهل الجندي وقال له : كيف عرفت هذا ..

– من الكتاب البارز من جيبك فاحذر عليه لأنه سيقع .

وعندها أسرع باردالیان وأخذ الكتاب من جيبه ونظر اليه نظرة سريعة فرأى مكتوب على غلافه هذا العنوان :

« إلى الدوق دامفيل في قصره »

وقد نظر باردالیان إلى ما حواليه فرأى الشارع غاصاً بالناس ..

ثم رأى شرذمة من الجند ، فأيقن أنه يستحيل عليه الفرار بالكتاب فرده إلى الجندي ، ولكنه لاحظ أن ختمه غير محكم كأنه قد كتب بسرعة .

وعاد إلى مواصلة السير مع الجندي ، وهو عازم على أن لا يدعه حتى يفوز منه بمراده .

غير ان الجندي اوجس خيفة منه كما يظهر فقال له :

– أرجوك المعذرة يا سيدي ، فإن هذا الكتاب يجب أن يصل بأقرب حين ولا بد لي من أن أركض .

ثم تركه وجعل يركض في الشارع والكتاب بيده .

غير ان هذا الجندي إذا كان عنيداً فقد لقي من هو أشد منه عناداً ، لأن باردالیان جعل يركض في أثره أيضاً وينادیه قائلاً :

– أيها الصديق أتريد أن تكسب مائة دينار .

فأمعن الجندي في الركض وقال :

– كلا ..

– مائتين .

– كلا ..

– خمسمائة .

– دعني أيها الرجل او استغيث .

– الف دينار .

فوقف الجندي وهو يلهث من التعب وقال له بصوت يضطرب : ماذا تريد مني ؟

– أريد أن أعطيك الف دينار .. بشرط أن تدعني أقرأ هذ الكتاب ..

– ولكني لا أبيع حياتي بألف دينار فانهم يشنقوني بعد هذه الخيانة بلا ريب .

– إذا كان الأمر خطيراً كما يظهر فإني أعطيك الفين .

فهانت الخيانة على الجندي وغره الطمع .

وأسرع باردالیان وقال له إننا ندخل الى أول خمارة فنشرب زجاجة خمر واقرأ الرسالة .. ثم أعيد ختمها إلى ما كان عليه فلا يعلم أحد انها فتحت وتقبض أنت المال .

فأجابه بصوت مضطرب كلا فإن ضابطي أنذرني بالشنق إذا فقدت مني الرسالة

– من انبأك أيها الأبله انها تفقد منك .

– كلا ، كلا .

– إذاً ، اعطيك ثلاثة الاف دينار وهي ثروة .

ثم اخذه بيده ودخل به إلى الخمارة فاصفر وجه الجندي ، ثم احمر وجعل العرق ينصب من جبينه وقال له :

أحق ما تقول ؟

ففتح باردالیان منطقته وجعل يخرج منها الذهب فيضعه على المائدة ويقول للجندي عد الدنانير .

ولم يكن الجندي قد رأى في حياته مثل هذه الأكداس من الذهب فدفع الرسالة إلى باردالیان وجعل يأخذ ويضع في جيوبه دون عد ولا حساب وهو متذهل يحسب نفسه من الحالمين .

ثم نهض كأنه قد اصيب بجنون فخرج من الخمارة وتوارى عن الأنظار .

اما باردالیان فانه هز كتفيه وفتح الرسالة بسكينة فقرأ ما يأتي :

« مولاي

جاءت مركبة سفر مقفلة إلى باب سانت انطوان وكان يحفرها اثنا عشر فارساً معهم المارشال دي مونمورانسي .

« وقد ظهر لي انه اسناء اسنياء شديداً إذ لم يتمكن من المرور وكان يصحبه ايضاً الرجلان اللذان وصفتهما لي .

« فارسلت من يقتفي أثر المركبة واظنها عادت إلى قصر مونمورانسي .

« ورجائي يا مولاي ان تحرقوا هذه الرسالة حين وصولها اليكم ، وان لا تنسوا من ارسلها » .

فقال باردالیان في نفسه لقد عرفت الآن ذلك المعني بأمر الملك وقد ذهبت دنانير لاندري كما انت ولكن لا بأس فهو غني يستطيع الانتظار .

وعند ذلك خرج من الخمارة وسار عائداً إلى قصر مونمورانسي .

اما مخبرو دي مونمورانسي فقد وردته تلك الليلة الرسائل من جميع حراس ابواب باريس كلها تتضمن الاشارة إلى ان المارشال فرنسوا مونمورانسي وباردالیان وابنه لم يحضروا .

وحده قاضيه

فلم يبق غير حارس باب سانت انطوان لم تصله رسالته ، لأنها وقعت في يد باردالبان .

وعلى ذلك فقد بات المارشال فرنسوا وحنة ولويزا وباردالبان وابنه امرى في باريس فان هنري دي مونمورانسي الذي كان يأتمر على قتل الملك كان من أقرب المقربين اليه .

وكان له عنده حظوة فان الملك كان يعده من اركان الدولة والكنيسة وقد تمكن بدهائه من ان يدعه يعهد اليه بتفتيش ابواب المدينة مدة ثلاثة اشهر وان تكون له الكلمة النافذة على حراسها ، فقد كان من السهل اقناع الملك في ذلك العهد المضطرب على وجوب المراقبة فعهد اليه بهذه المهمة التي غدا بها الحاكم العسكري في المدينة .

ولا تنقضي هذه المهمة الا يوم زواج هنري دي نافار بأخت الملك وحين يسافر الجيش إلى هولندا ويسير معه جميع الهوكنوت بحيث بات هنري الحاكم المطلق على ابواب باريس لا يخرج منها أحد دون امره .

* * *

وقد مرت الأيام في قصر المارشال فرنسوا دون حادث فقد قرروا البقاء في القصر ، لأن اغتصاب ابواب باريس من المحال ولا بد لهذه الأبواب ان تفتح فيغتنمون الفرصة ويسافرون .

ومر على ذلك خمسة عشر يوماً كان باردالبان وابنه يطوفان في خلالها باريس مع الحذر الشديد كي لا يراهما الأعداء .

وقد خرج يوماً باردالبان الأكبر وحده فلما عاد في المساء إلى القصر وجد في غرفة البواب جيلوت ابن اخت جيل وكيل الدوق دامفيل .

فدخل إلى غرفة البواب مضطربا وقال له ماذا تعمل هنا ايها الشقي .

– إني قادم يا سيدي ..

– انك قادم للتجسس ايها التعس ومـا زال الامر هكذا فسأنفذ فيك عفابي الذي انذرتك به .

– إصغ إلي يا سيدي ..

– كلا لا أريد أن اسمعك وسأقطع أذنيك .

فدنا جيلوت منه وقال له :

– اني لا أخافك .

ثم نزع قبعة كبيرة كانت تستر أذنيه فدهش باردالبان إذ رأى انه بدون أذنين ..

ثم ضحك ضحكا عاليا ..

فقال له جيلوت . أرأيت يا سيدي كيف اني لا أخاف قطع اذني وهما مقطوعتان .

– ومن الذي قطعهما ..

– خالي نفسه ، فانه بعد أن عاد الدوق دامفيل أخبره بخيانتي .. واني بحت بسره لك ، حذراً من أن تقطع اذني فقال له : « اذن ... اقطع اذنيه » .

وعندهـا نفذ هذا الأمر الهـائل ، وما كنت أظن خالي يقدم على هذه الجريمة .

وبعد ذلك أغمي علي فألقوني خارج القصر وانا في حالة الاعياء فلقيتني امرأة وأشفقت علي فعالجتني حتى شفيت .

والآن ماذا أتيت تعمل هنا .

– اتيت الدخول في خدمتك كي انتقم من خالي ، ومن الدوق دامفيل ، وأؤكد لك ، يا سيدي ، انك لا تندم باستخدامي ، لأني سأفيدك فوق

ما تظن .

– لا شك عندي في هذا .

– واني لا أطلب مقابل هذه الخدمة غير أمر واحد .

– ما هو ؟

– هو أن تساعدني على الانتقام من الدوق دامفيل الذي أمر بقطع أذني ، ومن خالي الذي نفذ بيده الأثيمة هذا الأمر .

فقال باردالیان في نفسه : لا شك ان هذا الرجل سيدفعه حب الانتقام الى الاخلاص في خدمتي ثم قال له :

– حسناً لقد رضيت بخدمتك وبشرطك ؟

فاتقدت عينا جيلوت ببارق من السرور لو رآه باردالیان لعاوده الريب ، ولكنه لم ينتبه له ، واشار الى جيلوت ان يتبعه ، ودخل الى القصر وجيلوت يتبعه ، وهو يحرق الارم من الغيظ ويقول : سوف يرى خالي كيف يكون الانتقام .

- ٢١ -

بدء العاصفة

بعد ان عاد الملك الى عاصمة بلاده بعشرين يوماً احتفل بخطبة هنري دي ناڤار واخته مرغريت .

وكان الاحتفال في اللوفر فخيماً ، لم يسبق حدوث مثله منذ عهد فرنسوا الأول .

فرقصت نساء الهوكينوت مع رجال الكاثوليك وتفننوا في الاحتفال ، فجروا به الى أبعد غاياته الممكنة في ذاك العصر .

وكان هنري دي ناڤار يظهر افتتانه بخطيبته مرغريت ، وهو مرتد بأجمل الملابس .

والآن فلنبسط حوادث تلك الليلة الهائلة بالتفصيل ، لأنها تستحق العناية ..

كان اللوفر مزيناً ابدع زينة وقد تلألأت فيه الأنوار حتى بات يظهر للرائي انه كتلة من نور .

وكانت اصوات الضحك والغناء تخرج من جميع القاعات فيحمل الهواء صداها الى جماهير الناس المحتشدة عند أبواب اللوفر كالنمل

وفي وسط هذا الشعب فرق من حملة البنادق كانت محدقة باللوفر كما تحدق الأمواج بالصخور .

ولم يكن ازدحام الشعب لمجرد التفرج على الحفلة ، فقد كان أكثرهم مسلحين مدرعين ، كأنهم سائرون الى حرب ، مع ان الملك كان قد اصدر كثيراً من الاوامر القاضية بمنع حمل السلاح .

ولكن لم يحفلوا بأوامر الملك تلك الليلة كما يظهر ، فانهم كانوا يتسألفون جماعات جماعات ويصيحون بملء اصواتهم قائلين :

لتحيى الكنيسة ، وليمت الهوكينوت !

وقد كان الملك في بدء هذه الليلة مختلياً في قاعة من قاعات اللوفر مع امه وهذه القاعة مطل يشرف على نهر السين وضفته اليسرى .

وقد وقف الملك وهو بملابسه السوداء في هذا المطل ، وجعل ينظر الى نور كان يتألق من جهة بعيدة .

وأمه واقفة بجانبه تبتسم ابتساماً هائلاً ، وتنظر مثله إلى هذا النور ، بل إلى هذه النار .

فقال لها الملك : لماذا جئت بي إلى هنا يا أماه ؟

— لأريك هذه النار يا بني .

— لعل الباريسيين اشعلوها قصد الزينة ؟

— كلا ، بل إنهم يحرقون منزلاً يحسبون الهوكينوت مقيمين فيه .

انظر أيضاً إلى الجهة اليسرى من هذه النار تجد ناراً تشبهها ، فإذا استمروا على ذلك أحرقوا باريس .

فاحمر وجه شارل التاسع ، وظهرت عليه علائم الغضب .

فقالت له أمه إني أخاف أن يدفع بهم التحمس إلى إحراق اللوفر ، فهم يعلمون أن أعاظم الهوكينوت فيه .

— قسماً بدم المسيح إني سأصدر الأمر باطلاق الرصاص على هؤلاء الأجلاف الذين يحرقون بيوت الناس وهم آمنون .

ثم التفت ونادى رئيس حراسه .

فأمسكت كاترين يده وقالت له : ماذا تفعل يا شارل العلك جننت ؟

أريد أن تضرم نار العصيان في باريس ، اعميت فلا ترى أن عرشك يتقلقل تحت قدميك ، وأن تاجك يهتز فوق رأسك ، وانك إذا لم تحذر لنفسك كانت المملكة كلها عليك

فارتعد الملك وقال : ماذا تقولين يا أماه ؟

— أقول الحقيقة يا بني ، فان الشعب ثائر هائج علينا لعقدنا الصلح مع الهوكينوت .

ألم تر مـــا كان منهم حين اعطيت الهوكينوت روشيل ، ثم الا ترى كيف بانت الوجوه كالحة والنظر شذراً بعد ان جـاءنا هنري دي نافار وأمه وأعوانه .

انظر يا بني . انظر إلى السنة النار كيف تندلع ، وإلى دخانها كيف يطبق عنان السماء ويعقد غمامة سوداء فوق باريس .

هذا هو يا بني جواب الباريسيين على خطبة اختك لملك النافار .

انك تنظر إلى السماء فلا ترى نجماً لكثافة الدخان ، وقد تحولت باريس إلى جهنم

فاصطكت اسنان شارل من الخوف ، ورأت كاترين إنهـا تضغط عليه كما تشاء فقالت .

أصغ إليّ يا شارل فانك تعلم ما كان من رغبتي واندفاعي في سبيل السلم حتى إني خاطرت الرأس أمـــام ملكة النافار المتكبرة ، بل انت تعلم إني أنا التي اقترحت مصاهرة ملك النافار تأييداً لأركان ذلك السلم .

ذلك ان حب السلم اعمى بصيرتي في ذلك الحين ، وحسبت ان عقده بين الكاثوليك والهوكينوت من الممكنات .

ولكني كنت مخطئة وأرى الآن ان هاتين القوتين لا تزالا تتنازعان السيادة حتى تفني احداهما الأخرى .

وحده قاضيه

ولكن الكنيسة لا تغلب يا بني وروما لا تذل ولا تقنع للقوانين ، فلا بد إذن من سحق مبدأ الهوكينوت ، والويل لمن يساعده فانا سأسحق معه .

- لقد ارعبتني يا أماه ، ولكن يستحيل ان يتم ما تقولين فاني لا اطيق سفك الدماء .

- كيف تقول مستحيل يا بني ، ألم تقرأ رسائل جميع الممالك التي وردتنا بواسطة السفراء ؟

ألم تقرأ ما كتبه الينا ملك اسبانيا حيث قال : انه يعد جيشاً عرمرماً لتأييد مملكة الله التي اضعفها ضعفنا .

- إني احارب الاسبان .

- وإذا حاربت الاسبان فماذا تجيب ممالك فينيسيا وبارم ومانتو وسائر ممالك اوربا من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب فانها تتوعدنا

- إني احارب اوربا بأسرها إذا اقتضت الحال .

- وإذا حاربت اوربا المحارب الخير الأعظم وتحتمل حرمه ؟

- ان البابا هو البابا .. واما انا فاني ملك فرنسا .. كفى يا اماه ، فقد اردت السلم في مملكتي ولا بد ان يكون ما اردت ، فاني احارب في سبيله اوربا والخير الأعظم وكل ممالك الأرض .

- وبماذا تحاربهم ؟

- بجيوشي ونبلائي وشعبي .

- شعبك .. تعال واسمع ما يريده شعبك ، فقد بالغنا في الاميال السلمية حتى بات الشعب اردة .

ثم اخذت بيده وسارت به إلى قاعة متسعة تشرف على الجهة المقابلة للنهر وقالت له : وهما في الطريق .

على من تعتمد من النبلاء ، على الدوق دي كيز ولا ادري ما يكيد لنا بالسر ، أم على فرنسوا مونمورانسي وهو حابس نفسه في قصره ليحمي العصاة المتمردين .

- من هم اولئك العصاة .

- رجلان حاربا حراسك في قارعة الطريق امام الناس واهانك واهانني في قلب اللوفر وهما باردالبان وابنه اللذان تمردا على الملك وعجز الملك عن القبض عليهما .

- تقولين ان مونمورانسي يحميهما .

- نعم يا بني وان كل من تعتمد عليهم من نبلائك على شاكلة هذا النبيل ، واما شعبك فتعال واسمع ما يقولون .

ثم سارت به إلى نافذة مفتوحة فرأى منها الوف الناس امام اللوفر وهم يصيحون بأشد تحمس قائلين :

ليحيى الكنيسة .. ليمت الهوكينوت !

ولكن هذه الأصوات كان يعلو عليها اصوات اخرى من حين إلى حين ، وهي .

ليحيى الدوق دي كيز .. ليحيى قائدنا العام !

فالتفت الملك إلى امه متذمراً وقال : من هو هذا القائد العام ؟

- لقد ذكره لك شعبك فهو هنري دي كيز .

- اية قيادة يتولى ؟

- قيادة جند الكاثوليك .

- ما هذه الأقوال يا اماه ، واين الجنود الكاثوليكيون ومن حشدهم ؟

- اراك يا بني كأنك قد فقدت الهدى ، الا تعلم ان هؤلاء الجنود هم المملكة بأسرها . انهم الاسياد الذين يأنفون ان يعامل الهوكينوت كما يعاملون وانهم العامة الذين يعتبرون مبدأ الهوكينوت بدعة في الدين .

وعلى ذلك ترى ان هذا الجند هو المملكة بأسرها . وهـذا الجند يطلب ان يكون قائده العام دي كيز لان الملك ابى ان يتولى هذه القيادة .

فأقفل شارل النافذة بيـــد ترتجف ، وجعل يسير في القاعة بأقدام مضطربة ويقول :

ـ ماذا نفعل .. لقد اسقط في يدي ، ماذا اصنع .

ـ تفعل ما يدعوك اليه واجب الملك والدين .

ـ ماذا اسمع .. اتريدين ان اخون كوليني ذلك الشيخ الجليل الذي يكفي سروراً حين دعوته بي . ام تريدين ان اخون هنري دي ناڤار ، وقد ربطتنا مصاهرته بصلة الاخاء .

كلا ، إني لا افعل . افعلوا ما تشاؤون فان يدي بريئة من هذه الآثام .

فارتعشت الملكة مسروراً ، ولكن هـذا الأمر الذي خرج من فم الملك في مثل تلك الساعة لم يكفها ، فدنت من ولدها فأخذت يده بين يديها ونظرت اليه نظرات المشفق النصوح وقالت :

شارل ، ان طيب قلبك سيؤدي إلى هلاكك . الا ترى انـك ادخلت الداهية إلى باريس دون ان تعلم .

وانت تقول انك تقيدت مع هنري دي ناڤار بصلة اخاء ، اتدري أين كان هذا الداهية حين كنت تحسب قبل سفرك إلى بلوا انه في معسكر روشيل .

ـ أين كان ؟

ـ انه كان في باريس مع كونديه وكوليني واندلوت ، اتعلم ما كانت غايته من المجيء اليها ؟

ـ كلا .

ـ انه اتى اليها ليأتمر فيها على قتلك ويستوي على عرشك .

فاصفر وجه الملك اصفراراً شديداً حتى خشيت أمه ان تبدر منه بادرة غضب تفسد جميع امرها فدنت منه وهمست في اذنه قائلة :

وحده قاضيه

احذر ان تفوه بكلمة أو تشير إشارة يفهم منهـا اولئك الهوكينوت انك عارف بالحقيقة ، واكتم هذا الأمر بضعة أيام أو نهلك جميعنا .

ثم تركته وتولت من سلم سري الى غرفتها فنادت خادمتها وامرتهـا ان تدعو لها مورفر .

فأسرعت الخادمة ولم تكن هنيهة حتى عادت به .

فابتسمت له الملكة الطف ابتسام وقـــالت له : اني اراك من اصدق الاوفياء في خدمتنا يا مورفر ، فما طلبتك حين الشدة الا وجدتك .

ـ ان جلالة الملكة تغمرني باحسانها .

ـ كلا ، بل اقول الحقيقة اظهاراً لاعجابي بأصدقاء ولدي الذي بات تاجه يتلألأ لكثرة الطامعين فيه .

ـ إذا كانت حياتي يا سيدتي ، كافية لتوطيد هذا التاج فـــاني مستعد لتضحيتها .

وقد كان مورفر هذا من أتباع الدوق دانجو في البدء ، وهو الذي قـدمه لأمه ، وكان عارفاً باسرار جميع أهل البلاط ، موالياً للطامعين بالعرش ، وهو شديد الطمع بالمال .

وكان يخون الدوق دانجو لخدمة دي كيز ، ويخون دي كيز في خدمة الملك ويخون الملك في خدمة أمه .

وعلى الجملة فقد كان يخون الجميع بالسر وهو موال للجميع .

ولما سمع الملكة تذكر له خوفها على تاج ولدها ، وهو عارف بؤامرة دي كيز إذ كان من أعضائها ، خطر له أن الملكة واقفة على سر هذه المؤامرة فقال في نفسه :

انه إذا كان ذلك وأرادت أن تقبض علي هجمت عليها فخنقتها وأخبرت الملك ان امه كانت تريد قتله لتولية أخيه مكانه .

ولذلك أجابها قائلا : إني مستعد لكل شيء يا سيدتي .

قالت : اني أعرف منك هذه المروءة والنبالة ، ولذلك كنت أختارك للشدائد ، والآن فاعلم ان لي أعداء ، اي ان لولدي أعداء .

– أي ولد تعني جلالتك من اولادها .

فقالت الملكة في نفسها : ما كنت أظن ان هذا الخبيث يدرك حقيقة أفكاري .

ثم تنهدت وقالت له : أي ولد تريد ان أعنيه غير الملك ، ذلك المسكين المريض .

– لقد كنت يا سيدتي ولا أزال من أصدق خدم الدوق دالنجو ، فلما ذكرت جلالتك ولدها تبادر إلى ذهني الدوق ونسيت الملك .

– إني أحب يا مورفر جميع اولادي على السواء .. لأن الأم الصالحة لا تفرق بين أبنائها ، ومتى حشر الله نفس ولدي شارل بين ابراره الصالحين ، ورقي مكانه أخوه هنري ، يسرني أن أرى من حوله أمثالك من المخلصين لعرشه ، ولكن الا تستطيع ان تخلص لشارل نفس إخلاصك لهنري .

– سيدتي اني لم أرد بما قلته إلا ان أظهر لجلالتك ان حياتي وقف على إرادة مولاي الدوق .

أما إذا كان جلالة الملك محتاج إلى خدماتي وجب علي أن أخدم جلالته فاني من رعاياه .

– إنك يا مورفر من أهل الشجاعة والوفاء ، وإذا كنت تمثل لي اتكفل بإرادك ، أما وقد أظهرت لي إرادتك بخدمة الملك ، فأنا مظهرة لك أعداءه .

– تفضلي يا سيدتي بقول ما تشائين فان ما تتنازلين إلى إباحته من الأسرار لا يبوح به لساني ما حييت .

– اني واثقة من تكتمك ولكني احب ان اسألك قبل ذلك فقل لي ، ألم يخطر لك اسم احد أولئك الأعداء الذين ساذكرهم لك .

اتعنين يا سيدتي الدوق دي كيز ؟

فاتقدت عينا الملكة بلهب ولكن البارق انطفأ مسرعاً كما اتقد وقالت : معاذ الله ان يكون دي كيز من أعدائنا .

– العل جلالة الملكة تعني المارشال دامفيل .

– ولا ذاك فان هذا المارشال قد عهدنا اليه محافظة المدينة وهو من أخلص أصدقائنا .

– إذاً من الذي تعنيه جلالتك ، العلها تريد به ذاك الرجل الذي يتولى زعامة المستائين ، ويحتجب عن البلاط إشارة إلى عدم الاهتمام بشؤونه ، وهو يضمر اقبح المطامح .

– نعم ان فرنسوا موغورانسي هذا من اعدائنا ولكننا سننظر في أمره في فرصة اخرى .

– إذاً من هم أعداء الملك يا سيدتي فإني لا أعرف غير من ذكرت .

– ألا تعلم يا مورفر أن الملك ابن الكنيسة الأكبر .

– يظهر ان جلالتك يا سيدتي تعنين باعداء الملك اولئك الهوكينوت . ولكن الملك نفسه اعلن مسالمتهم وانت يا سيدتي عانقت ملكة الناقار .

– هو ذاك ، ولكن الهوكينوت لا يزالون يأمرون علينا بالرغم عن اخلاصنا بمسالمتهم ، فان الاميرال كوليني افرغ ثكناتنا من الجند والسلاح بحجة الغزة الحرب على دوق البا ، والله يعلم ما يضمر من هذا ، فاني مضطربة يا مورفر خوفاً على ولدي .

– لماذا لا تأمر سيدتي بالقبض على هذا الأميرال فيتفرق شمل جيش الهوكينوت ويرتاح سرها .

فأجابته الملكة بلهجة يأس : لقد فات الأوان يا مورفر ، ومن يجسر الآن ان يقبض على الأميرال ؟

– أنا !

ـ أنت ؟

ـ وماذا يمنعني يا سيدتي عن القبض عليه ؟ فليصدر الملك أمره أقبض على الأميرال في وسط الحفلة .

ـ ولكنها تكون فضيحة لم يسبق لها مثيل .

ـ كلا ، ان هذا محال وإني لاشك اشقى الملكات ...

ـ أواه لو أجاب الله التماسي لنجا الملك والمملكة والكنيسة .

ولكن الله مغمض عني يريد تجربتنا ، ولولا هذا لأصاب الأميرال كوليني بحمى محرقة فقتلته ونجونا من الفضيحة .. اقهمت .

ولكن يظهر وأسفاه ان الفوز سيكون للهوكينوت ، وستكون صلاتنا باللغة الفرنساوية بدلاً من اللاتينية ، فان الأميرال لا يزال معافى ، فلم يصب بحمى ولا بحادث آخر

فابتسم مورفر وقد فهم قصد الملكة منذ بدء حديثها ، ولكنه كان يبغي الحصول على أمر صريح فقال لها : ماذا تعنين بالحادث الآخر يا سيدتي ؟

ـ أن يسقط مثلاً حجر من السقف على رأسه فيقتله .

ـ ولكن هذا الحجر لا بد له من يد تسقطه .

ـ وأين أجد هذه اليد ؟ قل يا مورفر ما تريد قوله دون خوف .

ـ إني لا أعدم يا سيدتي صديقاً يحسن الرماية فيطلق على الأميرال غدارة تفعل فعل ذلك الحجر .

ـ هذا كل ما نبغيه وسنحسن مكافأة صاحب هـذه الغدارة الذي ينقذ الملك والكنيسة مما ينذرهما من الأخطار .

ـ إذاً لتطمئن سيدتي فان كلمة واحدة اقولها لهذا الصديق تكفي .

ـ ولكن كيف يقتله هذا الصديق .

ـ ابسط الطرق وابعدها عن الفضائح ، وهي انه يترقب خروج الأميرال من اللوفر ، فانه يخرج كل يوم في ساعة معينة ويعود إلى قصره ، فيكمن له

ـ ولكن أين يكمن له .

في منزل في الطريق مقفل النوافذ والأبواب فيطلق الرصاص عليه من نافذة المنزل فيقتله دون أن يعلم أحد بأمره ، ودون أن يسأل عن مقتله أحد ، وتكون جلالتك أول الآسفين عليه .

ـ وسنكافىء صديقك خير مكافأة ، فقل كم يجب أن نعطيه .

ـ لا تشغلي بالك يا سيدتي فاني ساكون معه ، ولدي خمسون الف فرنك أدفعها له كي لا تضطرب يده فيخطىء المرمى .

ـ كلا لا أريد أن ندفع شيئاً من مالك ، وهذه حوالة على الخزينة بنصف القيمة فاقبضها وادفعها له .

فأخذ مورفر الحوالة فوضعها في جيبه .

فقالت له الملكة : وبعد التنفيذ ندفع الباقي .. أترى كيف إني لا اساومك في مكافأة اصدقائك فاخبر هذا الصديق إني محتاجة اليه .

ضد من يا سيدتي ؟

ـ سأقول لك ، ولكن أعلم ان هذا الأمر لا يتعلق بالملك ولا بالكنيسة ، بل برجلين ولا سيما واحد منهما فاننا لولاه لم نبلغ ولم يكن للهوكينوت جيش ، ولم يخطف ملك النافار ابنتي ، ولم تمد حفلة الليلة في اللوفر .. ان هذا الرجل انقذ ملكة النافار من موت كان محتماً فأفسد كل خطتي ، بل انه يتولى حماية رجل حياته هائلة علي ، بل انه هزأ بي مرتين ، وأنا أكرهه وأكره أباه ، ولم أبح بهذا السر لسواك يا مورفر فاقتلهما اكافئك عن قتلهما بحملك كونتاً ، بل أزيدك على ذلك مائة الف فرنك عن كل قتيل منهما

ـ يظهر انهما من كبار أصحاب النفوذ .

ـ بل هما شابان فقيران ، ولكنهما قدا من الحديد بل هما أعجب من رأيت فبينما نحسب انهما قتلا ، نجد انهما قد انبعثا في اليوم التالي ، وبينما نحرقهما في منزل نجدهما عائشين آمنين في منزل آخر ، وقد حضرت يا مورفر

معاركها . وحضرت إحراقها في الحارة وحصارها في شارع مونمارتر ، بل حضرت ما كان من احدهما هنا في اللوفر .

فظهرت علائم الغضب بين عيني مورفر وقال لها :

– إنك تعنين يا سيدي باردالبان وابنه .

– هو ذاك وهما الآن ..

– في قصر مونمورانسي فاني اقفو خطوات هذين الرجلين وستنذهلين يا سيدتي لما ستسمعينه بشأنهما فاني لا اريد مكافأة عن قتلهما ، بل اني اضحي حياتي في سبيل القبض عليهما وخنقهما بيدي .

– يظهر إنهما اساءا اليك ايضاً يا مورفر .

فلم يجبها مورفر ولكنه أشار إلى خده .

فرأت الملكة أثر سيف باردالبان وقالت :

– انه اثر خالد يا مورفر لا يزول .

– نعم يا سيدتي ، وقد قتلت ثلاثة رجال لأنهم نظروا نظرة هزء إلى هذا الأثر .

ثم انحنى أمام الملكة وقال : اتأذن لي مولاتي بالانصراف .

– اذهب يا مورفر وبعد فورك سل ما تشاء دون خوف فانك ستجاب الى كل ما تطلب .

فانصرف مورفر . وقالت الملكة في نفسها : لقد قضي شأن كوليني وباردالبان . فلننظر الآن في شأن ملكة النافار .

ثم نادت خادمتها وامرتها ان تدخل رجلاً آخر كان ينتظر منذ حين صدور الامر اليه بالدخول .

واما مورفر فإنه دخل إلى تلك القاعات الفاصة بجماهير المدعوين ، وهم يزيدون على عشرة آلاف .

فما زال يسير من قاعة إلى قاعة حتى التقى بالدوق دي كيز والناس من

حوله يحيونه فوق اجلال الملك .

فلما رآه الدوق دي كيز ، ناداه فخلا به وقال له :

– ماذا تريد منك الملكة .

– اصدرت الي امرها بقتل كوليني .

فارتعش الدوق وقال : انها تحاول ان تسبقنا .

ثم صمت هنيهة مفكراً وقال :

– وماذا وعدت ؟

– ان اقتل الاميرال .

وظهرت علائم التردد على الدوق ولكنه هز رأسه وقال :

– لا بأس ، ولكن يجب ان تنتظر الى ان اجد الفرصة المناسبة .. اعلت . لا تقتله قبل ان يصدر اليك امري .

– سأمتثل .

– ثم اني اذا امرتك ان تطلق الرصاص فيجب ان تحتال بحيث تجرحه جرحاً بالغاً دون ان تقتله في الحال ، افهمت ؟

– سأفعل يا سيدي الدوق .

وعند ذلك افترقا فذهب مورفر يتجول في القاعات ، ورجع الدوق الى حيث كان مع اعوانه وخدمائه .

* * *

وأما الملكة كاترين فانها انتظرت هنيهة ، ثم دخل اليها ذلك الرجل الذي امرت خادمتها بادخاله ، وهو الكونت ماريلياك ، اي ديودات .

فاستقبلته الملكة قائلة : اشكرك يا حضرة الكونت فانك وفي بوعدك .

فانحنى ديودات وقال لها : وانا اشكر مولاتي لتفضلها بالعطف علي ، وبذلك الوعد الذي تفضلت ووعدتني به .

كونت ، لا يجب ان تعجب لعطفي عليك .

فارتعش ديودات وقال : احلم ما اراه .. اهي جلالة الملكة التي تكلمني بهذا الحنو ؟

وقد اعتقد بعد هذا القول إنها ستجيبه ، كلا بل هي أمك ، .

ولكنه لم يسمع شيئاً من ذلك بل ان الملكة قالت له بنفس اللهجة أنت يا كونت من الذين اشتهروا بكرم الأخلاق ، وأنا اقول باسم هذه المكارم ان لا تسألني عن سبب ميلي اليك .

فاضطرب ديودات وقال : إذا كان لهذا سر يا سيدتي فمعاذ الله أن احاول كشف هذا السر .

– نعم نعم يا كونت ان هناك سراً ، ولكني اقسم لك إني سأظهره لك قريباً .

ثم قالت بصوت يضطرب :

نعم سأبوح لك قريباً بهذا السر وسأظهر لك حقيقة السبب في ميلي اليك وعطفي عليك ، وكيف إني تظاهرت بالبرود في مقابلتنا الأولى ، وكيف مع ذلك عرضت عليك عرشاً تتولاه ، وكيف إني قلقت لما رأيته من ظواهر حزنك ، وأخيراً سأظهر لك لماذا أريد أن تكون سعيداً .

ثم قالت : وقد ارادت تغيير الحديث حذراً من أن تبدر منه بادرة .

ماذا صنعت يا كونت بذاك الصندوق الذهبي الذي قبلته مني ؟

– انه هدية من جلالتك يا سيدتي فحفظته كتذكار مقدس .

فمرت غمامة كثيفة على محيا الملكة وقالت : احفظته عندك ؟

– ان جلالتك تعلم يا سيدتي إني مقيم في قصر ملكة النافار لأني من حاشيتها ، وهذا الصندوق الجميل يا سيدتي من اجمل ما تقع عليه العيون ولكنه صندوق نساء .

فابتسمت الملكة وقالت لقد اصبت فاني كنت اضع فيه قفازي وبعض مجوهراتي ، وقد اهداه إلي فرنسوا الأول حين جئت إلى بلاط فرنسا .

– وهو قد استخدم يا سيدتي للغرض نفسه ، فان جلالة ملكة النافار قد استخدمته لوضع قفازها .

فتنهدت الملكة اخفاء لظواهر فرحها وقالت : احق ما تقول ؟

– نعم يا سيدتي فإني أحب ملكة النافار كأنها أمي وقد رجوتها ان تحفظ لي هذا الصندوق عندها إلى يوم ..

– لقد احسنت يا ابني .

فأوشك ديودات ان يسقط فقد سمع هذه اللفظة من فمها أول مرة .

فقالت له الملكة : امض في حديثك يا بني ، فقد قلت انك تريد حفظه عندها إلى يوم .

– نعم يا سيدتي إلى ذاك اليوم الذي اقف فيه على هذه الحقيقة التي تعرفينها كما تدانيت ووعدتني يوم شرفتني بهبة هذا الصندوق .

– واما موفية بوعدي ايها الكونت العزيز ، ولكن الا يهمك ان تعرف كيف علمت غرامك بالبس دي لبكس .

– لقد بلغ اضطرابي يا سيدتي اني لم يعد يذهلني شيء . ولكنني ظننت ان لسيدتي ادارة منظمة لمعرفة الانباء ، وانها تدانت إلى السؤال عني ومعرفة امري .

– نعم يا كونت فقد كنت اقفو اثرك واعلم كل ما تعمله واهتم بك اهتماماً لا اهتم مثله بملك فرنسا

نعم ، انت لو كنت عدواً من اعداء المملكة لما راقبتك هذه المراقبة ، والله يعلم كم كنت القى من العذاب حين كنت القاك ..

ثم امتنعت فجأة عن اتمام حديثها .

فقال لها : بالله يا سيدتي اتمي الحديث .

كلا ، ان الساعة لم تحن بعد ، وانت وعدت لن لا تحاول اكتشاف ذاك السر .

فضم ديودات يديه ووقف مطرق الرأس أمامها .

وعادت الملكة إلى حديثها فقالت :

ـ لقد عرفت غرامك باليس دي ليكس بعد مقابلتنا الأولى .

وذلك انك أتيت ليلة فوقفت عند قصرى الجديد ، تحت نافذة غرفة البرج .

وكانت تصحبك ملكة النافار فدخلت هي إلى منزل اليس ووقفت أنت تنتظر عودتها فأردت ان أعرف السبب في شقائك .

وقد عرفت اليس من قبل ، فقد كنت اضطهدتها لأنها تركت مذهبنا واعتنقت مذهبك .

وقد كنت مخطئة بلا ريب في هذا الاضطهاد لقد خلق الانسان حراً يدين بالدين الذي يختاره .

ولكني كنت أعرف اليس حق المعرفان فلقيتها في صباح اليوم التالي وعرفت ما جرى بينها وبين ملكة النافار .

فقطع ديودات حديث الملكة قائلاً :

ـ وفي ذلك اليوم يا سيدتي ، تشرفت بمقابلتك للمرة الثانية . وفي ذلك اليوم نفسه أهديتني ذلك الصندوق إشارة إلى عطفك علي ووعدتني ذلك الوعد .

ـ نعم ، وقد وعدتك ان أخبرك بحقيقة أمر اليس دي ليكس ، وأنا موفية بوعدي .

فاصفر وجهه وتأهب لسماع أقوال الملكة ، كما يتوقع المتهم أن يسمع حكم القاضي عليه .

فقالت له ولكن ملكة النافار . ألم تقل لك شيئاً ، منذ ذاك اليوم .

ـ إنها حين تركت منزل اليس يا سيدتي قالت لي هذه الكلمات التي نقشت

على لوح صدري وهي :

إني باحثت خطيبتك ملياً يا بني ، واني ليهولني ان تكون هذه الفتاة زوجة رجل أحبه كما أحب ولدي . ولكن الحب يولد العجائب فإن هذه الفتاة تحبك حباً لا تدركه الأوصاف .

ولا أشير عليك في هذا المقام إلا أن تندفع مع تيار القدر ، وأن لا تكترث لخوفي ، لأنك لن تجد في الوجود امرأة تحبك ، كما تحبك اليس ..

هذا ما قالته لي ملكة النافار يا سيدتي ، وقد أبت أن تزيد كلمة على هذا القول ، بل أمرتني أن لا أباحثها في هذه الأمور إلا حين أعول على الزواج باليس .

أواه يا سيدتي ، إن كلام ملكتي لم يزد هذا السر إلا غموضاً ... فكيف اتفق أن هذه الملكة ، التي لم تعرف الكذب في حياتها ، كان وجهها يحمر حين حدثتني عن اليس .. وما يحملها على الذعر من زواجي باليس ؟

وما هذه الحيرة التي كانت تبدو منها ؟ فلقد خيل لي أنها عرفت من اليس أنها مجرمة وانها رأت من حبها لي ما حملها إلى كتمان الجريمة أو الاغضاء عنها... بل خيل لي أنها تقول :

تزوج هذه المجرمة الأثيمة لان آثامها ترعبني ، ولكن حبكما عجب ، فإذا فرقت بينكما بعد هذا الحب فإن ذنب التفريق أشد من ذنب التزويج والاغضاء عن الجريمة .

فقالت له الملكة كاترين : أرأيت اليس بعد اجتماعها بالملكة .

كلا يا سيدتي لقد بت معتقداً إني إذا قابلتها أعرف جريمتها لأول وهلة ، ولكني لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنها .

فهزت الملكة رأسها وقالت : لقد أكثرت ، في حديثك ، من لفظ

الجريمة . فاحذر يا كونت أن تتمادى في ريبتك ، فلا دليل على إثبات ما تظن .

واصغ إلي يا كونت ، لقد سألتك منذ ثمانيـــة عشر يوماً ، مهلة شهر لأقف على حقيقة أمر اليس دي ليكس ، ولكني لم أعد في حاجة إلى هذه المهلة . فقد عرفت قبل انقضائها حقيقة أمر هذه الفتاة وسأخبرك به كما وعدت فاسمع .

إن اليس دي ليكس نقية طاهرة ، جديرة بحب واحترام شخص مثلك ولكن ...

فلم يسمع ديودات لفظة « ولكن » ، وقد طار فؤاده سروراً لمـــا سمعه من فم الملكة عن براءة اليس وطهارتها ، فركع أمامها وهو يبكي من الفرح .

وأخذ يد الملكة فقبلها وقد تفجر في صدره ذلك السر الذي لم يعد يستطيع إخفاءه فقال :

ـ أماه .. أماه .. أنت جعلتني من أسعد البشر .

فذعرت كاترين ونظرت اليه نظرة هائلة ثم سحبت يدها من يده وتراجعت إلى الوراء وهي تقول :

ـ ماذا أصابك أيها الرجل ؟ أأنت مجنون !

فوقف ديودات في الحال .

ولكن الملكة كانت قد ثابت الى رشدها في تلك اللحظة واستجمعت قواها فقالت له :

ـ لقد أرعبتني يا كونت ، فلو سمعك أحد لكانت أم ملك فرنسا قد تلوثت بالعار .

فقال لها بلهجة القانطين : سيدتي التمس منك العفو عن رجل تيمه الحب ، ويتمه القدر فبات لا يعلم ما يقول .

ـ كفى يا كونت ... يربك كفى وحبذا لو استطعت أن أمحو من نفسك آثار تلك الظنون بي .

بل حبذا لو تمكنت أن أرحي إلى قلبك تلك الرحمة التي يجب أن تكون في قلب كل رجل بازاء امرأة شقيت دهراً طويلاً . فاكتم هذه الأمور يا كونت ولا سيما هذا الأمر .

ـ أقسم لك يا سيدتي على الكتمان .

ـ ولا تقل كلمة لأحد .

ـ سأحفظ سري في صدري إلى الأبد .

ـ وأريد ان تبالغ في الكتمان حتى عن اليس بل عن الملكة أيضاً ، تلك الملكة التي لو تجسم الكرم لما تمثل إلا في شخصها .

ـ أقسم على الكتمان .

ـ أتقسم لي أيضاً ان جميع ما يجري بيننا لا يعلم به سوانا .

ـ أقسم .

فذهب ما كان ظاهراً على الملكة من الاضطراب ، ووقف أمامها واجماً متأثراً مضطرباً وهو يقول في نفسه :

ـ ترى من أين دخل إلى قلبي هذا السرور ، العلي شككت لحظة بطهارة اليس ؟ ...

معاذ الله فما فتئت أحسبها من الملائكة الأطهار .

أما الملكة فإنها بعد ان سكن جأشها نظرت اليه وقالت :

ـ إني وعدتك يا كونت أن أخبرك كل الحقيقة عن اليس فيجب أن تعلم السبب في حيرة ملكة النافار بشأنها .

نعم انه يوجد سر في حياة تلك الفتاة ، ولا بد ان تكون قد لاحظت أحياناً من أمورها ما حملك على الاستغراب .

ـ هو ذاك يا سيدتي ، فقد كانت تبدو عليها علائم الرعب أحياناً لغير

سبب ظاهر .

– ذلك انها كانت تخاف أن تبدو لك الحقيقة يوماً وهي هائلة ولكن اليس غير مسؤولة عنها بشيء .

– أتوسل اليك يا سيدتي أن توضحي لي هذه الحقيقة .

– إذاً ، فاعلم ان اليس لا عائلة لها ، وهي تنتسب إلى بيت دي ليكس بطريقة التبني .

هذه هي الحقيقة يا كونت ، وهذا هو السبب في تحير ملكة النافار ، فإنها كرهت أن يتزوج ، من تدعوه ولدها ، بفتاة لا يعرف لها أب ولا أم .

وقد كانت هذه التهمة التي اتهمت بها الملكة اليس انها القيطة أمام ديودات وهو لقيط أيضاً من أعظم نوادر جرأتها .

فإن مثل هذه الولادة الخفية كان يحسبها الناس في ذلك العهد عيباً لا يغتفر ، كما يحسبونها اليوم ، فيضطهدون ذلك المولود البريء ، ويعاملونه بملء الاحتقار . وكل ذنبه أن أباه وأمه قد أخطأا ، وان اسمه لم يقيد في سجل المواليد .

غير ان الملكة لم تقل هذا القول إلا لغاية لها ، فإن ديودات حين علم أن كل ذنب اليس أنها مثله لا تعرف أباها وأمها ، وهما لا يعرفانها قال للملكة : إني سأذهب يا سيدتي فأنطرح على قدمي اليس ورجائي أن تغفر لي ما أسأته اليها بسوء ظني .

– إذاً لا تزال على سابق عزمك بالرغم عما قلته لك .

– وماذا قلت لي يا سيدتي سوى أن خطيبتي مثلي يجمعنا حظ واحد وانا خلقنا فكنا شريدين وحيدين . . إني أشكرك يا سيدتي أجزل شكر فقد بت مديناً لك بالحياة .

– إذا كنت لا تزال مصمماً على هذا الزواج يا كونت فافعله ، ولكن لا

تبالغ بالحفلات إلى ان تدعى باسمك فلا يخطر لأحد بعدها أن يسألها عن اسم أبيها .

– ليعقد زواجنا يا سيدتي كما اتفق بشرط أن يعقد .

فابتسمت الملكة له الطف ابتسام وقالت : إذاً ، دعني أتولى بنفسي تدبير هذا الأمر ، فإني أحب أن احضر عقد الزفاف ، دون أن يعلم أحد .

– أنت تغمريني يا سيدتي بلطفك وإحسانك .

– وأنا سأختار الكنيسة التي يعقد فيها الزواج ، وأعين اليوم ، والساعة . . .

ورجائي أن تدعي أختار الكنيسة فلست من المتعصبين لمذهب الهوكينوت خلافاً لي فاني شديدة التعصب للكثلكة .

– سأمتثل يا سيدتي لكل ما تريدين ، وليعقد زواجنا أي كاهن تختارينه .

– نعم .. نعم لقد وجدت الكاهن فهو بانيكارولا ووجدت الكنيسة فهي كنيسة سانت جرمين .

– واليوم .

– سيكون اليوم التالي لزواج ابنتي مرغريت .

– والساعة .

– ستكون خير الساعات ، أي حين انتصاف الليل . فاذهب الآن أيها الكونت العزيز ، واجتهد ان تكون سعيداً ، فأنت في حاجة إلى السعادة .

فقبل يدها وقال : لم يعد يعوزني شيء من أسبابها ، فأنا الآن أسعد إنسان .

– كلمة أيضاً يا كونت ، وهي ان تأذن لي أن أكون أول من يبشر اليس

بهذا النبأ ، لقد أسأت اليها أيام كنت أصطهدها ، وأحب ان أنفي من نفسها هذا الاستياء .

– إني ممتثل مطيع .

– إذاً أتعدني أن لا تقول كلمة مما جرى .

– لقد أقسمت يا سيدتي .

وعند ذلك انصرف ديودات ، وهو يحسب نفسه أسعد البشر ، كي يذهب إلى ملكة النافار ليخبرها بسعادته الجديدة ، ثم الى اليس ليسألها أن تعفو عنه لربه بها .

فلم يكد ينصرف من حضرتها حتى برحت هي تلك الغرفة وذهبت الى غرفة أخرى منزوية كانت تنتظرها امرأة فيها.

وكانت هذه المرأة اليس دي ليكس .

فذهبت الملكة اليها فأمسكت يدها ، وحدقت بها تحديق الفاحص ، فقالت لها :

– أسمعت الحديث ؟

فارتعشت اليس وقالت كلا .

– لقد تغيرت تغيراً عظيماً كما يظهر ، لقد كنت أشهر من يتسمع خلال الأبواب والآن إصغي إلي .

إنه خرج الآن من غرفتي وهو يحبك حباً لا تصفه الأقلام وسيعقد زواجكما قريباً فلا تسأليه عن يوم الزواج ولا عن اسم الكاهن الذي سيعقده فسأخبرك بكل هذه التفاصيل في حينها .

ولكن يجب ان تعلمي أنك لست ابنة الكونت دي ليكس ، بل أنت لقيطة تبناك الكونت وانت لا تعرفين أباك وأمك ... وان هذا هو السر الذي بحت به لملكة النافار ، وجعلك تضطربين دائماً أمام خطيبك ، أفهمت ؟

– نعم يا سيدتي .

– إذاً انت سعيدة منذ اليوم فليس من يعلم سرك سواي .

– وملكة النافار ؟

– لا تخافي ، فستتزوجينه وتسافرين بعيداً الى حيث شئت ، وتعيشين معه أسعد عيش ، وكل ذلك بشرط واحد وهو ان تمتثلي لأمري الى النهاية . فإذا بدرت منك بادرة تدل على التردد سحقتك ... وقتلتك شر قتل

– سأمتثل يا سيدتي الى النهاية بشرط أن ينجو .

فهزت الملكة رأسها وقالت :

– إذهبي يا ابنتي فإني أريد له الخير كما أريده لك ولكن احذري أن تنسي ما أوصيتك به .

ووقفت اليس ، وقد ظهرت عليها علائم الاضطراب والتردد ، واصفر وجهها .

فلم يخف ذلك على الملكة وقالت لها :

– ماذا أصابك يا اليس وبماذا تفكرين ؟

فتلعثم لسانها وقالت : لا شيء يا سيدتي .

فأخذت الملكة يدها ، وجعلت تنظر اليها نظرات تخترق أعماق نفسها وقالت :

– أليس لك ما تقولينه لي ؟

– كلا يا سيدتي لاني كنت أفتكر بهذا الزواج ليس الا

– أواثقة انك لم تسمعي شيئاً من حديثي مع خطيبك .

– اقسم يا سيدتي اني لم أسمع شيئاً

– حسناً اذهبي الآن ولا تنسي ما أوصيتك به .

فخرجت اليس وسارت في أروقة اللوفر وهي تجتنب القاعات المحتشدة فيها

وحده قاضيه

الناس حتى وصلت الى الباب الأكبر ، فخرجت منه ودخلت الى منزلها الصغير في شارع لاهاش. وهناك جلست عند مائدة فوضعت رأسها بين يديها وجعلت تقول في نفسها:

ولكنه مع ذلك ابنها . . أهي عالمة بذلك ؟.. أيجب ان أخبرها بهذا السر . . أيجب ان أخبرها هي أيضاً به ؟..

اني ارتكبت خطأ عظيماً فقد كان يجب ان اسمع حديثهما ... وماذا عسى ان يكون بعد هذا الحديث ؟

اني لم أخدع ولا أنسى ذاك اليوم يوم اختلى ديودات بملكة النافار وسمعته من وراء الباب يقول لها هذه الكلمات :

(لماذا لم أمت في ذاك اليوم الذي عرفت فيه ان الحقودة العاتية كاترين دي مدسيس هي أمي) .

أيجب ان أقول له اني عارفة بهذا السر ؟.. وكاترين هل تعلم ان الكونت دي ماربلباك ولدها .

وبعد ان أمعنت في التفكير قررت ان السكوت أولى لانها خشيت ان تخبر الملكة بذلك فتقتله دون اشفاق

- ٢٢ -

بدء انقضاض الصاعقة

ولنعد الآن الى الكونت دي ماربلباك فانه بعد ان برح غرفة الملكة ذهب الى القاعات التي كانت غاصة بجماهير المدعوين .

وكان فرح القلب طلق المحيا لم يعرف قلبه مثل هذا السرور حتى ولا في ذاك اليوم الذي باحت له فيه اليس بغرامها .

وجعل يبحث في القاعات عن ملكة النافار ليخبرها بهنائه فقد عظم هذا الهناء في صدره حتى لم يعد يتسع له .

وكانت الحفلة في ابان جلالها في تلك الساعة وقد اجتمع الناس في كل قاعة وتألفوا عصابات كانت كل منها تتلهى بنوع من الملاهي .

وقد مر ديودات بقاعة كان فيها الدوق دانجو وكثير من أعوانه

ولما رآه الدوق هش له وقال : افرح وسر يا كونت ، ألا ترى الجميع ضاحكين لاعبين .

- اني لم أجد يوماً في حياتي فرحت به هذا الفرح .

فطوقت العصابة عند ذاك ديودات وجعل كل منهم يجذبه اليه ممازحاً ، بشكل التودد.

فاحمر وجه ديودات وأقلت منهم ، وقد رأى ان الحفلة بدأت تظهر بمظهر غريب

ثم اجتاز القاعات الأخرى ، فكان يرى في كل منها جماعة من الكاثوليك يحدقون بواحد من الهوكينوت ويهزأون به بشكل المهازحة .

وقد رأى في إحدى تلك القاعات ملك النافار ، والدوق دي كيز ، وفريقاً من أعيان الكاثوليك يلعبون بالكرة ، فكانوا كلهم يرمون ملك النافار بكراتهم ، فكان ملك النافار يبالغ بالضحك إخفاء لاضطرابه .

ورأى في قاعة أخرى البرنس دي كوندية والكاثوليك يضربونه أيضا بكراتهم ، ولكن هـذا الأمير لم يكن له صبر الملك ، فكان يجيب على كل ضربة ولكمة بمثلها ، بحيث كانت كلمة أو نظرة تكفيان لاحالة المهازحة إلى خصام .

وعلى الجملة فقد كانت هذه الحفلة شبه مقدمة لمعركة وقد تبين فيها تحامل الكاثوليك على الهوكينوت بجميع أنواع الهزء

ولكنهم كانوا يخفون هزءهم بمظاهر المهازحة ، التي تقتضيها هـذه الحفلات .

وأما الهوكينوت فلم يكن بعد قد خطر لهم الشر في بال

وأغرب ما حدث في تلك الليلة انه بينما كان الناس مجتمعين أفواجا ، في القاعة الكبرى ، دخل اليها خمسون فتـاة من نبيلات الكاثوليكيين ، وأكثرهن من نساء الملكة كاترين ، فبـدأن بالوثوب على ظهور الكاثوليكيين ، والركوب على أكتافهم ، فكان الناس يضحكون وقد سرهم هذا المزاح .

ثم جعلن يغيرن جيادهن الانسانية ، ولم تمر هنيهة حتى أصبحت تلك الجياد كلها من الهوكينوت ، والهوكينوت فرحون مسرورون .

وعندها أمسكت كل فارسة بأذني من امتطت ظهره من الهوكينوت وجعلت تلكزه برجليها كما يلكز الفارس بطن الجواد بالمهماز فيسير بها إلى حيث تشاء .

وقد سار هذا الموكب المؤلف من خمسين رجلا من الهوكينوت ، وخمسين

فتاة فوق ظهورهم من الكاثوليك يطوف القاعات والناس يضحكون ويهزأون بهذه الجياد .

وفي طليعة هذا الموكب ، الدوق دي كيز وهو يفرق الناس كي يفسح له الطريق .

ولقد يحسب القراء ان ما نرويه من المبالغات ، ولكنه بعض ما حدث في تلك الحفلة كما يرويه التاريخ تماماً .

وبينما هذا الموكب ينتقل من قاعة إلى قاعة ظهر الملك فانقطع الضحك واطلق الفتيات سراح جيادهن وسادت السكينة فوقف كل من الحاضرين موقف الاحترام امامه .

أما الملك فانه نظر نظرة الباحث إلى الحاضرين فرأى بينهم الأميرال كوليني فاسرع اليه وصافحه قائلا :

ارجو يا ابي ان تكون راضياً عن هذه الحفلة .

فأجابه الأميرال قائلا :

وأي سرور أعظم من هذا ، فان لرجال بلاطكم جلالتكم طريقة بالتلهي لا انساها مدى الحياة .

– ولكنك قد تفضل على هذه الطريقة طريقة أخرى للتلهي كأن تطارد الملك مثلا كما يطاردون الأيل .

فدوى هذا الكلام في الآذان دوي الصواعق ، ولكن شارل التاسع قال له مبتسماً :

ومع هذا فان الهوكينوت قد ارتعشت اجسامهم وحسبوا هذا الكلام شر وعيد

وأما الاميرال فاجابه ببرود قائلا

التمس من جلالة مولاي ان يوضح افكاره .

فاصفر وجه الملك ، وتبين الغضب بين عينيه وكاد أن يبوح بكل ما

سمعه من امه .

ولكن الملكة كاترين ادركت الموقف الحرج ، ورأت اتقاد عيني ولدها ، فاسرعت إلى اجابة الأميرال فقالت :

انك يا حضرة الأميرال تتأهب لمطاردة دوق البـــا ، فلا بد لك أيضاً من مطاردة ملك اسبانيا .

فتنهد رجال الهوكينوت تنهد الراحة بينما كانت علائم الاستياء قد ظهرت على وجوه الكاثوليكيين .

وأما الأميرال فانه أجاب الملك فقال :

لا انكر يا سيدي اني اؤثر التلهي في هولندا بمطاردة الدوق وان تكن هذه الحفلة في بلاطكم من أعجب الحفلات .

– هو ذاك يا ابي فانك من أهل الحروب لا من أهل البلاط .

وقد عادت إلى الملك سكينته بعد أن نظرت اليه امه نظرة المؤنب فقال :

ما لي لا أرى ملك النافار ؟

فقالت امه : انه مع مرغريت فلندعهما في هناءتهما يا ابني .

فأشار الملك اشارة بيده فعاد الناس إلى ما كانوا عليه .

وتأبط ذراع الأميرال فسار واياه وهو يقول :

ماذا جرى يا أبي في هذه الحفلة على الدوق دي البـــا ؟ أتعلم انه جرت هناك مذبحة هائلة ، وان دوق البـــا قد قتل ما يزيد على عشرين الفـــاً من الهوكينوت ؟

– نعم أعرف هذا واسفاه ولكني ارجو بفضل ملك فرنسا أن أقطع هذه المذابح التي يسود لها وجه الانسانية .

– اسرع ايها الأميرال ما استطعت إذ قد يتفق حدوث مثل هذه المذابح في غير تلك البلاد ايضاً

وقد قال الملك هذا القول بلهجة المتوعد ، غير ان كوليني لم ينتبه لهذا

الوعيد ، فقد كان يعتقد ان الملك يحسب نفسه سعيداً بعقد السلم .

وكانوا قد وضعوا عرشاً للملك في القاعة المتوسطة ، فسار شارل التاسع إلى العرش ، فجلس عليه وأجلس الأميرال كوليني عن يمينه وهو حظوة عظيمة لم ينلها سواه فأشرقت أسرة الرجال الهوكينوت بنور البشر .

ولكن لم يكد يستقر على عرشه حتى سمع لغطاً في القاعة المجاورة .

ولم يكن هذا اللغط ضجيج ضحك وسرور ، بل كان شبه أنين خارج من صدور الهوكينوت .

وقد سمع خلاله أصواتاً مختلفة تقول :

(الملكة تموت) .

واليك بيان ما حدث .

لقد تركنا ديودات يبحث عن ملكة النافار ، وقد وجدها في تلك الساعة التي جلس فيها الملك على عرشه وعلى يمينه كوليني .

وكانت الملكة كاترين في الوقت نفسه تسير مع بعض النبلاء إلى حيث كانت ملكة النافار .

وكانت ملكة النافار جالسة بملء الرزانة والوقار يحيط بها فريق من نسائها ورجالها ، فكانوا ينظرون اليها معجبين خائفين فقد رأوا ان وجهها اصفر فجأة ، ثم احمر إحمراراً شديداً بعد ذلك الاصفرار .

وقد كانت تلك الملكة تشعر حيناً ان جسمها بارد كأن الثلج قـــد وضع عليه . فترتجف من البرد ثم تشعر ان الحمى أدركتها وأنها تكاد تحترق من الحر .

ولكنها لم تكن تبالي بهذه العوارض لاعتبارها انها بسيطة زائلة .

وجعلت تبحث بنظرها عن ابنها حتى رأته مع مرغريت .

ولكنها كانت تنظر اليه نظرات قلق لا تخفى عن خطيبته فدنت منهما وقالت لها بصوت منخفض

ـ مما تخافين يا سيدتي ؟ اطمئني فلا يجسر أحد على إساءة خطيبي .

فاطمأنت ملكة النافار لأنها كانت تعلم يقيناً ان لمرغريت نفوذاً عظيماً على أخيها شارل التاسع .

وفي تلك اللحظة رأت الملكة ديودات يفرق الناس ويبذل جهداً عنيفاً للوصول اليها .

حتى إذا دنا منها ابتسمت ومدت له يدها .

فابتعد عنها المقربون ، وحاول ديودات ان يقبل يدها .

غير ان الملكة جذبت يدها من يده بسرعة ووضعتها على جبينها ، ثم على عنقها .

ثم جعل العرق ينصب من وجهها ، وقد جحظت عيناها وبح صوتها كأنها تختنق .

وصاح ديودات قائلا . افتحوا النوافذ .. جددوا الهواء .. ان الملكة مريضة .

فأسرعت الملكة كاترين وقالت رباه ماذا أصاب ابنة عمنا العزيزة .

ثم دنت منها وعليها ظواهر الحزن الشديد كأنما يدها الأثيمة لم تقتل تلك الملكة الطاهرة بذلك السم النقيع .

ثم قالت : أسرعوا وبادوا الطبيب باري ، فقد رأيته الان في إحدى القاعات .

فهرول نحو عشرون رجلا يبحثون عن الطبيب في القاعات .

وأخذت الملكة كاترين زجاجة صغيرة فشمتها من رائحتها فعادت ملكة النافار إلى رشدها ورأت ديودات أمامها فقالت له :

لا تخف يا ابني فهذا من تأثير الحر .

فأجابها ديودات : نعم هو ذاك يا سيدتي ، والله اسأل أن يحمي فداء ملكتي .

فقالت الملكة كاترين ، ولكن حياة ابنة عمنا العزيزة ليست في شيء من الخطر

وفي ذلك الحين جاء الطبيب وأخذ يفحصها فحصاً دقيقاً .

فصاحت ملكة النافار قائلة : إلي إلي .. نادوا ولدي . أريد ان أرى ولدي ، ان يدي تحترقان وصدري يلتهب

وجعل الطبيب يفحص يدي الملكة ، بينما كان الناس يتزاكضون للبحث عن هنري دي نافار .

وقد فقدت الملكة رشدها مرة ثانية ، فلم تفد هذه المرة زجاجة الملكة كاترين .

وأقبل هنري دي نافار مسرعاً ، فرأى أمه منطرحة وعليها علائم الموت .

فاصفر وجهه وضغط على كتف الطبيب فقال له بصوت منخفض وبلهجة هائلة :

ـ أريد أن أعرف الحقيقة بتمامها عن حالة أمي .

فاضطرب الطبيب وأجابه بصوت يتهدج :

ـ ان أمك ، يا سيدي مشرفة على الموت

فجثا الملك على ركبته وجعل يبكي بكاء الأطفال ، واستند ديودات إلى عمود حذار من السقوط .

ووضعت الملكة كاترين يدها على عينيها وهي تقول : رباه ما هذا المصاب إن ملكة النافار تموت .. رباه انها تموت في اهنأ ساعة من ساعات حياتها ، أي في حفلة خطبة ولدها

وانتشر هذا الخبر في القوفر منتقلا من قاعة إلى قاعة فما كدت وجوه الهوكينوت وأظلمت نفوسهم .

وكف الكاثوليك عن ممازحة الهوكينوت بعد أن فاجأهم هذا الخبر وأسرع كوليني وكونديه واندلوت وغيرهم من زعماء الهوكينوت إلى الملكة

وهم منذعرون لهذا المصاب الأليم ، وقد أرجس كلهم خيفة على نفسه وحدثتهم قلوبهم بمصاب عظيم يتبع هذا المصاب .

وأما الملك فانه لما تلقى هذا الخبر ذعر له فاصفر وجهه وحاول ان يتكلم. ولكنه لقي في الحال أمه تنظر اليه نظرات معنوية وتوصيه بالصمت ، فلم يسع هذا الملك الضعيف المنخلع القلب غير الامتثال فأطرق برأسه وقال :

ـ لقد انتهت الحفلة .

فدنت عند ذلك امه منه وهمست في اذنه قائلة :

ـ لا تقل يا بني انتهت ، بل قل قد ابتدأت .

وبعدها بنصف ساعة أطفئت الأنوار في اللوفر ، وتفرق الناس ، فلم يبق غير الحراس .

ولكنهم ضاعفوا عددهم عند كل باب .

وفي تلك الساعة كانت الملكة كاترين مختلية في غرفتها برينيه الفلكي يتحدثان بالجريمة .

فسألها الفلكي قائلاً :

ـ ماذا كانت تقول ملكة النافار ؟

قالت : إنها كانت تشكو من حرارة شديدة في جميع جسمها ولاسيما يديها وذراعيها .

فهز الفلكي رأسه وقال :

ـ إذاً لقد سرى اليها السم من القفاز .

ـ هو ذاك ، ولا شك ان هذا الصندوق من أفخر الصناديق يا رينيه .

ـ ولكن كيف ارسلته اليها دون أن تثيري الظنون .

ـ ذاك سر من أسراري .

وفي اليوم التالي انتشر الخبر في جميع باريس ان ملكة النافار قد ماتت موتاً هائلاً بحمى غير معروفة .

وكان اذا عجب أحدهم لهذا الموت الفجائي يجيبه الآخرون : لقد نقص عدد الهوكينوت واحداً .

ولكن هذا لم يمنع الباريسيين من الاحتفال بخطبة ملك النافار .

- ٢٣ -

جيلوت

يوجد شخص بين اشخاص هذه الرواية سيكون له شأن خطير في سياق حديثها فلا بد لنا أن نعود اليه حيث تركناه .

وليس هذا الرجل شأن في نفسه ، ولكنه آلة إذا أدارتها يد خبير كانت آلة خطرة .

وهذا الرجل هو جيلوت .

فلنعد الآن اليه حيث تركناه مع خاله وقد قطع أذنيه .

فقد بقي ممدداً على أرض القبو في قصر مسيم وهو لا حراك به .

ويذكر القراء أن خاله كان قد سأل الدوق دامفيل إذا كان يحب الاجهاز على ابن أخته بالقتل .

فأجابه هنري : كلا ، فانه قد يفيدنا .

فسار جيل في أثر مولاه دون أن يكترث لابن أخته .

أما جيلوت فانه لما استفاق من اغمائه كان أول ما فعله انه مد يديه متفقداً أذنيه كأنه كان يرجو أن يكون حالماً .

ولكن يديه لم تظفرا إلا بالصماد فأشهق بالبكاء وجعل يقول

رباه ما يقول عني الناس إذا رأوني من غير أذنين ، فقد زال الشبه بيني وبين الانسان ، بل إني لا أتجاسر أن أتشبه بالحيوان ، فان الحيوان له أذنان .

وزد على هذا إني سأفقد حاسة السمع . ولكني اسمع كلماتي ، وذلك يدل على أن حاسة السمع لا تفقد بفقد الأذنين .

فإذا كان هكذا فاني البس قبعة كبيرة تستر أذني فلا يراها أحد .

وقد تعزى بذلك بعض العزاء ، ونهض يحاول الخروج من هذا القبو الذي كان مؤوماً عليه .

فصعد السلم ووصل إلى الباب فرأى خاله داخلاً منه ، وقد عاد اليه بعد أن تداول ملياً مع هنري .

فقال جيلوت في نفسه : انه قادم للاجهاز علي ولا ريب أن المارشال أمره باعدامي ، فواأسفاه إني لا أعيش بعد أذني .

ولكنه ذهل ذهولاً شديداً حين رأى خاله يبتسم ويقول بلهجة حنو : كيف أنت الآن يا بني ؟

– على أسوأ حال يا خالي العزيز ، وما يكون حال من قطعت أذناه ؟

– صبراً يا بني فستعالجك ونشفيك .

– ماذا اسمع .. أأنت تقول لي هذا القول ؟

– ولماذا تعجب لقولي

– لأني كنت أتوقع أن تقتلني .

– أنا أقتلك أيها الأبله .

– وما يمنعك عن قتلي إذا أمرك الدوق .

– ان الدوق عفا عنك ولم يقتصر على العفو بل انه يريد ان يغنيك .

– يغنيني ؟

– نعم يغنيك أيها الأبله بشرط ان تطيعه كي تلبسه خياطتك الفظيعة .

أقسم لك يا خالي إني ندمت الندم الشديد .

– ذاك لخيرك فإذا كنت أميناً في خدمته أغناك . ألم تر صندوقي ؟

– رأيته ولا يزال ما رأيته قبه يبهر عيني كأني أراه الآن .

– إذاً فاعلم أن كل ما رأيته في هذا الصندوق يغدو لك إذا كنا راضين عنك ، أي إذا كان مولاي راضياً .

ففتح جيلوت عينيه كأنه يريد أن يسمع بعينيه ما فاته بخسارة أذنيه ، وبعد أن أغمي عليه من الألم واليأس كاد ان يغمى عليه من الفرح والرجاء . فقد يذكر القراء أن الطمع كان أشد عيوب جيلوت ، ولولا هذا الطمع الاشعبي لكان اكتفى بما سرقه من صندوق خاله وهرب قبل أن يدركه .

فقال لخاله وهو يضطرب .

قل فاني مستعد لكل ما تريدون ، فبماذا يأمر الدوق .

– أولاً ان يشفيك .

– رضيت ، وبعد ذلك .

– وبعد ذلك .. سوف ترى فتعال معي الآن

ثم تأبط ذراعه كي يعينه على المسير ، وسار به إلى غرفته ووضعه على سريره وجعل يعتني به عناية خاصة .

وقد أسف جيلوت لأنه لا يستطيع قلبية أمر الدوق بالشفاء العاجل فانه أصيب بحمى شديدة عقبها هذيان مدة يومين ، أي انه لبث مدة يومين يستعطف خاله ويتوسل اليه أن لا يقطع أذنيه .

حتى انتهى الأمر بخاله أنه توعده إذا لم يلزم السكوت .

ولا ندري أكان سكوته عن ذكر أذنيه لانقطاع الهذيان أو للخوف .

وفي اليوم السادس زالت الحمى ، وفي اليوم العاشر شفي منها ومن الجراح وتمكن من مبارحة الفراش .

وقد كان أول اهتمامه انه ذهب فاشترى قبعة عظيمة تغطي آثار

قطع أذنيه .

وفي ذلك اليوم تداول مع خاله مداولة طويلة ، ولبس بعدها خير ملابسه فقال له خاله : إذهب الآن فاني امنحك رضاي عنك .

- بل أؤثر أن تعطيني بضعة ريالات على الحساب

فتململ جيل ولكنه لم يسعه إلا الامتثال فقال له : إني معطيك ما طلبت بشرط أن تفوز بالدخول .

- سأحتال على ذلك بطريقة مأمونة .

- ما هي ؟

- قطع أذني .

- ثم تركه يفكر بجوابه وانصرف .

وقد عرف القراء كيف جاء جيلوت إلى قصر موفورانسي ، وكيف انه لقي باردالبان الأكبر في غرفة البواب فذهب به إلى غرفته .

وقد كانت قصور النبلاء في ذلك العهد تشبه الحصون ، فانه كان يوجد في قصر النبيل الكبير نحو مائتي رجل من الحامية ، وذلك عدا عن الاشراف والندمـــاء الذين كانوا يقيمون في قصر ذاك النبيل ، فينادمونه في جلساته ويخفرونه في رحلاته .

وهكذا كان قصر موفورانسي وقصر مسيع وقصر دي كيز وغيرهم من كبار النبلاء .

وعلى ذلك وجد باردالبان الأكبر محلاً يوافقه في ذاك القصر الكبير .

وقد قال له المارشال فرنسوا يوماً : هذا إذا رضيت أن تكون محافظ هذا القصر لا يستطيع أحد الاستيلاء عليه .

فأجابه باردالبان قائلاً :

لقد رضيت يا سيدي وإني أدفن نفسي تحت انقاضه قبل تسليمه

ومن ذلك يتضح للقراء ما كانت عليه حالة سكان هذا القصر .

على اننا سنعود إلى هذا الموضوع فلنبحث الآن في شأن جيلوت فنقول :

انه حين وصـــل به باردالبان إلى غرفته جلس على كرسي ونظر إلى جيلوت فقال :

أتدعي يا جيلوت انك تستطيع خدمتنا .

هذا ما أظنه

- وأنت قادم لعرض هذه الخدمة علينا

- هو ذاك يا سيدي .

- حسناً يا جيلوت وسنرى ما تستطيع ان تعمله منك ، ولكن قبل كل شيء أريد ان اقول لك شيئاً .

ما هو يا سيدي .

- هو اني إذا رأيتك تسمع من وراء الأبواب أو بدرت منك بادرة تدل على خيانة لا أقطع اذنيك فلم يبق لك أذنان ولكني أقطع لسانك .

فارتعش جيلوت وقال : ان خالي قطع اذني وأنت تريد قطع لساني ، فما الذي يلذكم بتقطيع جسمي وتشويهي هذا التشويه

- هذه هي طريقتي يا بني في العقاب ، ويظهر انها طريقة خالك ايضاً ، فكن واثقاً إذا فهت بكلمة مما تسمع هنا لأي رجل كان ، لا اكتفي بقطع لسانك فقط ، بل أدع الطباخ يقليه بالزبدة واكرهك على اكله .

فارتعش جيلوت من الخوف ، حتى لقد خطر له أن يخون خاله في تلك الساعة ، غير انه تذكر ان انتقام خاله شديد ، وانه يثبت القول بالعمل ، ثم ذكر الصندوق وما رآه فيه من الذهب ، فعزم على ان يخاطر بقطع لسانه وقال في نفسه :

إن لساني لا يقطع إلا إذا اكتشف خيانتي وهب انه اكتشفها وقطعه فلا أبالي ، فاني لا احب كثرة الكلام ، غير اني اخشى ان تتمرن الأيدي على بتر اعضائي فبعد قطع لساني يقطعون أنفي .

وكان باردالیان يراقبه باعتناء فقال له : بماذا تفكر يا جيلوت .

ـ افكر بما يجب أن أقوله لك كي أوطد ثقتك بي ، وما زال لساني باقياً لي الآن فاني استعين به لأقسم لك يمين الوفاء والطاعة .

فضحك باردالیان .

واعتبر جيلوت هذا الضحك شاتماً له وقال :

ـ لا أرى ما يوجب الضحك في وعيدك فساني الآن من غير اذنين فاذا قطعت لساني فما الذي يبقى لي

ـ ولكني لا أقطع لسانك أيها الأبله إلا إذا خنتني فلا خوف عليه إذا كنت أميناً .

ـ لقد أصبت يا سيدي وأنا حقيقة من البلهاء .

ـ قل الآن بماذا تقدر ان تفيدنا .

ـ لقد علمت ، إن العلائق غير حسنة بينك وبين الدوق دامفيل ، فإنك إذا ظفرت به قتلته ، وإذا ظفر بك لا تمر بضع دقائق ، حتى تصبح رجلاك ترقصان في الهواء ، وعنقك معلق بالحبل وهو ما يسوءني جداً يا سيدي الشفاليه .

ـ امض في حديثك يا جيلوت .

ـ والذي اظنه يا سيدي ، إنك إذا كنت عارفاً بجميع ما يفعله الدوق دامفيل وجميع ما ينويه لك ، تستطيع ان تقي نفسك من كيده ، اليس كذلك ؟

ـ ولكن كيف السبيل الى معرفة ما ينويه المارشال .

ـ هذا الذي سأفيدك عنه ..

ـ ولكن كيف تستطيع إفادتي ما زلت لا تستطيع ان تعود إلى قصر مسيو .

ـ هو ذاك ، فقد انذرني خالي والدوق اني اذا عدت إلى القصر لايقتصران

على قطع اذني بل يكون جزائي القتل .

ـ إذاً كيف تصنع .

ـ ألم تسمع ، يا سيدي ، ذلك المثل القائل : « ما يريده المرأة يريده الله » .

ـ نعم ..

ـ إذاً . فاعلم انه يوجد فتاة في القصر تدعى جانيت ، وهي تحبني وساتزوجها .

ـ يستحيل ان تحبك .

ـ لماذا الأني أبله كما تراني .. أشكرك يا سيدي ، فذلك أحسن مدح سمعته بخطيبتي .

ـ أرى يا جيلوت اني كنت مخطئاً بشأنك ، فأنت من أهل الحيلة والذكاء كما أرى .

ـ مهما يكن من الأمر يا سيدي فان جانيت تحبني وهي تفعل كل ما أريده ، وتستطيع ان تقف على كل ما يجري في القصر فتخبرني به وانا أنقله اليك فهل توافق على هذه الخطة

ـ بلا ريب ، فماذا تريد مني مقابل هذه الخدمة .

لقد قلت لك ما أريده يا سيدي ، وهو ان تعينني على الانتقام من خالي لقطعه اذني .

ـ وأنا اعدك اني سأسلمك إياه مغلول اليدين والرجلين فتصنع به ما تشاء فقل لي كيف يكون انتقامك .

ـ اني اكتفي بقطع اذنيه .

ـ ومتى تبدأ هذا التجسس .

ـ حينما تريد .

ـ حسناً ، فاعلم الان اني إذا كنت راضياً عنك لا اقتصر على مساعدتك

على الانتقام ، بل أعطيك ما تستطيع عده من الريالات
وعلى هذا فقد اتفقا وبات هذا الخائن في قصر مونورانسي .

ولم يضع وقته عبثاً فقد أقام تلك الليلة واليوم التالي في فحص قصر مونورانسي .

ثم خرج منه بعد ان قال لباردالبان انه ذاهب لمقابلة جانيت

وخرج هذا المحتال إلى قصر الدوق دامفيل وهو يلتفت من حين إلى حين كي يستوثق إذا كانوا يقتفون اثره

حتى إذا وصل إلى القصر قال له خاله : ما وراءك من الأخبار

ـ لقد أصبحت من سكان القصر .

ـ اوضح لي ما فعلت .

فأخبره جيلوت بجميع ما كان بينه وبين باردالبان الأكبر ، وكيف انه فحص القصر فحصاً دقيقاً

فقال له جيل :

ـ كم تبلغ حامية القصر

ـ خمسة وعشرون رجلاً فقط وهم مسلحون بالبنادق .

ـ أين يقيمون .

ـ في البناية الكائنة وراء الباب الكبير .

ـ أهذا كل عدد الحامية .

ـ كلا بل يوجد في بناية أخرى عشرة رجال من الأشراف المخلصين لفرنسوا مونورانسي .

ـ إذاً يكون عدد الحامية بجملتها خمسة وثلاثين رجلاً

ـ ليس هذا كل عددها يا خالي .

ـ ماذا أيوجد أيضاً حامية غيرها .

ـ يوجد أيضاً الشغاليبه باردالبان وابوه الذي يقطع الألسنة

ـ ماذا تعني بهذا ايها الأبله .

ـ لا شيء سوى ان هذين الرجلين قد يعادلان جميع الحامية فتكون جملتها سبعين رجلاً .

ـ ربما ، فأخبرني الآن أين يقيم هذان الرجلان ، واين يقيم المارشال ؟

فأخبره جيلوت عن كل ما رآه بالتفصيل

قال . حسناً فاجتهد الآن ان تحتال على المجيء الي كل يوم أو يومين ، دون ان تثير الشكوك ، وسأقول لك ما يجب أن تصنعه .

ـ لقد وجدت الطريقة التي تسهل حضوري كل ساعة إذا شئت .

ـ ما هي ؟

ـ هي أن باردالبان يعتقد الآن إني أحضر إلى قصر مسيم لتجسس أخباركم .

ـ يسرني ان اراك على غير ما كنت اعهده فيك من الذكاء وهو مما يزيدك وثوقاً من نيل أموال الصندوق ، فاذهب الآن في شأنك وعد إلي من حين إلى حين .

فانصرف جيلوت وهو يقول في نفسه : ترى ما يجب أن أقوله لباردالبان وهو قد علم انني اتيت إلى هنا .

ثم ارتعش فجأة لخاطر غريب خطر له فقال في نفسه :

اني سأنال كنزاً من قصر مسيم لأخبر بما يجري في قصر مونورانسي ، فلماذا لا أنال مثل هذا الكنز من قصر مونورانسي فأخبره بما يجري في قصر مسيم .

وقد ظهر لجيلوت ان هذا الخاطر من آيات الحكمة .

فإنه سيكسب من الجانبين بخيانة الجانبين وعول على أن يخون خاله لدى باردالبان ويخون باردالبان لدى خاله .

ولما وصل إلى قصر مونورانسي القى باردالبان وقال له لدي أخبار خطيرة

يا سيدي ، فقد لقيت جانيت .

فقال باردالیان في نفسه هوذا كنز ثمين قد عثرنا به دون عناء .

- ٢٤ -

بانيكارولا

هو ذاك الراهب الذي عرف القراء ما عرفوه من علاقته باليس دي ليكس حين كان مركيزاً .

وقد عرف القراء عنه انه كان يعظ كل يوم في الكنيسة عظات بليغة يحث فيها سامعيه على قتل الهوكينوت ، ويظهر من التحمس في التعصب على اولئك المنكودين ما كان معظم السبب في اعتيالهم في تلك المذبحة الهائلة الشهيرة .

غير ان هذا الراهب المتحمس المتعصب ، انقطع فجأة عن الخطب وإيغار الصدور واعتزل في دير جبل سانت جنفياف اتم العزلة ، فلم يره احد بعد هذا الاعتزال .

وبعد أن احتفلوا بتشييع جنازة ملكة النافار بيومين ، وقفت عند هجوم الليل مركبة امام باب الدير .

وكان في المركبة إمرأتان مقنعتان ببرقعين أسودين فنزلتا منها وطرقتا باب الدير . فسألهما البواب عما يريدان ، فأجابته اصغرهما إننا نريد مقابلة الراهب بانيكارولا .

ورفع البواب يديه إلى السماء وقال ان النساء لا يدخلن الدير يا سيدتي ولا يجتمعن بالرهبان فيه .

فاخرجت الكبرى رسالة من جيبها فدفعتها اليه وقالت سر بهذه الرسالة إلى الراهب بانيكارولا وارجع في الحال إذا أردت أن تأمن العقاب .

وكانت هذه المرأة تتكلم بلهجة تدل على السيادة فلم يسعه إلا الامتثال وذهب مسرعاً بالرسالة إلى الراهب وعاد به إلى المرأتين .

وقد كان انذهال البواب عظيماً حين رأى الراهب قد انحنى امام المرأة حتى كاد يبلغ الأرض .

ثم زاد انذهاله حين رأى ان الراهب قد تكلم بصوت منخفض مع المرأة وتقدمها فتبعته إلى غرفته .

وأما المرأة الصغرى فقد بقيت في قاعة الانتظار .

أما تلك المرأة التي ذهبت مع الراهب إلى غرفته فانها حين وصلت اليها نزعت برقعها فكانت الملكة كاترين .

فابتسمت له وقالت :

اني اخاف أن يكون الراهب البواب قد عرفني فلا تقضي هنيهة حتى يعلم جميع رهبان الدير ان والدة ملك فرنسا عندك .

– أسأل سيدتي ان تطمئن فان الراهب لا يقول كلمة عن جلالتك ولكن كان بوسعك يا سيدتي ان تجتنبي هذا القلق فانك لو امرتني بالحضور إلى القوفر لأسرعت إلى الامتثال .

فحدقت الملكة به وقالت له : أحق ما تقول ؟

– ان رجال الله لا يكذبون .

– هو ذاك ولكني عرفت المركيز بانيكارولا وعرفت انه لا يعمل إلا ما يخطر له .

– ان الرجل الذي تذكرين اسمه يا سيدتي قد مات ، ومع ذلك فلو

كنت لا ازال ادعى المركيز بالنيارولا ، لكنت أبعد عن الكذب من يدعي عنه الآن ، فان الراهب يمنعه رئيسه عن الكذب ، وأما المركيز فانه يمنع نفسه عنه .

– لقد اصبت فقد عرفتك شديد الكبرياء ومن كبرت نفسه لا يكون من الكاذبين .

على أن الكذب محمود في بعض الأحيان ، فلندع الآن البحث في هذه المبادىء .

فاصغ إلي الآن واول ما ابدأ بقوله لك اني لست الملكة الآن بل انيصديقة لك ، بل صديقة مخلصة .

ولكن ما هذا التحول الذي اصابك ... قل بجلاء ، فمساي أجد دواء لدائك .

فاجابها الراهب بلهجة خطيرة قائلا :

انك تأمرينني يا سيدتي ان اتكلم بجلاء وحرية وهذا ما اقوله :

اني حين اتيت إلى بلاط فرنسا حسبتني آتيا من قبل الجمهورية الايطالية ، وظننت اني اؤامر مع المارشال فرنسوا مونمورانسي ، بل حسبت اني قادم باسرار هائلة مخيفة فسلطت علي إحدى جواسيسك لتسترق مني هذه الأسرار .

فلم يطل العهد بهذه الجاسوسة حتى وثقت اني لا اؤامر فاطمأن بالك حق انك عرضت علي بعض التقدمات فرفضتها لاني كنت في ابان شبابي لا ابالي بغير اجتناء لذة الحياة .

ولكن جلالتك بالرغم عن رفضي اردت أن تشرفيني بصداقتك وربما كنت ترجين ان تداهمني مصيبة يوماً من الأيام فتنقذيني منها بحيث اصبح مديناً لك بالجميل فاغدو آلة بيدك لتنفيذ مآربك السياسية .

أقول هذا القول وانا ارجو ان لا اكون قد اسأت إلى سيدتي بهذه الحرية .

فابتسمت الملكة وقالت : كلا ، لم تسؤني اقوالك ، ولكني عجبت كيف عرفت اني حسبتك من جواسيس الايطاليين .

بشكل بسيط جداً يا سيدتي وهو أن المرأة التي كانت تتجسس اخباري قد مرضت يوماً ..

– وكان هذا المرض على أثر الولادة .. نعم فاني أعرف هذا وأعرف انك أب يا حضرة المركيز .

هذا أكيد يا سيدتي الملكة ، فان هذه المرأة التعيسة غدت أماً .

وكانت قد سرقت اوراقي ذات ليلة كي تدفعها اليك فعلمت من ذلك انها من جواسيسك ولما ولدت ومرضت أثر الولادة اصيبت بهذيان فعلمت منها وهي تهذي كلما كنت تضمرينه لي .

وعندها اغتنمت فرصة مرضها واستكتبتها الكتاب الذي تعترف فيه انها قتلت ولدها فاعطيتك هذا الكتاب كي انتقم منها .

كيف ذلك يا مركيز ، أحسبت اني أدفع البس إلى الجلاد كي ينتقم لك منها .

– كلا يا سيدتي ، فاني كنت واثقاً انك لا تقدمين على هذه الأمور البسيطة ولا يفيدك قتل هذه المرأة بضربة واحدة .

ولكني كنت اريد أن أجعلها بهذا الكتاب عبدة لك . فقد خطر لي انه سيأتي يوم ينفذ الحب إلى قلبها وانك لا تتكرمين عليها بستر ماضيها ، وانها ستعذب في هذا اليوم كما تعذبت ، وكفاني بعذابها انتقاماً .

– اني لا اريد الاساءة اليك يا مركيز فاني احترمك وقد تكرهني ولكنك تعلم مني انني انسى الكره حين ارجو ان استفيد منك .

فاجابها الراهب بلهجة يأس : ابارك الساعة التي تفضين علي فيها ، فتدفعينني إلى الجلاد لاني انجو عندها من هذه الحياة التي لم أعد أجسر على مواصلة السير في طريقها .

وأما انك تستفيدين مني يا سيدتي، فانظري الي تجدي اني أصبحت هيكلا من عظام، فقد سئمت الحياة وأرجو بهذه العزلة أن أتوصل إلى الايمان بالله فأستريح .

– كيف ذلك ألا تؤمن بالله ؟

– كلا يا سيدتي ..

– إني أشفق عليك ..

– حقك أن تشفقي علي، فقد أفرغت مجهودي وكنت أتكلف التعصب على الهوكينوت تكلفاً، وأخطب الخطب البليغة حاثاً على الجهاد في سبيل الدين، حتى كدت أصدق نفسي، ولكني عدت وأسفاه فجأة إلى ما أنا عليه الآن ..

– لماذا ؟

– لأني لقيت تلك المرأة وكنت أحسب ان ذلك الغرام القديم قد انطفأت جذوته، فإذا هي نار مخبوءة تحت الرماد .

فانقدت عينا الملكة ببارق سرور وقالت في نفسها : لقد قبضت عليه .

وساد السكوت بين الاثنين، فإن الملكة لزمت الصمت لوثوقها أن المركيز يجول في عالم آخر في هذه الساعة بعد أن تمثلت له اليس وملكته بجملته .

وبعد هنيهة بدأت الحديث فقالت :

– أتريد أن تعلم أيها المركيز لماذا أتيت اليك .

– إن من واجباتي الاصغاء إلى جلالتك ولا يحق لي أن أسألك ..

– إذاً .. فاعلم ان الذي دفعني إلى القدوم اليك مسألة تتعلق بالضمير ولا تحسب اني قادمة للاعتراف، فقد اعترفت لي انك لا تؤمن بالله، ولكني أتيت لأسألك، إذا كنت تعتبر أن اليس قد لقيت من العذاب ما يكفي لارواء غلك من الانتقام، فقد ذكرت لي ذلك الكتاب الذي استكتبتها إياه ودفعته

لي .. أما أنا فأرى انه يجب أن أرد اليها هذا الكتاب فقد كفاها ما لقيت، فماذا ترى أنت ؟

فأجابها بصوت مضطرب، إني أرى ما تراه جلالتك .

فقالت في نفسها : العله يخدعني .. كلا فإنه صادق فيما يقول .. ثم قالت له :

– يسرني أن أسمع منك هذا يا مركيز، فاني أرجعت اليها الكتاب .

– إذاً فقد باتت حرة وقد نجت منك يا سيدتي .

– ومنك أيضاً، أيها الأب المحترم .

– إني لم أنذرها بشيء على الاطلاق .

– كيف هذا يا مركيز، أيجب أن أقول لك بأني سمعت ما دار بينكما يوم جاءتك معترفة، أم تريد أن أخبرك بما حدث بينك وبينها حين زرتها في منزلها .

اني سمعت ورأيت كل ما جرى، إن لم يكن بعيني وأذني فبعيون وآذان جواسيسي .

وأنا أعلم انك تحب اليس .. بل تعبدها، وانك قد حبست نفسك في هذا الدير بسبب هذا الحب .

– العلي قلت لك يا سيدتي إني لا أحبها ...

نعم . إني أحبها، بل أعبدها كما تقولين .

وقد أنهكت قواي في سبيل نزع هذا الحب من قلبي فوجدته لا ينزع إلا بانتزاع القلب ..

نعم .. إن ضميري قد تاه في عباب اليأس، وكيف اتجهت لا ترى عيناي غير الظلمات .

بحثت في الانسانية فوجدتها شقاء وآلاماً وحدقت بالملك والسلطة فرأيتهما مجداً باطلا، وأمعنت في حقائق هذا الوجود فوجدتها يفضلها العدم

بحيث أصبحت ظل نفسي .

ومع ذلك اني حين الج إلى أعماق هذه النفس المسودة بظلمات اليأس أجد فيها بريق عاطفة جديدة يخترق هذه الظلمات .

فدهشت الملكة لما سمعته وقالت له : ما هذه العاطفة الجديدة أيها المركيز .

– هي عاطفة الاشفاق .. عفواً يا سيدتي ، فاني أعلم اني أكلمك الآن بلسان تجهلينه ويجهله رجال اليوم ومع ذلك فقد اتصلت إلى الحكم بأن الشفقة وحدها هي التي ستنقذ العالم .

نعم يا سيدتي فإنه حين تسري عاطفة الاشفاق إلى قلوب الناس ، فيشفق كل إنسان على أخيه الانسان ، وحين يعلمون جميعهم حقيقة ضعفهم الانساني وحين يشفق الغني والقوي على الفقير والضعيف ، وحين يشفق ذلك الفقير نفسه على غرور ذاك الغني ، يصبح الناس متحدين مؤتلفين ، فلا سيد ولا مسود ، ولا ملك ولا رعية ، ولا غني ولا فقير ، بل يصبح الناس يداً واحدة لا يعملون إلا لمعاونة بعضهم بعضاً بفضل تلك العاطفة عاطفة الاشفاق .

فقالت الملكة : ما هذا الجنون وما هذه الأفكار التي لا تجول إلا في مخيلات أهل اليأس .

ولكن الراهب لم يسمع كلماتها فمضى في حديثه فقال :

– هذا ما يجول في خاطري يا سيدتي ، حين أمعن في اختراق ظلمات نفسي وأبصر ذلك النور الضعيف ، فيخف بعض ما عندي ، وأتعزى بعض العزاء ، فأحبس نفسي في هذه الغرفة ، ولا أروم حول منزل التي أحبها ، وما كان ذلك إلا من تلك العاطفة التي سرت إلى نفسي فأشفقت على تلك المنكودة التي نكدت حياتي ، ولكنها تنكدت مثلي وربما تجاوز شقاؤها شقائي .

فنهضت الملكة قائلة : أرجو لك العزاء كله يا مركيز فانك أولى بالرحمة

من تلك المنكودة .

ثم مشت خطوتين إلى الباب تحاول الانصراف ، وهي تعتقد انه لا سبيل إلى مباحثة هذا القانط .

ولكنها توقفت فجأة كأنما خطر لها خاطر سريع والتفتت إلى الراهب فقالت :

– إني أهنئك بعاطفتك الجديدة ، فإن ليس ستغدو سعيدة بعد أن نجت منك بفضل إشفاقك ، ونجت مني إذ لا فائدة لي بتعذيبها . وهي ستكون سعيدة أيضاً مع الرجل الذي تهواه .

فاهتز الراهب كأن يداً كهربته .

ورأت الملكة اهتزازه فقالت في نفسها : لقد لسعته الغيرة .

ثم قالت له إلى اللقاء يا حضرة المركيز ، وسأبحث في المبادىء التي يريد أن تضعها فتدعو الناس إلى المساواة .

فقال لها الراهب دون أن يفهم ما تقول : الرجل الذي تهواه ؟

نعم .. وهو الكونت دي ماريلياك صديق ملك النافار الحميم وسيتزوج هذا الهيكونوتي ، الليس بعد زواج مولاه ملك النافار ، ويذهب بها إلى بلاد النافار ، فيعيش معها أسعد عيش ، بعد أن يتوطد السلم بين الكاثوليك والهوكينوت .

ولا يستطيع قلم كاتب أن يصف ما كان يجول تلك الساعة في نفس ذلك المنكود من الشقاء ، فان كانزين أضرمت بكلمة واحدة نار الغيرة الكامنة في قلبه .

وقد كان يحاول أن ينساها بعد أن أشفق عليها ، وأراد إنقاذها من عذابها وطرد من نفسه افكار الانتقام منها حتى لقد خطر له أن يرحم لها ابنها .

وفيما الحب والاشفاق يتنازعانه ، وقد أوشك أن ينسى الكونت ماريلياك جاءت كلمة الملكة مثيرة لأشجانه ، فرأى انه قد يستطيع العفو عن العشيقة

المنكودة ولكنه لا يستطيع الاغضاء عن العاشق السعيد ، حتى انسه بات يكره العاشق أكثر مما كان يحب المعشوقة .

ورأت الملكة ذلك الاضطراب البادي بين عينيه ، وعلمت ما يجول في نفسه وقالت له :

– كيف رأيت مبادىء الاشفاق يا مركيز .. إنك أشفقت على ماريلياك ، فهل أشفق هذا العاشق السعيد عليك .

فاصطكت أسنان الراهب من القهر وقال :

– لتحيى اليس ، وأما ماريلياك فيجب أن يموت .

– وماذا تستطيع أن تصنع معه .

– لا شيء . ولكنك تقدرين على كل شيء .

– هذا لا ريب فيه ، ولكن أية فائدة لي من قتل هذا الرجل ، فليعبد اليس ولتعبده وليتزوجا ، وليعيشا سعيدين ، فليس هذا من شأني .

– إذاً ماذا أتيت تعملين هنا .. إنك الملكة ، بل أنت أعظم ملكة كاثوليكية ، وقد وردتني رسائل من روما ، تدل على انك زعيمة الكاثوليك وبيدك زمام الكثلكة .. أيتها الملكة إني كفلك دون احترم ، وبا زعيمة الكثلكة اني اعترفت لك بكفري ، فكيف لم تأمري بالقبض علي والقائي في ظلمات السجون ، بل لماذا تسمعين كل ما أقول ..

كل ذلك يدل يا سيدتي ، إنك محتاجة الي لتنتقمي انتقاماً أجهله ، او لانفاذ مشروع سري خطير .. فاعلمي اني أرضى بكل ما تريدينه ، وأكون آلة لتنفيذ أغراضك ، وأخلع هذا الثوب فأمتزج بالناس ، إلى أن اقتل هذا الرجل الذي تحبه اليس ثم تأمرين بعدها بقتلي .

يسرني انك عدت إلى رشدك ، فانا انسى كل ما قلته لي ، واعترف اني محتاجة اليك واعتمد على مساعدتك ، لأني أعلم حقيقة كرهك لعاشق اليس .

– قولي يا سيدتي ومري بما تشائين ، فان الغيرة من هذا الرجل تقطع قلبي ، ودعيني أمتع النفس بقتله ثم لتقتليني بعده .

– كلا ، لن تموت .. وما الذي تريده الآن يا مركيز ؟

إنك تريد أن لا تكون اليس زوجة هذا الرجل الذي تحبه ، وتريد قتل هذا الرجل ، ثم تريد أيضاً أن لا تعلم اليس انك القـــاتل ، إذ لا يزال في قلبك نور رجاء .

– كل هذا سهل يا مركيز اذا كنت تساعدني في ما اتيت لأجله .

– اني مستعد للامتثال .

– إذاً فاسمع ، اني أريد منك الان ان تعود إلى ما كنت عليه من الحض على قتل الهوكينوت .

– وأية فائدة من هذه الخطب الان ؟

– انسيت أن ماريلياك من الهوكينوت .

– ولكنك عقدت الصلح مع هنري دي نافار وسيتزوج ابنتك .

– وفي اليوم التالي يتزوج ماريلياك باليس .

فأن الراهب أنين الموجع دون أن يجيب .

وعادت الملكة إلى الحديث فقالت :

– ان الصلح قد عقد بيننا ورجائي أن يكون وطيداً ، ولكن لا يزال يوجد بين هؤلاء الهوكينوت نحو مائة رجل لا سبيل معهم إلى المسالمة ، ولا بد من قتلهم لتوطيد السلم العام .

ثم انه لا سبيل إلى عد كتلهم ، فلو عدنا مائة رجـل من الهوكينوت ، نكون كأننا نثير حرباً جديدة .

غير ان الشعب إذا ثار يوماً على أولئك المشاغبين فقتلهم ، وأنكر الملك وأنكرت معه هذا الأمر بلغنا غايتنا من توطيـد السلم دون أن نسيء إساءة ظاهرة إلى مجموع الهوكينوت .

وحده قاضيه

وماذا يجب ان نعمل للبلوغ إلى هذه الغاية ؟

يجب أن نزرع بذور الأحقاد في نفوس الشعب ، وأن نثيرهم كما نثير الوحوش المفترسة في أقفاصها . ثم نفتح تلك الأقفاص ، ونرشد أولئك الثائرين الى الذين يجب افتراسهم .

فعد إلى خطبك البليغة الهائلة .. واذكر فيها : كولبني ، وتاليني ، وكوندية ، وماريلياك .

حتى إذا امتلأت الصدور من الأحقاد انطلق الشعب عليهم فأراح العلم من وجودهم وسادت السكينة في البلاد .

هذا ما أطلب اليك فعله إذا أردت أن أخلصك من مزاحمك باليس ، فقل الآن أتريد .. أأعتمد عليك ؟

فسكت الراهب هنيهة ثم قال :

غداً .. أعطني كنيسة سانت جرمين .

ـ إذاً ، لا تهتم بما يكون بعد ذاك فعلي البقية ، ولكني أخبرك انه ستحدث عجائب ، وسيكون أولى هذه العجائب ان اليس ستحبك .

ـ تحبني أنا .

ـ نعم تحبك أنت ، فاني أعرف اليس حق المعرفة ، فأثر الشعب على الذين ذكرتهم ، وأنا أرد لك اليس ، فاستعد أنت ونحن نستعد أيضاً .

ـ كيف هذا .

ـ لأننا سنضع في ليلة من الليالي علامة على كل منزل من منازل اولئك الثلاثة الذين ذكرتهم لك . ففي اليوم المعين تحترق هذه المنازل بمن فيها .

ـ أتعرفين أين يقيم ماريلياك .

اطمئن فان منزله سيحترق قبل كل المنازل ، وقد تأهبنا لكل شيء حتى اننا عينا اليوم .

ـ أي يوم هو ؟

ـ في الرابع والعشرين من شهر أغسطس وهو اليوم الذي يتفق فيه عيد القديس برتلماوس .

ـ وانت اطمئني يا سيدتي ، فسأفتكر في طريقة إثارة الشعب

وقد قال الراهب هذا القول والزبد يخرج من شدقيه فرأت الملكة انه لا فائدة من اقامته اكثر من ذلك .

فتركته وانصرفت إلى المرأة التي كانت تنتظرها في القاعة ، فركبتا المركبة ، وأنزلتا سجوفها وسارت بهما .

ولكنها لم تسر بطريق اللوفر ، بل بطريق قصر الملكة الجديد .

ولبثت المرأة التي كانت معها ساكتة واجمة إلى أن قالت لها الملكة : كيف ذلك ، ألا تسألينني بماذا أجاب ؟

فأزاحت المرأة نقابها فظهر من تحته وجه اليس دي ليكس فقالت :

ـ كيف أجسر يا سيدتي على سؤال جلالتك .

ـ اني آذن لك ولكنك لا تجسرين كما أرى فسأجيب كما لو كنت سألتني فأقول انه يعفو عنك يا اليس .

فارتعشت اليس ارتعاشاً ظاهراً .

فقالت لها الملكة : انه عفا عنك يا اليس وننسى كل ما مضى سيدتي

ـ تريدين أن تسألي عن الكتاب .. اليس كذلك . إذاً فاعلمي اني ارجعته اليه وهو سيعطيك إياه بيده

وليس هذا كل ما يريده ، بل انه يريد ان تكوني سعيدة ولذا سيرد اليك ولدك ، فيكون معك حيث تكونين .

فاصفر وجه اليس

وحده

فأظهرت الملكة الاستياء كأنها تريد أن تظهر انها فهمت سبب اصفرارها وقالت :

– رباه ... اني نسيت أمر هذا الغلام . نعم ، لا يجب أن يعلم دبودات بأمره وسيبقى عند أبيه ، فإنه ما تخلى لك عنه غير مكره مضطر بعامل الاشفاق .

وواصلت المركبة سيرها حتى وصلت إلى القصر .

وأما بانيكارولا فقد لبث في غرفته بعد ذهاب الملكة وأقام فيها هنيهة هائجاً مضطرباً لا يعلم ما يصنع .

وكانت له الحرية المطلقة في الدير ، بل ان الرهبان كانوا يرهبونه لاعتقادهم انه مزود بسلطة عظيمة من رومة .

فترك الغرفة وذهب إلى الحديقة فسار إلى مقعد هناك وجلس عليه ، وقد وضع رأسه بين يديه وجعل يفكر .

وفي تلك الساعة مر به رئيس الدير ، وكان لهذا الرئيس منزلة سامية لدى قومه ، إذ كانوا يعتبرونه من خير رجال الله ، وله نفوذ عظيم على جميع كهنة باريس .

فلما رأى بانيكارولا جالساً وحده قال له : الملك تشتغل يا اخي .. ابق في مكانك وأتم شغلك ، فاني لا أريد إزعاجك .

– هو ذاك أيها المحترم فاني أعد خطبة سألقيها في الكنيسة .

– هذا كل ما أردت أن أعلمه ايها الأخ الجليل ، فأعد المواضيع لخطبك وسأدعو جميع الكهنة والأساقفة والرهبان إلى سماعها غداً ، كما اني سأكتب إلى رومة أن الوقت قد حان ، ولكني أرجوك ان تأذن لي بأن اوصيك في أمر .

– تفضل يا سيدي ، فاني اتلقى وصيتك بالامتنان .

– وصيتي اليك ان تجعل خطبتك واضحة جلية ، فان الكنيسة ستكون

غاصة بالكهنة على اختلاف الطبقات ، وانت تعلم انهم يحتاجون إلى الزيادة من الايضاح ، فيجب أن تذكر لهم ما ينبغي أن يفعلوه بملء الصراحة والجلاء ..

وعلى الجملة ، فاعلم يا بني ، ان القنبلة لم يعد يعوزها غير خطابك الحماسي لتنفجر .

– اطمئن يا سيدي فسيكون ما تريد ان يكون .

فوقف الرئيس وقال : إذا كان ذلك فستحدث أمور غريبة ، لأن الرهبان يحملتهم يودون إثارة الحرب ، ولكنهم لا يجسرون على قول ما يفتكرون به ، الا إذا كنت مثالهم في هذه الجرأة ، فقل كل ما يخطر لك دون تهيب فقد دنت الساعة .

ثم تركه وانصرف ..

فتركه بانيكارولا حتى ابتعد ، ثم قام من موضعه ، فدخل الى الدير ، وجعل يسير من غرفة إلى غرفة حتى انتهى الى غرفة فدخل اليها باقدام مضطربة .

وكان في هذه الغرفة سرير صغير ، كان نائماً فيه ابن ذاك الراهب .. من اليس .

فجعل الراهب يتمعن في وجهه وهو نائم نوماً هادئاً ، ثم تنهد وقال بصوت خنقته العبرات .

– اواه يا ولدي .. فلو كانت تحبك على الأقل ، لكنت خير وسيلة لعودتها الي ..

* * *

وفي مساء اليوم التالي القى بانيكارولا خطبته .

وقد حضر هذه الخطبة اسقف الملك وجميع كهنة باريس الذين بلغ عددهم

ما يزيد على ثلاثة آلاف .

وكانت أبواب الكنيسة مقفلة ، فلم يدخل اليهـا من غير الرهبان سوى عشرين رجلا ، كان بينهم الدوق دي كيز ، والدوق دي ڤاڤان ، والدوق دامفيل ، وكيرمي الجوهري ، وكرفيه الكتبي ، وبيزوا الجزار ...

وهم أولئك الثلاثة ، الذين تولوا زعامة العامة من الشعب في مذبحـة الهوكينوت المشهورة .

وقد حضر الخطبة أيضاً بعض كبار البوليس ومئات من النـاس كانوا كانوا يسمعون من وراء الأبواب .

وكان الحضور سكوتاً واجمين كل مدة الخطبة كأن على رؤوسهم الطير .

حتى إذا تم الراهب خطبته حدث ضجيج هائل بين الحضور ، ولاسيما الرهبان ثم جعلوا يخرجون تباعاً حتى لم يبق منهم احد في الكنيسة .

وعندها نهضت امرأة كانت مختبئة في لوج وخرجت ايضاً .

فلما وصلت الى الباب لقيت بضعة رجال من النبلاء حرسوا مركبتهـا فسارت بها الى قصر الملكة .

وكانت هذه المرأة الملكة كاترين ..

ولما فرغ الراهب من خطبته نظرت الى الدوق دي كيز نظرات ملؤهـا الحقد والضغينة وقالت :

— يا آل لورين افتكروا بالهوكينوت فسيوجد بينهم خلال فتكـكم بهم من يطلق عليكم مثل ناركم عليهم ، فانتم تفتكرون بالهوكينوت وهم يفتكون بكم وهذا خير ما كدته في حياتي السياسية .

ثم ابتسمت وقالت : اما الملك فلا فائدة من قتله فان المرض سيتولى قتله ويخلو العرش بعده لولدي هنري العزيز ويملك سعيداً بمراقبة امه .

وفي اليوم التالي تليت خطبة بانيكارولا في جميع الكنائس فكثر احتشاد الناس في الطرقات ، وكثر الوعيد والتهديد وبات جميع الناس ينظرون إلى

الهوكينوت النظر الشذر

أما الهوكينوت فقد قلقوا في البدء لهذه المظاهرات ، وخافوا مما رأوه من دلائل الحقد ان يكون وراء الأكمة ما وراءها .

ولكنهم رأوا ان الملك كان يدعوهم كل يوم الى اللوفر ويبدي لهم من ضروب المجاملة والتلطف ما تطمئن له خواطرهم ، فلم يكترثوا لهذه المظاهرات لاسيما وانهم كانوا منهمكين في التأهب لزواج ملكهم هنري ولا تزال نفوسهم منقبضة لموت ملكتهم المحبوبة .

« تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث »

وحده
قاضيه

منتدى
اليلاس